

منشورات الاختلاف
Editions El-Ikhtilef

عبده وازن

قلبٌ مفتوح

قلبٌ مفتوح

قلبٌ مفتوح

عبده وازن


الدار العربية للعلوم ناشرون ش.م.ل
Arab Scientific Publishers, Inc. S.A.L

منشورات الاختلاف
Editions El-Ikhtilef

بسم الله الرحمن الرحيم

الطبعة الأولى
1431 هـ - 2010 م

ردمك 978-9953-87-919-2

منشورات الاختلاف
Editions El-Ikhtilef
149 شارع حسيبة بن بوعلي
الجزائر العاصمة - الجزائر
هاتف/ فاكس: 21676179 213+
e-mail: editions.elikhtilef@gmail.com

الدار العربية للعلوم ناشرون ش.م.ل
Arab Scientific Publishers, Inc. SAL

عين التينة، شارع المفتي توفيق خالد، بناية الريم
هاتف: 786233 - 785108 - 785107 (1-961+)
ص.ب: 5574-13 شوران - بيروت 2050-1102 - لبنان
فاكس: 786230 (1-961+) - البريد الإلكتروني: bachar@asp.com.lb
الموقع على شبكة الإنترنت: http://www.asp.com.lb

التنضيد وفرز الألوان: **أبجد غرافيكس**، بيروت - هاتف 785107 (1-961+)
الطباعة: **مطابع الدار العربية للعلوم**، بيروت - هاتف 786233 (1-961+)

فتحـت عينـيّ كمـا لـو أننـي أفيق من نوم طويل، كان الظلام مـن حولـي خفيفـاً. لـم أدر إن كان ليـلاً أو نهـاراً. ردهـة واسـعة أدركت حين أدرت ناظريّ أن فيها أسرّة أخرى، وأنّ على سرير بالقـرب منـي ينـام رجـل يرفـع صوتـه حيناً تلو حيـن، ولكن من غير أن ينبس بأي كلمة. ناديت بملء صوتي: إنني عطشـان. لم يسـمع أحد، وسـرعان ما أدركت أنّ لا صوت لي. رحت أطرق بيدي على خزانة صغيرة الى جانبي. أتت ممرضة، أشـرت إليها بيدي انني عطشان. سمعتها تقول: بعد قليل. غفوت ثم صحوت. جاءت الممرضة بقليل من الماء.

عندما فتحت عينيّ جيداً وعاد صوتي إليّ تذكّرت، أول ما تذكّرت، كيف مدّدوني على سرير العربة البيضاء ثم كمثل رجل ثمل أو مخدَّر استسـلمت لنعاس لطيف تشـوبه حال من النشـوة. كانـت هـذه اللحظـات آخـر مـا أذكره قبـل أن يقودوني الى غرفة الجراحة. كانت خطواتهم تلك حاسـمة، فإمّا أن أخرج حيّاً من هناك وإمّا... لم أبصر أحداً حينذاك سـوى الممرّضين، لم يأتِ أحد ليلقي عليّ نظرة أو لألقي عليه نظرة. عبرت هذه اللحظات بسرعة، ثمّ غبت ببطء. كان ذاك أثر البنج الذي حقنوه في كيس المصل، البنج الذي رماني في نوم عميق، خلوٍ من الأحلام. إنها من المرات القليلة لا أحلم فيها أو لعلني لم أتذكر ما حلمت به.

فأنا أشعر دوماً أنني لا أستيقظ من نوم بل من حلم. تُرى الى أين ذهب بي ذاك الدواء المخدّر؟ في أيّ وهدة رماني، وحدي بلا أحلام ولا ذاكرة؟

إنني أتذكر الآن، أستعيد ما حصل كما لو أنّه حصل البارحة أو ما قبلها أو الشهر الفائت. كأنني خرجت من باب لا أذكر ما كان وراءه ووجدت نفسي صدفة أمام الضوء، فبهرت عيناي. كان عليّ أن أسترجع نفسي ولكن لا أدري من أين. أمن عتمة لم تكن عتمة أم من نهار ساطع لا يشبه النهار؟ أمن حقل فسيح كانت تنأى به غيوم ليست كالغيوم؟

إنني أتذكر الآن. أستعيد لحظات كأنني لم أعشها، بل أشك إن كانت في صميم الزمن أم خارجه، الزمن الذي فقد معالمه فأضحى لا زمنياً، طويلاً أو سريعاً أو...

اللحظة الأشد حرجاً كما أذكر، كانت عندما تعرّيت أمام الممرض. إنها المرة الأولى أتعرّى أمام رجل. لطالما كرهت هذه الفكرة وخجلت منها، بل لطالما آلمتني وتمنيت ألا أضطرّ يوماً إلى أن أتعرّى أمام رجل. حتى في طفولتي لم أكن أتعرّى إلا بين يدي أمّي. لم أكن أخجل فقط، بل كانت هذه الفكرة تزعجني. الرجل خلق ليتعرّى أمام المرأة. أمامها يشعر أن جسده أصبح جسدها، وأنّ لا هوّة بينهما ولا غربة أو عزلة. أما أن أتعرّى أمام رجل فهذا ما لم أكن أحتمله. كيف سينظر إليّ؟ ماذا سيرى؟

لماذا أتذكر للحين هذه اللحظات القاسية أو الحرجة مع أنها لم تكن سوى لحظات عابرة؟ لماذا وحدها تلك اللحظات

تهبّ من قلب هذا الظلام الذي ليس بظلام؟

راح الممرض يُعمل الشفرة حالقاً شعر الجسم، ما بان منه وما خفي في زواياه. يمرّر الشفرة وكأنها سكين. هذا ما خامرني وعشته للحظات بدت طويلة. من الصدر الى الحوض فالساقين... لم أكن أنظر إليه ماذا يفعل. كنت أحس الشفرة تمرّ بقسوة على جلدي. حين انتهى، دخلنا الحمام وراح يدلق عليّ الماء ثم قال لي: تستحمّ الآن وحدك. تنفست قليلاً. نظرت الى جسدي فألفيته أبيض خالياً من الشعر. لا شعر هنا ولا هناك. غاب الشعر الذي طالما انتظرته في مقتبل مراهقتي كي أتأكد أنني أصبحت رجلاً. أذكر ان هذا الشعر، عندما راح ينبت، جعلني أحس انني كبرت. وكان عليّ حينذاك أن أمتنع عن الارتماء بين يدي أمّي عارياً، وبت أستحمّ وحدي، أحمّم نفسي بنفسي. كان ذاك الشعر أشبه بالخيط الذي فصل بيني وبين طفولتي، بين جسدي ويدي أمي.

كانت لحظات قاسية تلك التي حلق فيها الممرض شعر جسمي. لا أقدر الآن على وصف تلك الأحاسيس الأليمة التي انتابتني. تذكرت كيف كنا ننتف ريش العصافير التي كنا نصطادها صغاراً فتصبح كلها متشابهة. شعرت أنني عصفور بلا ريش ولم يبق لجسمي أي أثر أو شكل. أصبحت بلا جسم. كثيراً ما ظننت أن شعر الجسم هو الذي يصنع الجسم، هو الذي يمنحه شكله أو لأقل معناه. جسم بلا شعر هو جسم بلا هوية. إنه جسم خنثوي، لا جسم رجل ولا امرأة.

لكنّ الممرض لم يكن يبالي بجسدي. إنه واحد من أجساد كثيرة مرّت عليها شفرته. ولا أدري لماذا شبّهته بالجزار الذي لا

تميّز سكينه بين ذبيحة وأخرى. إنها الشفرة وليس هو. كان يبتسم دون أن ينظر إليّ جيداً. لم تكن عيناه تتلصصان على جسدي ولا كانتا تأبهان له، وكأن يديه هما اللتان تعملان وحدهما.

لا أذكر أمراً مما تلا غيبوبتي أو نومي المصطنع. كان جسدي بين أيديهم. قيل إنهم فتحوا صدري وأبدلوا الشرايين الموصدة بأخرى أخرجوها من ساقي اليسرى. لم أسأل كثيراً عمّا حصل وكيف، تكفي صورة فتح الصدر. لكنّ الجروح تشهد. جرح في الصدر، جروح في الساق التأمت ويبست ولكن بقيت آثارها وستبقى. عندما نظرت الى جروحي في المرآة تهيّأ لي أنني أنظر الى جسد ليس بجسدي. الجروح تمنح الجسد حقيقة أخرى، وهماً آخر. يصبح كأنه جسد في لوحة أو في صورة أو في رواية. الجروح تصالح بين حطام الجسد وضوء الروح المنبثق من الداخل. إنها علامات الألم الصامت، غيوم في سماء المرآة التي أقف أمامها.

كان جسدي بين أيديهم، يفعلون به ما يشاؤون، أنا كنت غائباً، لا أدري أين. أتخيل هذا الجسد بين أيدي أناس لا أعرفهم، جسد غريب بين أيدي أناس غرباء، يُحنون عليه، يُعملون فيه مباضعهم، يبصرون الدم ينبثق منه ثم ينحنون فوقه برقة قاسية، يرسمون على صفحته جرحاً تلو جرح ويكتبون تاريخاً جديداً له.

الآن سأعتاد على أثر الجرح الذي في الصدر. سيصبح صديقي. أسمّيه ندبة من ضوء، إشارة، صرخة، صرخة الحياة نفسها. إنه خيط الصبح الذي يشق الليل فاصلاً بين أمسٍ وغدٍ.

الآن أصبح للجسم ماضٍ، أصبح للجسم ذاكرة، هي ذاكرة جروحه.

مللت النوم على السرير. المشي في الغرفة أو في الرواق خارجها مملّ أيضاً. النافذة لا تطلّ على منظر. أبنية الى جانب أبنية. أسأل ماذا يفعل الناس هناك؟ إنه العالم وراء النافذة وهنا أقبع في غرفة بيضاء. أنظر الى العالم وأتأمّل. نادراً ما كنت أتأمل مثلما أتأمل الآن. أفكار تتلوها أفكار. صور تطفو على وجه ماء الذاكرة.

من أين تأتي هذه الصور كلها دفعة واحدة؟ صورة المسيح لا تغادر عينيّ بوجهه النازف، والإكليل الذي ضُفر به رأسه، بجسده المجروح وخاصرته التي طعنها الرمح. تعبر عينيّ صورة يوكيو ميشيما يؤدي شخصية القديس سباستيان بجسده المكلوم والرمح الذي يخترقه. أين شاهدت هذه الصورة التي لم أنسها؟ في أي كتاب؟ لا أذكر. تعبر عينيّ أيضاً صورة الحلاج معلّقاً على الخشبة يلقي على جلاديه نظرات فيها من الألم ما فيها من الحبور، غافراً لهم، صارخاً: أقتلوني...

الليل طويل. يبدأ هنا باكراً لدى انحدار الشمس وحلول أول خيوط العتمة. الصباح طويل أيضاً، يبدأ عند انبثاق أول الضوء. للمرة الأولى يتشابه الليل والصباح، في بطئهما يتشابهان، في السأم الذي يعتمل في أقصى الروح. لا أنام جيداً ولا أصحو جيداً. قليل من الألم يتوزع صدري والساق بجروحهما التي لم تلتئم. أطفئ الضوء. الأصوات في الخارج لا تخبو. أريد أن أنام. حبّة المنوّم وحدها تحملني الى نعاس شفيف بلا أحلام.

ولكن إذا استيقظت صدفة يصبح النوم مستعصياً. ولا حبة أخرى. "ممنوع" كانت تقول الممرضة.

الليل طويل حقاً. هذا ليس ليل القديس يوحنا الصليب ولا ليـل نوفاليـس. إنـه الليـل الخارجي، المغلق، الخالي من النجوم، مـن الأحـلام، مـن الأضـواء المتناثرة. ليل علـى تخوم الليل ذاك الذي يشرق كعادته من حفرة في الداخل.

الصباح طويل أيضاً. هذا ليس بالصباح الذي كنت أنتظره، افتـح عينـيّ علـى زرقتـه محدّقـاً في السـماء البعيدة، وكنت أبصر في أحيان على أطرافه طيف القمر وقد أضحى رقيقاً مثل قربانة. الصباح كئيب هنا. إنه أول الملل الذي سيحلّ طول النهار مصحوباً بأحاسـيس غامضة. النافذة كنت أدعها مغلقة صباحاً ومسـاء. لا حاجة بي أن أنظر الى خيوط الفجر منها. وأيّ فجر هذا المفعم بالحيرة والسأم. كانت الستارة التي تفصلني عن الخارج تمنحني القليل من الراحة، لكنها كانت تجعل الوقت طويلاً رتيباً لا يقطع خيطه إلا الممرضون والممرضات وبعض الزائرين عندما سمح لي برؤيتهم بعد إخراجي من غرفة العناية. هكذا كان الإحساس بالزمن بليداً وكأن الزمن لا وجود له، زمن واحد بلا نهاية. كنت أنتظر حلول أول الظلام لأتناول حبّة المنوّم وأغفو مستسلماً لنوم متقطّع. وكنت حين أسـتيقظ غفلة أحس أن الوقت، لا نهاية له ولا بداية، وقت لا يشبه الوقت، وأسأل نفسي: متى ينقضي؟

كنت أفكّر في الموت. كيف لا أفكر فيه بعدما أطللت على وادي ظلالـه. لكنني لـم أكـن خائفـاً. لـم أشـعر بالخوف لحظة. كان هنـاك ضـوء، فـي مـا وراء العينيـن، في القلب أو الروح. هو

الضـوء نفسـه الـذي لاح لـي عندمـا وقفت أمام المرآة بجروحي. ضوء عذب كان يغشـاني سـراً، يجعلني أهبة للحياة، يملأ عينيّ بزرقـة سـماوية. كانـت صـلاة ترتفـع بصمت مـن القلب وأعمق، كانت ترتفع من تلقائها مثل غيمة. كان الطفل الذي استيقظ فيّ للحين يتمتم كلماته المقدسـة، بحرقة ورجاء، محدّقاً في البعيد الذي يترامى خلف النافذة. الطفل الصغير الذي يرافقني بالسـرّ، كان يظهر دوماً في اللحظات العصيبة، يبتسم لي، يحدثني، يقودني بيـده الـى عالـم أعجـز عـن وصفـه، عالم كأنه من صـور وأخيلة وأطيـاف... عالـم يشـع فيـه فجـر البـراءة الأولى، حجر الشـمس النقيـة. كان الطفـل يصلـي بشـفتيّ، ينظـر بعينـيّ وكنـت بشـفتيه أصلّـي وأنظـر بعينيـه. كان هـذا الطفـل الراقـد فيّ ظـلاً خفياً لي، وكنت ظلاً له، يصلّي وكأنه يصلّي لي وليس لنفسـه. إنها صلاة الطفل ممزوجة بصلاة الأم أسمعها تتهادى من البعيد الذي ليس ببعيد.

كنـت أفكـر فـي المـوت. فكّرت فيه كثيراً ولكن لم أخف. قـوة مـا كانـت تنبـض فـيّ. إنها الحياة نفسـها تندفـع مثل ينبوع خفيّ. أيقنت مرة أخرى انني كائن ديني مهما ابتعدت أو اغتربت عن نفسـي، مهما جدفت وهرطقت. ترسّـخ لديّ هذا الاعتقاد أكثر فأكثر في تلك اللحظات الطويلة. هكذا كنت، هكذا أبقى. إننـي كائـن دينـي بالفطـرة، كائـن فتح عينيه علـى الموت، كائن كان الدين النسمة الأولى التي انسلّت الى رئتيه، كائن لم يكن لـولا المعجـزة التـي حفرت على جسـده جرحهـا الأزليّ. كائن ديني حتى في اللحظات التي كنت أشـك فيها، أشـك وألحد،

وأسأل وأحار ولا أنتظر جواباً. كائن دينيّ بالدم، بالغريزة النقية، باللاوعـي الأعمـق مـن العالـم. هذا ما خبرته برهبة، وحيداً أمام ذاتـي، أمـام مرآتـي الداخليـة. هـذا مـا تعلّمته أيضـاً من أصدقاء يحيطـون بـي، قديسـين ومتصوفـة وأولياء قدموا الى هذه الحياة وكأنّهم لم يقدموا إليها.

لا أدري لماذا تأتيني هذه الأفكار الآن. لماذا أفكر في الحياة وما وراءها، في الموت، في الضوء الذي يعقبه، في الشمس التي تترامى خلفه. أفكار تلو أفكار، تخز هذا الجسد، هذه الروح التي هي الجسد الآن.

كم آلمني أن أبصر نفسي على الكرسي النقال يجرّه الممرض في المماشي الطويلة بين طابق وآخر. فكرة هذا الكرسي كانت تؤلمنـي. أجلـس عليـه بـرداء أبيـض وأنظـر الى أنـاس من حولي لا أعرفهـم. لا أدري مـا كان ينتابنـي فـي تلـك اللحظـات. إننـي مستسلم لمن يقودني الى غرف أخرى، بيضاء أيضاً، بغية إجراء بعض الفحوص. هنا أقف أمام ما يشـبه الكاميرا لالتقاط صورة تشمل الصدر. هناك أتمدد على طاولة مستطيلة هي أشبه بسرير ضيق وورائي شاشة تكشف نبض القلب. وقد زرع صدري بآلات صغيرة تُلصق لصقاً... عندما كنت أنزل عن الكرسي كان يعاودني شعور بالراحة، فأتنفّس.

الآن أتنفـس بحريـة. لقـد أفرغـوا المـاء مـن الرئتين، هذا ما قيل لي. ماء يقتل ولا يروي وكاد يخنقني قبل أيام. أفرغوا أكثر من ثلاثة ليترات. أيّ ماء هذا الذي كاد يجرفني؟ الآن أصبحت جاهزاً للجراحة! هذا ما قيل لي.

في ذلك الصباح لم يأتِ الممرض بكرسي نقال بل بسرير صغير أبيض تمددت عليه واستسلمت فجأة لنوم طويل، نوم لم أعرف أنه انتهى إلا عندما استيقظت أو ظننت أنني استيقظت. قيل لي إنني أمضيت ليلتين في غرفة العناية بعد الجراحة. هاتان الليلتان مرّتا بسرعة وكأن شخصاً آخر أمضاهما، فأنا لا أذكر منهما سوى ملامح ضئيلة ومبهمة. كأنهما ليلتان محذوفتان من روزنامة الحياة، ليلتان كنت فيهما خارج الحياة وداخلها في آن واحد.

إنها المرة الأولى لا أحلم خلال الليل. معظم تلك الليالي في المستشفى، عبرت بلا أحلام. وما خيل إليّ أنني أبصرته لم يكن إلا شظايا أحلام كانت تنبثق عند إغماضة العينين. لا أدري أهي حبات الدواء التي أتناولها تجفف المخيلة وتعطب الذاكرة الخفية، أم هي الحال النفسية التي عرفتها وأنا في الغرفة البيضاء هيمنت على عالم الباطن وأطفأت شموعه؟ استغربت كيف لا أحلم، أنا مدمن الأحلام، في النوم واليقظة، الذي يخال الحياة شريطاً متقطعاً من أحلام لطيفة أو غريبة أو قاسية. وكنت في أحيان يختلط عليّ الأمر فلا أميز بين حلم أنهض منه وواقع أقبل عليه.

إلا أنني لم أستعد أحلامي عندما خرجت من الغرفة البيضاء الى المنزل. كنت أظن أن الأحلام ستعود وحدها عندما أرجع إلى سريري الأليف. لكنها لم. كان عليّ أن أقضي ليالي لا أذكر كم، حتى ترجع أحلامي إليّ أو أرجع إليها. ثم رجعت، على رغم الألم الذي لم يفارقني مصحوباً بوحشة شفيفة.

كنت شبه نائم عندما دخل الكاهن غرفتي برفقة ممرّضة.

كانت الساعة السابعة صباحاً. فوجئت بالكاهن يحمل كأساً، وسألني: أتريد أن تتناول؟ لمعت عيناي للحين. كم أحببت هذه الكأس! كم من مرات أحنيت رأسي أمامها، طفلاً بل فتى، عندما كان الكاهن يرفعها أمام المذبح. لم أكن أتخيّل أنني سأبصر كاهناً يحمل الكأس المقدّس قرب سريري. مضى زمن طويل لم أبصر فيه هذه الكأس. لم يسألني الكاهن الى أي طائفة أنتمي. فهو يسأل المريض إن كان يرغب في المناولة وعلى المريض أن يقول نعم أو لا. عندما ناولني القربان الذي كان قد صلّى عليه، شعرت بطعم النبيذ البهيّ. كان الكاهن أرثوذكسياً، هذا ما عرفته من طعم النبيذ. فالأرثوذكسيون يغمّسون القربان بالنبيذ رمزاً الى جسد المسيح ودمه. أما نحن فكنّا نتناول القربان فقط، كان النبيذ يظل في كأس أخرى والكاهن وحده هو الذي يشربه. عندما ناولني الكاهن هذا القربان بالملعقة الصغيرة استعدت لحظات باهرة في طفولة ذاك الفتى الذي كنته. وعندما غادر الكاهن رحت، بفرح كبير، أسترجع ذكرى هذه الكأس. كان على الكاهن أن يكمل جولته على المرضى ليناولهم، كما تقتضي العادة في مثل هذا المستشفى، مستشفى القديس جورج. بقي طعم القربان والنبيذ في فمي، واكتشفت أن القربان، مغمّساً بالنبيذ، يختلف عن القربان الذي كنا نتناوله. فالنبيذ يمنح القربان طعماً شبه فردوسي. وتذكّرت كيف كنّا نتسلّل الى الغرفة الخلفية للكنيسة التي كنا نسمّيها "السكرستيا"، وهذه لعلها كلمة سريانية، ونفتح الخزانة الملأى بالقربان وقناني النبيذ ونروح نأكل القربان ونشرب القليل من هذا الماء الروحيّ. كان يحق لنا أن نمسّ القربان بأيدينا ما دام

الكاهن لم يصلّ عليه. كان القربان الأبيض طيب الطعم، خفيفاً ورقيقاً. أما النبيذ فكان حلو المذاق على خلاف النبيذ العادي. وكان الكهنة يشربون دوماً النبيذ الحلو في القداس ربّما لأنّه أخفّ وطأة عليهم في الصباح، فلا يثملون ولا يصيبهم دوار. فالكاهن كان يجب عليه أن يحتفل بالقداس صائماً وقبل أن يتناول فطوره. وكان على الراغبين في المناولة أن يكونوا صائمين أيضاً، فالقربانة يجب أن تكون أول ما يدخل فم المتناولين، ثمّ يأكلون من بعد. كانت القربانة جميلة، قطعة من الخبز الحلو، رقيقة ومستديرة كأنها قمر صغير. لم أنسَ يوماً طعمها على رغم الأعوام الطويلة التي مرّت على طفولتي. ولم تفارقني البتة، برمزها أو مجازها، ولطالما شبهت بها القمر الذي فاته الرحيل في الصباح، فارتفع ملء السماء برقته الشفيفة.

كانت المناولة الأولى حدثاً في طفولتنا. الراهبات والمعلّمات كنّ يهيّئننا لها قبل أشهر. وكان علينا أن نفهم معنى هذه المناولة، وأن نحفظ غيباً فعل الندامة الذي كنّا نتلوه أمام الكاهن، بعد الاعتراف بخطايانا، وعبره نتوجه الى الله مستغفرين إياه، نادمين على ما اقترفنا من "آثام". لم أعد أذكر سوى مطلع هذا "الفعل": "إنني نادم من كلّ قلبي...". لم تكن المناولة مسموحاً بها قبل الاعتراف. فالخاطئ لا يحقّ له أن يتناول. ومن يقترب من المذبح يجب أن يكون نقياً مثل ملاك.

وأذكر كيف كانت مدرستنا تحتفل بهذه المناولة الأولى كلّ سنة. كنّا في هذا اليوم الجميل نرتدي حلّة بيضاء وعلى صدرنا صليب من خشب، وحول حقوينا زنار تتدلى منه زهرة من خيوط

بيـض. وكنـا نصطـفّ، فتيانـاً وفتيات، ثم ننطلق مشـياً وبهدوء الى الكنيسة التي تبتعد قليلاً عن المدرسة. الكاهن يتقدّمنا مع خدّامه، ثم فتيان "الأخوية" وفتياتها، أما الأهل والأقارب فيمشون وراءنا. وكان الناس يخرجون من بيوتهم أو يقفون على الشرفات لينظروا إلينـا مبتسـمين. وعندمـا نصـل الـى الكنيسـة نجلـس في الصفوف الأماميـة وكلّ يعـرف مكانـه. كان القـداس احتفاليـاً، ينتظـره أهـل البلدة سـنة تلو أخرى ليحتفوا بهؤلاء الصغار الذين تناولوا جسـد المسـيح للمرّة الأولى. وعندما كان ينتهي القدّاس كنّا نتوجّه الى مائدة أُقيمت في باحة الكنيسة فنجلس إليها ونتناول فطوراً لم نألفه يوماً في بيوتنا، بما يضم من مأكولات لذيذة وحلويات. ولا أدري حتى اليوم لماذا كانت الكنيسة تولي المناولة الأولى هذا الاهتمام، مع أنّ العمادة كانت هي اللحظة التي تكرّس الطفل مسيحياً قبل أن يعي هذا العالم، وقبل أن يدرك وجوده فيه. وغالباً ما كان طقس العمادة مقصوراً على الأهل فقط وخلواً من الطابع الاحتفالي.

كنت كلّما قرأت قصائد رامبو وريلكه عن المناولة الأولى أو المتناولين، أتذكّر تلك اللحظات الجميلة من الماضي الفردوسـيّ الذي لم يبق له زاوية ولو صغيرة في عالمنا، هذا العالم الذي يزداد قبحاً وصلافة. لكنني، كما أذكر، لم أتمكّن من تحمّل مشهد في فيلم للمخرج لوي بونويل، إن لم أخطئ، يتحدّث فيه عن القربان وكيف يأكله المتناول وكيف... وما زلت آنف عن ذكر بقية الجملة، فالقربانة ظلّت في حسباني مأكلاً روحياً، من ضوء وعطر.

كانـت الأيـام طويلـة في المستشـفى كما فـي المنزل لاحقاً، أو في غرفتي. في الخارج هو الشـتاء، بأمطاره وسـمائه الكالحة

وغيومه التي تعبر وراء النافذة. كانت النافذة ملجأي الوحيد حين يحل بي الملل، أهرب إليها لأنظر الى العالم كما للمرة الأولى. المنظر يوحي بالصمت. الصخب في الخارج هو صخب الخارج، صخب العالم الذي انفصلت عنه طوال تلك الفترة. في الأيام الأولى لم أتمكن من القراءة ولا من الاستماع الى صوت فيروز والى مقطوعات موسيقية أحبها. كان صوت فيروز يوقظ فيّ كثيراً من الشجو، أما الموسيقى فتحزنني. ولكن لم ألبث أن استعدت عاداتي الجميلة، رويداً رويداً. رحت أستمع الى أغاني فيروز ومقطوعاتي الأثيرة علّني أنسى، علّني أجد قدْراً من عزاء. رحت أقرأ وأقرأ مع أن الجلوس لم يكن مريحاً. هناك جرح في الأسفل لا يدعك قادراً على الجلوس إلا فترة قصيرة، ساعة، بل نصف ساعة. كنت أمشي ببطء حتى يأخذ بي ألم الساق المجروحة، فأجلس لأقوم من ثم، فأمشي أو أقف. هذه كانت طريقتي في قتل هذا الضجر الذي لا يوصف. إنها المرّة الأولى أدرك معنى الوقوف، معنى ألا تكون قادراً على المشي ولا على الجلوس. حاولت أن أكتب، لم أستطع. الورقة البيضاء كانت تشعرني بالبرد، وكنت عاجزاً عن حمل القلم. إنني وحدي أمام نفسي، أمام مرآة نفسي، أستعيد صوراً من ماضيّ متأملاً الشخص الذي كنته، الشخص الذي هو أنا الآن. كانت الورقة التي عجزت عن أن أمرّ بقلمي عليها أشبه بالمرآة التي تعكس البرود الذي يكتنف الروح واليدين والأصابع.

لكن الأفكار، الأفكار وحدها، لا أدري من أين كانت تأتيني الأفكار. نسيت الروزنامة التي على الجدار، بل لم أكن أبالي بها.

الزمن واحد، نهاراً وليلاً، والنوم شبيه اليقظة التي لم تكن تعني إلا الاستسلام لحال من الانتظار.

كان على الاستحمام أن يكون سريعاً. يجب ألا أمكث طويلاً، عارياً تحت الماء، مثلما كان يفعل الرهبان قديماً لئلا ينفردوا بعريهم. لم يكن لي أن أنعم بالماء ينهمر عليّ، على هذه البقايا منّي. والسبب أن الجروح لم تلتئم والماء يؤخر التئامها. وكان في القدم جرح مفتوح مصاب بالتهاب. لم يندمل هذا الجرح ونزف كثيراً، دماً وماء أصفر، وكنت أحنو عليه وحدي، غسلاً وتطهيراً، ثم أغطيه بالقطن فلا يظهر له أثر. كنت دوماً أنظر الى جسمي ببياضه الطفولي. الساقان ما زالتا بلا شعر وكذلك الحوض أو العانة. وكان يؤلمني هذا المشهد قليلاً ويضحكني قليلاً. لكن شعيرات ما لبثت أن راحت تنبت، وكنت أشعر أنني أكبر معها، أنني أستعيد الزمن الذي غاب فجأة منذ أن حلقوا شعر الجسم. في تلك اللحظات كان يستحيل الجسم ذاكرة تخفي في ثناياها ماضياً مفعماً بالألم والحيرة. أليس الجسم هو التاريخ الشخصيّ للكائن؟ أليس هو ذاكرته التي لا تخمد؟

أكتب الآن وكأنني أكتب عن شخص آخر. حتى الآن ما برحت تلك الصدمة تفعل بي. لم أصدّق أنني خضعت للجراحة بهذه السرعة وأنني نمت على السرير الأبيض في الغرفة البيضاء وأنني أمضيت تلك الأيام بجروح في الصدر والساق والقدم، وأخرى في الداخل، هذا الداخل الذي يسمّى الروح أو اللاوعي أو الباطن... ابنتي الصغيرة تنظر الى جروح الساق بعينين حائرتين ولا تسألني عنها، لكنني أخبرتها أنني وقعت وجُرحت ساقي.

كانت تعلم أنني كنت في المستشفى لكنها لم تدرِ معنى أن ينام والدها في المستشفى طوال ليالٍ وألاّ ينام في البيت. وأعتقد أنها تألّمت بالسرّ. الأطفال لا يحتاجون الى مَن يشرح لهم. إنهم يفهمون على طريقتهم وغالباً ما يصيبون دون أن يعلموا. كان وجه ابنتي يحيط بي، أنظر الى عينيها وأبصر شمساً تشرق وسعهما. كنت فيهما أقرأ وردة الأمل، هذه التي تفتحت في تلك اللحظات الأليمة ناشرة ضوءها. لم أنس لحظة أنني اب وأن فتاة صغيرة تنتظرني وأن الأبوة هي أجمل ما يكتشف المرء في هذه الحياة، حياته. كان ذلك الوجه المشرق ببراءته الصافية، يدعوني بقوّة الى النهوض، الى اكتشاف سرّ الحياة، سرّها الخفي الذي يعرفه الأطفال سهواً.

على الطاولة تركت لي ابنتي أوراقاً رسمت عليها قلوباً بالأحمر. إنها رسائلها إليّ، تقول فيها بلا كلمات كلّ ما كانت تريد قوله، ولم تقله.

أكتب الآن وكأنني أكتب عن جسم واجه نفسه بنفسه، عن جسم ليس جسمي، عن جسم متشبّث بصورته الأخرى، صورته الغائبة.

أكتب الآن، أبصر الجروح التي أصبحت ندوباً تسم الصدر والساق. إنها الأثر الذي يحمله الكائن طوال حياته، الأثر الذي لا يُمحى، الأثر الذي يخفي وراءه حمرة لا ينتبه إليها أحد.

أكتب الآن! لقد عدت حقاً الى الحياة. لقد نهضت من الحفرة التي أغمي عليّ فيها، التي رقدت فيها، بالروح كما بالجسد.

أبصـرتُ البـاب يُفتـح بهـدوء ثم دخلت فتـاة ترتدي مريولاً أبيـض. لـم تكـن ممرّضـة مـع أنها ترتدي ثـوب ممرضة، نظرت الى وجهها الذي لم يكن غريباً عليّ. أعرف هذا الوجه ولكن لا أعرف مَن هي. عندما ابتسمتْ استعدتُ ملامح وجهها وأخذني قليـل مـن الاضطـراب. كيـف دخلت هذه الفتـاة بلباس ممرضة، كيـف سُـمح لهـا أن ترتـدي هـذا المريـول الأبيض وهي في نحو الثانية عشرة من عمرها؟ كانت تبتسم لي ببراءة تامّة، في عينيها بريـق تذكّرتـه للحيـن. إنهـا... أجل إنّها فتاة ماضيَّ، الفتاة الأولى التي أحببتها. وجهها لا يزال هو هو، تذكرته جيداً، أتذكره جيداً الآن. لا أدري كم من أعوام مرّت على لقائنا الأخير. لم أرد أن أتذكّر. نظرت الى نفسـي ممدداً على السـرير الأبيض ثم نظرت إليها. لم تقترب منّي، ظلّت قرب الباب تنظر إليّ وتبتسم، شفتاها نديتان كما كانتا في تلك الأيام، وجنتاها على حمرتهما الخفرة، شعرها الأسود ما زال مرسلاً على كتفيها. نظرت الى نفسي مرّة أخـرى حائـراً تمامـاً. مـاذا جـاءت تفعل هذه الفتـاة، من أدخلها، لمـاذا ترتـدي مريـولاً أبيـض مثل أي ممرضة؟ أذكر أنني حاولت أن أكلمهـا، ولـم أسـتطع. راح قلبـي يخفـق كعادتـه عندمـا كنت أراها حينذاك. أما هي فلم تلفظ كلمة ولو عابرة. ظلّت تبتسـم، وجهها يشعّ بلطافته، نظراتها عذبة، يداها لا تزالان على رقتهما.

قلبـي يخفـق حبـاً وربمـا رهبـة، لا أعلم. كلّ ما أعرفه أنني رحت أنقّل ناظريّ بين وجهها والسـرير الذي أرقد عليه، بين جسـدي وعينيهـا. خجلـتُ، غطيـت نفسـي جيـداً، خبأت الجرح الذي في الصدر وجروح السـاق اليسـرى. لم أشـأ أن تبصر تلك الجروح. وسـألت نفسـي وأنـا أنظـر إليهـا: كيف أمكنهـا أن تصبح ممرّضة فـي هـذا العمـر؟ أقـول هذا لئلا أقول في الثالثة عشـرة! كيف لم تتغيـر! كيـف لـم تكبـر، كيف عيناها لا تزالان عينيها اللتين كانتا. تذكرت أيضاً نهديها اللذين لم أرهما إلا من وراء القميص، اللذين حدثتهـا عنهمـا غيبـاً، اللذيـن كتبت عنهمـا قصيدة أو لأقل جملاً تتغنّى بهما. نهداها الصغيران اللذان حفظتهما لي، كي أبصرهما وحدي، وأداعبهما وحدي ولم. لم يكن لنا ما اشتهينا وما حلمنا بـه فـي مقتبـل مراهقتنـا. كنـت أراها كلّ يوم ذاهبة الى المدرسـة بمريول كحليّ، كنت أنتظرها بلهفة وكانت بلهفة تمرّ كي تراني قبل أن تدخل البوابة السوداء، حاملة حقيبتها المدرسية.

ظلّت واقفة أمام الباب تنظر إلي دون مللٍ، وكنت أنظر اليها بخجل. لم أقل لها اقتربي. لم أجرؤ ربّما...

عندما دقّ الباب استيقظتُ، دخلت الممرضة حاملة علبة بين يديها، قالت: صباح الخير، مبتسمة. سألتني إن كنت نمت جيداً، لـم أجـب. ابتسـمت لهـا. قالـت: يجـب أن أقيـس "الضغط" وأن أفحـص الـدم قبـل وجبـة الإفطار. غرزت إبرتها في إصبعي بخفة لم أشعر إزاءها بألم وابتسمت. ثمّ طوقت ساعدي الأيسر بالرقعة السـوداء وراحـت تنفـخ بآلتهـا. عندمـا قـرأت الأرقام في السـاعة الصغيرة ابتسمت أيضاً. حالتك جيدة قالت، قبل أن تغادر.

كنت لا أزال في حالٍ من الذهول. نهضت من السرير بهدوء، نظـرت الـى البـاب، لـم أجـد أثـراً لفتاة الفجر. هل كنت أحلم أم أهذي في حال من السرنمة التي كثيراً ما كانت تحلّ بي. حال من النوم واليقظة، من اللانوم واللايقظة كنت خلالها أستسلم لنعاس رقيق. حاولت أن أشمّ عطرها الذي تذكّرته للحين، لم يكن من عطر في الغرفة. فقط روائح الأدوية المعقمة. لا أدري لما تذكرت العطـر الـذي كان يفـوح منهـا، من عنقهـا ويديها. لم يكن عطراً، كان مـاء كولونيـا كمـا كنـا نسـمّيه، ولا تـزال رائحته تملأ ذاكرتي حتى الآن، ذاكرة الشمّ لديّ، ذاكرة الحواس كلها. لم أعد أذكر اسـم ذاك المـاء العطـر الـذي كان رائجـاً آنـذاك، ولكن أذكر أنني كنت عندما أشـمّ رائحته أعرف أنها هي ولو لم تكن هي دوماً، فرفيقاتها كن يمسـحن به أجسـادهن أيضاً. ولكن لا أعلم لماذا ارتبطت رائحته بها، بها وحدها. إنها الفتاة التي أحببتها في الرابعة عشرة من عمري، لم أعد أذكر، كانت هي أصغر مني بسنتين أو أكثـر. أعـوام تبـدو الآن بعيـدة جـداً، كأنها خـارج الزمن الذي ما عاد يملكه أحد. ولكن ما الذي أتى بها في ذاك الفجر، ما الذي جعلها تدخل غرفتي من غير أن تنبس بحرف. كانت تبتسم فقط وكنت حائراً أمام ابتسامتها. فتاة لم تتكلم مثلما لم أتكلم أنا أيضاً، شعرت أنني عاجز عن مناداتها. لم يكن لها اسم في ذاك الفجر، أقصد في ذاك الصباح الذي أشرق على أطراف الليل. وما أذكره أيضاً أن السـماء خلف النافذة كانت بيضاء عندما دخلت بخفة، سـماء تحتلها نجوم زرق مثل تلك التي كنا نعدّها على أصابعنا في ليالي الصيف. تذكرت أيضاً أن هذه الفتاة التي لم أرها منذ

تلـك الأعـوام الطـوال أصبحت ممرضــة. هكذا قالت لي صديقة لها، التقيت بها صدفة قبل بضعة أعوام. وكم كنت أمنّي القلب أن أراها يوماً بثوبها الأبيض، أن تكون الى قربي إذا ما أصابني مرض أو أُدخلت مستشـفى. وكنت أحلم أن ألقاها ذات يوم مصادفة، هكـذا، دون موعـد. ولـم ألتـق بها مرّة. لقد أبصرتها أجل، أقصد حلمـت بهـا، أقصـد زارتنـي في الحلم. إنها المرّة الأولى أبصرها في المنام. كنت فقط أتخيّلها في بعض الليالي، عندما أقبل على النـوم، فأغفـو أو لا أغفـو. لكنهـا المـرّة الأولـى تطرق باب النوم وتدخل. لم يفاجئها أنني كبرت لكنني فوجئت بها لا تزال مثلما كانت عندما كنّا، في أول حبنا، العاصف حبنا، البريء والنقي. أين تراها اختبأت طوال تلك الأعوام لئلا تكبر كما كبرت أنا، حبها الأول. إنها هي نفسها، أجل، هي التي أحبتني حتى الموت، التي أحببتها حتى الموت، وكان وعدنا ألا نفترق مهما حصل. صغيرين كنّا ولكن على حبّ لا يعرفه إلا الكبار. لم يكن لهواً، كان حباً، حباً نادراً ما عرفته من بعد، عندما رحت أتقدّم في العمر. حبّ هـو الأقـوى، حـبّ هـو الأنصع، والأعـذب. حبّ لا أدري كيف كان عنيفاً ورقيقاً في آن، حبّ كان ولهاً، عشـقاً مضطرماً بالألم والشجو... أذكر كيف كنا في ليالي الصيف ننظر الى القمر، لتلتقي نظراتنـا علـى صفحتـه، عندمـا كانت تفصلنـا أيام العطلة الطويلة. كنت أقف على الشرفة وأرنو الى البعيد، وكانت هي أيضاً تطل من شبّاك بيتها القروي لتحدّق مثلي. هكذا تواعدنا وهكذا فعلنا حقاً. كان الصيف موعد فراقنا، وكان خلاله يهبّ الحنين، حنيني الى وجهها وحنينها إليّ. كنت أحبّ وجهها لأنني لم يقدّر لي إلا

أن ألامس وجهها. نهداها ما زلت أحلم بهما، نهداها اللذان لم أرهما، أتخيلهما كلّما فكرت بها، كلّما استعدت وجهها خفية. لم أعرف منها سوى وجهها ويديها اللتين ضممتهما بين يديّ عندما كانت تسنح لنا اللقاءات الجميلة. لم تكن تمرّ لحظة لا أفكر بها، إذا فتحت عينيّ صباحاً، إذا أغمضتهما في المساء، إذا فتحت كتاباً أو سمعت أغنية فيروزية... أذكر أنها أول مَن علّمني كيف أستمع الى فيروز، كيف أصغي الى خفق قلبينا في صوت فيروز. وما أجمل ما كانت تلك الأماسي الربيعية نقضيها على السطح، تحت العريشة، نستمع الى مطربتنا تغنّي الليل والحبّ والفراق... لم نكن وحدنا تحت العريشة المورقة صيفاً، لكنّ نظراتنا كانت تصنع لنا زاوية نتعانق فيها خلسة، كانت تصنع لنا غرفة وكنبة... وما أجمل ما كان لقاؤنا في الكنيسة، في باحتها أو داخلها. كنت أنظر إليها وتنظر إليّ، نصلّي ونحلم فيما رائحة البخور تهبّ في الأرجاء. كانت الكنيسة أيضاً فسحة لنا، ننتظر القداديس لنلتقي بلا خشية، لنلتقي ببراءة يهفّ منها عطر فردوس طالما سمعنا عنه. كانت تقطن بالقرب من بيتنا وكنت كلّ يوم أراها وكنا نتبادل الرسائل كما لو أننا على فراق. كنا نكتب على ورق مزيّن وكان يحلو لها أن ترسم حول الكلمات أزهاراً وقلوباً.

لا أدري ما الذي جعلها تدخل ليلي. فتحت الباب ودخلت، لم توقظني، وحدي فتحت عينيّ! كنت أظن أنني لن أبصرها، كنت أعلّل نفسي أن أراها ذات يوم، لأنظر الى وجهها بعد تلك الأعوام، لأعتذر لها عن تلك اللحظة التي افترقنا فيها، لأقول لها إنني أحببتها كما لم أحب من بعد، لأقبّل يديها بعد تلك السنين!

كانت لحظة فراقنا أشدّ اللحظات ألماً، كيف يفترق فتى وفتاة ليس بينهما سوى الحبّ! إنها الحرب، أذكر، الحرب في عامها الأول 1975. غادرت الحيّ قبلي ثمّ غادرت بدوري. كانت قريتها بعيدة مثلما كانت القرية التي لجأنا إليها بعيدة. إنها الحرب لا أكثر ولا أقلّ. الحرب التي اشتعلت من حولنا، التي هجّرتنا، التي أشعلت حديقة ماضينا، فردوسنا الذي لم أكتشفه إلا بعد أعوام. الحرب التي كنا من أوائل ضحاياها. الحرب التي رسمت خطاً بالأحمر بين فتى وفتاة، يشبه خط التماس الذي رُسم بالأحمر والأسود بين الأرض وظلّها.

أتذكّرها، لكنّ صورتها غائمة في الذاكرة. لماذا أتذكّرها، هي التي لم أرها يوماً في ثوب ممرّضة؟

لا أدري لماذا أسترجع طفولتي الآن، أو لماذا تسترجعني هي نفسها، تلك الطفولة التي تبدو لي على عتبة الخمسين كأنها طفولة شخصٍ آخر. أرى ماضيّ أمامي وكأنني أحلمه. كأنني أحلم ذلك الطفل الذي كنته. الذكريات، أجل، الذكريات تختلط عليّ، الذكريات التي تحيا بنفسها، التي لا تحتاج الى مَن يتذكّرها. أنظر من النافذة ويُهيّأ إليّ أنني أحلم دون أن أحلم. أبصر ذلك الطفل الذي كنته، الذي أصبحت في عمر أبيه. أبصره يبتعد وكأنه ليس أنا الذي كنته في ماضٍ لم يبق منه إلا بقايا صور لا يربطها خيط. وجوه مبعثرة في ذاكرة كأنها استيقظت للحين. ذاكرة تذكر كلّ شيء ولا تذكر شيئاً.

لا أدري كيف طرق ذاك الطفل نافذتي، أبصرته واقفاً على الحافة، لا يدخل ولا يحلّق في السماء التي تترامى بيننا. كنت كأنني نائم على سرير من غيم، الزرقة تحيط بي. عندما نظرت إليه رأيت جرحاً يخط صدره، لكنّه لم يكن ينزف. جرح كأنّما نُسي مفتوحاً لأعوام.

استيقظت من تلك اللحظات التي كنت فيها أشبه بالمسرنم، نائماً ومستيقظاً في آن واحد، نائماً بعين مفتوحة أو مستيقظاً بعينين مغمضتين. تحسست صدري بيديّ، كان الجرح لا يزال في محلّه، ولا ألم ولا قطن... تذكّرت. كان الطبيب أراني

الصورة الضوئية لصدري وأشار الى نقطة سوداء تحت القلب أثارت حيرته. لكنه لم يُبدِ أي تخوّف إزاءها لأن لا علاقة لها بالقلب كما يظنّ، ولأنها بدت طبيعية. لكنني سرعان ما قلت له إنها رصاصة. فقال وكأنه لم يصدّق: رصاصة؟ أجبته: نعم، وقد أصبت بها في الرابعة أو الخامسة من عمري. حمل الصورة ووضعها لصق اللوحة الفضيّة المضاءة وراح يتأملها، ثم قال لي: أنظر كيف اخترقت هذه الرصاصة صدرك، أنظر الى هذا الخيط الضئيل الذي يرسم حركة اختراقها الجانب الأيسر في الظهر ونزولها الى الصدر وعبورها جهة القلب لتستقر تحته بين الأضلاع. لم يكن يصدّق ما يرى. قال إن الرصاصة حاذت القلب وكان بينهما شعرة، شعرة ضئيلة، ولم تمسّه. نظرت إليه بصمت وقلت في نفسي وكأنني أحدّثه: ما زلت أذكر كيف كان يقال لي دوماً إنني نجوت بأعجوبة، وإنّ الله منحني الحياة مرّة أخرى، وإن النبي الياس كان شفيعي لأن الليلة التي أصبت فيها كانت ليلة عيده.

كان يقال لي دوماً، منذ أن فتحت عينيّ على الحياة، إنني شخص "منذور" وإن الحياة التي أعيشها مِنحت لي مرّة ثانية بعدما قاربت الموت ونجوت بأعجوبة. في طفولتي لم أكن أعي معنى أن يمنحني الله الحياة مرّة أخرى، لكنّ تلك الحكاية التي لم أفهمها حينذاك، حُفِرت في القلب ولم تفارقني طوال تلك الأعوام. كنت أشعر دوماً بتلك الأبوّة التي قامت بيني وبين الله، الكائن الغائب، الذي لا وجه له، والحاضر بشدّة، الذي يرانا ولو لم تكن له عينان، كما كانوا يخبروننا عنه. حضر الله في حياة

الفتى الذي كنته كما لم يحضر أحد سـواه. لم أكن أدرك معنى هذا الحضور، لكنني كنت أعيشه، كل يوم تقريباً. لـم أكن أستوعب معنـى الإيمـان لكننـي كنـت أواظب على الصـلاة، صباحاً وليلاً. وأذكـر أننـي شـاركت فـي قداديـس لا يمكننـي أن أحصيها، حتى أننـي كنـت أنهـض فـي أحيان كثيرة في السادسـة صباحاً وأذهب الى الكنيسة لأخدم القداس، كما يقول المسيحيون، أي لأساعد الكاهـن فـي القـداس، فأحمـل لـه المبخـرة أو قصعـة البخور أو الصحـن الفضـيّ فـي المناولـة، مناولة القربـان المقدّس. وعندما ينتهـي القـداس كنـت أذهب الى المدرسـة وكلّي شـعور بالفرح، فرح داخليّ ما زلت أذكر وقعه في القلب. أذكر جيداً تلك الحالة التي كانت تعتريني في تلك اللحظات، حالة غير واضحة تماماً، مزيج من شعور بالطمأنينة والهناءة والحبور. ولست أبالغ إن قلت إنني كان يخالجني ضوء لم أكن أعرفه خارج تلك الدقائق التي كنت أقف فيها أمام المذبح، وسط عبق البخور الذي كنت أخاله يتصاعد من صور القديسين المعلّقة على الجدران. كان المذبح أثيراً لديّ وكنت أنحني أمامه متأملاً بيت القربان والأعمدة الرخام والأيقونات فوقه. وحملني ولعي به طفلاً، الى بناء مذبح صغير في بيتنا خبّأته داخل خزانة صغيرة ملأتها بالصور وكانت أبرزها صورة المسـيح مضفوراً بإكليل الشـوك. لا أدري لماذا ارتبطت صورة المسيح لديّ بذلك الإكليل وبقطرات الدم التي تسقط من جبينه. طغت هذه الصورة على الصور الأخرى للمسيح التي كانت تملأ حياتنا. كان وجه المسـيح الجريح هو الوجه الذي يسـكن عيوننا، نصلّي له مثلما نصلّي لجروح يديه وجروح قدميه وجرح

الخاصـرة الـذي أحدثتـه طعنـة الرمـح عندمـا كان على الصليب. وكان أكثر ما يبهرني وجه المسيح على المنديل الذي كنا نسمّيه منديل المسـيح وكانت إحدى القديسـات مسـحت به وجهه على درب الجلجلة التي مشاها والصليب على كتفه. هذا ما كان يقال لنـا، ومـا كان علينـا إلا نتأمـل صـورة المنديل بخشـية وألم. وكم كنت في "زياح" الآلام، يوم الجمعة العظيمة، أتأمل هذا المنديل الذي كانت تحمله فتاة من الحيّ تؤدّي شخصية إحدى المريمات اللواتي رافقن المسيح على درب الجلجلة. كان هذا اليوم بمثابة الحدث في حياتنا، يوم الآلام، كنا نسـمّيه، يوم موت المسـيح. وكنا نسير في موكب يتقدّمه شاب يؤدي شخصية المسيح، جارّاً الصليب على كتفه، وخلفه جنود بأسلحتهم البيض...

لا يغيـب هـذا المشـهد عـن عينـيّ، ولا لحظـات الألم التي كانت تعتصر القلب، مع أننا كنا على يقين أنّ المسـيح سـيقوم في اليوم التالي الذي نسمّيه سبت النور، وستقرع الأجراس فرحاً بالقيامة.

لا أدري لماذا تعاودني هذه الذكريات. ذكريات أضحت كأنها أحلام أبصر نفسي فيها فتى يبحث عن سرّ بقائه حياً، بعدما سمع طوال أعوام حكاية الأعجوبة التي حصلت في طفولته ولم ينسها يوماً، الأعجوبة التي يتذكرها كلّما مرّت أصابعه على أثر الجرح القديم تحت كتفه اليسرى. كان الفتى يؤمن أن حياته كلّها وقف على تلك الأعجوبة التي حفرت في قلبه أحرفاً من ضوء.

أتذكـر، أتذكـر كيـف راحـت أمـي تجوب بي الحـيّ، حافية القدميـن وفـاءً للنـذر الـذي قطعتـه للنبي إيليا، مـار الياس الحيّ،

الذي أنقذتني شفاعته. كنّا نطرق الأبواب لجمع ما تيسر من مال، وكان الجيران لا يتردّدون عن إيفاء نذرنا دون أن نسألهم. وكانت أمي تخبّئ النقود في منديل لتضعها في ختام جولتنا في صندوق الكنيسة. وأذكر كيف كنت أخجل عندما كنت أرى رفاقي الصغار ينظرون إليّ والى أمي بقدميها الحافيتين، تمشي على الزفت من دون ألم، وكان الحصى الصغير يخز قدميها ولم تكن تبالي. إننا نفي النذر للنبي القديس.

هكذا فتحتُ عينيّ على العالم، هكذا وعيت العالم: أعيش حياة ثانية وهبني الله إياها وفي القلب أيقونة النبي إيليا، الشفيع الذي مدّ إليّ يده مثلما أنقذ، كما يخبر الكتاب المقدّس، ابن الأرملة. لكنّ أمي لم تكن أرملة حينذاك، كان عليها أن تنتظر نحو ستة أعوام لتصبح أرملة بعدما أغمض والدي عينيه الى الأبد.

أذكر كيف كان الدين كلّ شيء في حياة هذا الفتى طوال أعوام. وخلال تلك الأعوام أدرك الفتى، بالروح والجسد، ماذا يعني أن يكون أعطية من الله. كان الدين هو الحياة نفسها، كلّ الحياة، وكنت أشعر أنني منذور الى الأبد. ومن شدّة إدماني القداديس ومواظبتي على الخدمة الكنسية راح أهل الحيّ يسمّونني "الشماس" الصغير، خادم الكاهن. ولم تمضِ بضعة أعوام حتى بدأت تلوح في رأسي فكرة "الرهبنة" أي أن أسلك طريق الدير. ظلّت تلحّ عليّ هذه الفكرة أو "الدعوة" كما كانت تُسمّى، خلال المراهقة، وكنت أتخيل نفسي في ثوب كاهن، أخدم القداس أمام المذبح أو أجلس في كرسيّ الاعتراف وراء ستارة سوداء أستمع الى خطايا المؤمنين والمؤمنات

يروونها لي من غير أن أرى وجوههم وأعرف مَن هم. كان سرّ الاعتراف هذا أمراً رهيباً: أن تركع داخل ظلمة الكرسي الذي يشبه الخزانة وتعترف للكاهن بما اقترفت من خطايا وآثام وأعمال شنيعة.

لم تكن تفارقني في أعوام المراهقة الأولى صورة ذلك الكرسيّ، مثلما لم تكن تفارقني فكرة الخطيئة وكيف أنني سأُعاقب إذا خالفت الوصايا، إذا كذبت أو اشتهيت فتاة ولو بالنظر، أو ارتكبت سرقة "بيضاء"... ولكن لم تمضِ أعوام حتى صرت أعترف لله مباشرة بخطاياي، سائلاً إياه الغفران. لا أدري كيف ارتأيت هذا الحلّ في أول المراهقة، بينما كان رفاقي يصطفّون أمام الكرسيّ ليعترفوا وينفّذوا العقاب بالصلاة ركوعاً. ما زلت أذكر هذا الكرسيّ الرهيب، وكيف كنا نسأل: إذا أخطأ الكاهن فهل يعترف الى كاهن آخر؟ وما زلت أذكر أيضاً كيف أنني قرّرت ذات يوم أن أُحجم عن دخول هذا الكرسي وعن الركوع أمام الكاهن. كان ذلك اليوم حاسماً في حياة ذاك الفتى الذي كنته، الذي صرته، هذا الفتى الذي ما زال فيّ، أراه في أحيان يلهو ببراءته، يرتكب الخطايا الصغيرة، وسرعان ما يتوب أو يؤجل توبته. أراه أمامي، دوماً أمامي، يسبقني ويقودني أينما يشاء، يفتح بين يديّ دفاتر الذاكرة ويطرق في أحيان نافذتي، موقظاً إياي من حلم لم أودّ أن ينتهي.

لطالما روت أمّي حكاية الاعجوبة للزائرين الذين كانوا يقصدوننا. روتها للأقارب، للجيران، وكنت كلّما استمعت إليها ازداد يقيناً أنني طفل منذور، وأنّ عليّ أن أبقى طفلاً منذوراً

طوال حياتي. ظلّت أمي تروي الحكاية، سنة تلو سنة، وكنت أحب أن أستمع إليها مرّة بعد مرّة، وكنت كأنما أكتشف نفسي لأنني لا أذكر الحادثة إلا لماماً. بضع لمحات ما زالت تبرق في رأسي: ضوء الشموع، الخيمة، العريشة، السطح، الصراخ الذي ما برح يترجّع في أذنيّ ولو واهياً... تحكي أمّي أن الليلة التي أصبت فيها برصاصة كانت ليلة عيد النبي إيليا، لكنها صادفت ذكرى تبوّؤ أحد الزعماء كرسيّ الرئاسة، وراح المواطنون، على عادتهم، يطلقون الرصاص ابتهاجاً، متناسين الحرب الأهلية أو حرب العام 1958 التي كان مضى عليها نحو ثلاثة أعوام، لا أذكر. كان أبي قد صنع خيمة على السطح تحت العريشة لننام فيها هرباً من حرّ الصيف. فالبيت كان منفرداً تحيط به حديقة صغيرة، وكان السهر على السطح، في ضوء القمر، بهيجاً، تزيد من حلاوته رائحة زهر الليل. أشارت أمي لأبي، عندما سمعت الطلقات النارية في السماء بأن ننام جميعاً في المنزل خوفاً من الرصاص، لكنّ أبي لم يذعن لها، وضحك مطمئناً إياها. كانت الليلة، كما تقول أمي، ساحرة، أوقدنا الشموع وأطلقنا الأسهم النارية واحتفلنا ببراءتنا. وعندما حلّ بنا النعاس لجأنا الى الفراش تحت الخيمة. نمت بين شقيقاتي الأربع، ولم يكن شقيقي ولد لنصبح ستة. ولم نكد نغفو حتى سقطت رصاصة على الخيمة وأصابت عمودها الحديد. سمع الأهل صوت ارتطام الرصاصة بالحديد وظنوا أنها عبرت. بعد نحو ساعة، كما تروي أمي، حان وقت نومهم، وكان عليها أن تنام بالقرب منا، وعندما قلبتني رأت بقعة دم على الفراش فصرخت

مذعورة... وراحت شقيقاتي يصرخن عندما استيقظن للفور. والدي، تقول أمي، أصيب بإعياء شديد ولم يستطع أن يمشي جرّاء الخوف الذي اعتراه، فأنا كنت الصبي الوحيد حتى ذاك الوقت والأمل معقود عليّ مثلما درجت العادة قديماً، وليس على الفتيات... هبّ الجيران لنجدتنا ونقلوني الى طبيب قريب لنا، بيته ليس ببعيد عن بيتنا. تقول أمي إنني عندما أيقظتني لم أكن أتألم بل قمت من الفراش وكأن لم يحدث أمر، ومشيت وحدي، لكنّ وجهي كان على قدْر من شحوب. كان أسفل كتفي الأيسر مخضباً بالدم والمنامة مثقوبة. عندما فحصني الطبيب وجدني على عافيتي، وظنّ أن الرصاصة لامست كتفي وعبرت. ضمّد الجرح وقال لأمي: تسهرين عليه طول الليل، إذا احترّ أو تقيّأ، تأتين به فوراً وندخله المستشفى. وطلب منها أن تنتظر حتى الصباح لتذهب بي الى المستشفى لإجراء فحوص بغية الاطمئنان الى الجرح. قالت أمي إنني نمت ما تبقّى من الليل بهدوء وبراحة تامة. في الصباح قادوني الى المستشفى، وما زلت أذكر قليلاً كيف عرّاني الممّرضون وأوقفوني أمام آلة من فولاذ عرفت لاحقاً أنها آلة لتصوير الصدر. تقول أمي إن الطبيب عندما نظر الى الصور الضوئية صاح متأثراً وقال لها: إنها أعجوبة. لقد اخترقت الرصاصة أعلى الإبط الأيسر ودخلت وعبرت ناحية القلب من غير أن تمسّه، ثمّ استقرّت في أسفل الصدر بين الأضلاع. إنها أعجوبة، ردّد الطبيب، أنتِ محظية، ابنك أُنقذ من الموت، بين الرصاصة والقلب شعرة...

عندما كانت أمي تبلغ هذه النقطة من الحكاية، تتأثر وتنفعل

وكأنها تعيش تلك اللحظة الرهيبة. لقد مُنح ابنها الوحيد - حينذاك - الحياة، لم يصب بأي أذى ولم يُعطَ إلا دواء واحداً ولأيام قليلة. لم يشأ الطبيب قريبنا، أن أخضع لجراحة بغية التخلص من الرصاصة. لم تقتنع أمّي برأيه، حملتني الى طبيب آخر وكان على الرأي نفسه، ثمّ الى آخر... الى أن اقتنعت واقتنع أبي. لكنّ خوف الأهل حملهم على إخضاعي كلّ سنة للتصوير الشعاعي اطمئناناً إلى أن الرصاصة لا تتحرك من موضعها. قال لهم الطبيب في المرّة الأخيرة: إذهبوا ولا تعودوا البتة، الرصاصة "خاوت" اللحم. ما زلت أذكر هذا الفعل "خاوى" لكثرة ما سمعته خلال مراهقتي، الى أن قرّرت يوماً أن أفتح "محيط المحيط" لأقع على معناه، فإذا به لفظة عامية ولا وجود له في المعجم. لكنني ما برحت أن وجدت له مرادفاً بالفصحى هو "آخى". فالرصاصة "خاوت" اللحم أي "آخته" في معنى أن حالاً من التآخي أو الأخوّة صارت بينهما.

أضحت الليلة العشرون من تموز ليلة الحياة كلها، الليلة التي مُنحت فيها الحياة، الليلة التي أنقذتني فيها اليد الإلهية من السقوط في المنحدر الآخر، منحدر الحياة نفسها. منذ ذلك الحين لا أذكر أن عاماً مرّ لم أحتفل فيه بذكرى هذه الليلة التي تصادف عيد إيليا النبيّ. كانت أمي تصرّ على أن نزور أي كنيسة تحمل اسم هذا النبيّ الحيّ.

حفرت هذه الليلة في ذاكرتي ضوءاً مثلما حفرت الرصاصة في أسفل الكتف وشماً لا يزول. وطوال تلك الأعوام نشأت بيني وبين النبيّ إيليا صداقة، حتى أنه أصبح رفيقاً لي، رفيقاً لا

مرئياً، أتحدث إليه أو أحدّق فيه. وكم كنت أحب أيقونته التي يظهر فيها جالساً على صخرة وبالقرب منه غراب، أو تلك التي يظهر فيها صاعداً الى السماء في عربة من نار. كان إيليا من أرقّ الأنبياء، ولا تغيب عني كلماته التي نطق بها، عندما وقف على الجبل وقد عبر صوت الربّ في النسيم اللطيف: "إني غرت غيرةً للرب".

لا أدري لماذا تشرق تلك الذكريات من القلب، من عتمة القلب وكأنّها أحلام أبصرها بعينين مفتوحتين. في الليل أحلم كما لو أنني أتذكر، وفي النهار أتذكر كما لو أنني أحلم. لم تبق من تخوم تفصل بين ما أتذكره وما أحلم به. لقد اختلطت الأحلام بالذكريات وبتّ كأنني أحيا في عالم حائر بين أن يكون ماضياً أو حاضراً محلوماً به. تُرى أيكون الاقتراب من الموت والخروج منه هما اللذان يخلقان حال الحيرة هذه؟ أهي مواجهة الموت تكشف الوجه الآخر من الحياة، الوجه السرّي، الراقد في أعماق النفس؟

تخامرني هذه الأسئلة وسواها، فيما أعيش وحدي مع جسدي، مع جرح بالغٍ في القَدَم وجرح آخر في أسفل الظهر. أنحني على جرح القدم صباحاً ومساء. عليّ أن أنظفه وأضمّده مرّتين كلّ يوم. أما جرح أسفل الظهر فكانت تتولاه ممرّضة مرّة كلّ ثلاثة أيام. هذان الجرحان اللذان حملتهما من المستشفى الى البيت كانا يجعلانني في حال من الاضطراب المشوب بالهدوء الذي كان يبعثه فيّ ذلك السلام الداخلي، سلام مَن أُنقذ من الموت. لم أكن قادراً على الجلوس كثيراً، أما النوم فكان على

الجانب الأيسر أو الأيمن، فالجرح يخز والنوم على الصدر غير مسموح به من جراء جروح الصدر وإن كانت التأمت.

لم أكن وحيداً لحظةً، سواء في المستشفى أم في البيت، لكنني كنت في حال من الوحدة التي لم أعرفها سابقاً. وحدي وجهاً لوجه مع نفسي، مع الماضي الذي ظننته مضى، مع الذكريات التي حسبت أنها انقضت، مع الألم الذي ينبض مثل عقارب ساعة الجدار، مع الأحلام التي عادت إليّ، مع أحلام النهار التي كنت أغمض عينيّ وأتخيلها كما أشاء، مع الأفكار التي تهبّ كأوراق في الريح... كنت وحدي وجهاً لوجه مع وجهي في مرآة لا مرئية، في مرآة تطلّ على سماء لا زرقة فيها.

أتذكر الآن. أغمض عينيّ وأتذكر. أتذكر وأنسى. وجوه تطفو على ماء الذاكرة وأخرى تسقط في عتمتها.

ما زلت أذكر الخوف الذي كان يعتريني عندما تطرق بابنا بصّارة تريد أن تكشف لنا "الطالع"، كما كانت تقول بلهجتها البدوية. كانت البصّارات يجبن البلدة وجوارها، بأرديتهنّ السوداء الفضفاضة وعلى رؤوسهنّ مناديل مطرّزة بخيوط من ذهب، ويحملن "بقجاً" يخبّئن فيها أصدافاً وأحجاراً، وكنّ عندما يدخلن البيت يجلسن أرضاً ويفتحن "البقج" ويبدأن تبريجهنّ... كنت أخشى كثيراً مرأى البصارة، لا أدري حتى الآن لماذا، وكنت غالباً ما أختبئ حتى ترحل. لكنّني ما لبثت بعد أعوام أن تخطّيت هذا الخوف، وصرت أقف على مبعدة من البصارة، أنظر إليها كيف ترمي الحجارة الصغيرة على البلاط وتقلب الأصداف بين يديها، وأصغي إليها تتكلم عن المستقبل، مستقبل عائلتنا،

مخاطبة عالـم "الغيـب" كما كانت تقول. كانت أمّي والجارات يصغيـن إليهـا وفـي ظنهـنّ أن مـا تقولـه صحيح، وكـن يحرّكن رؤوسـهنّ، مسـتغربات ما يسـمعن. وعندما كانت البصّارة تنهي تبريجهـا كانـت تفتـح صرّتهـا ولـم تكن أمي والجـارات يتوانين عن وضع الليرات فيها.

كانـت البصّـارات يقصـدن الحـيّ والبيـوت لا سـيّما تلـك المحاذيـة للطريـق مثـل بيتنـا. بيت أرضي كان يطرق بوابته مارّة نجهلهـم، واحـد يسـأل عـن عنوان وآخر يطلب "شـربة" ماء... وكان الباعة الجوّالون يقفون أمام البوابة منادين على بضاعتهم، أيّاً كانت، خضاراً أم البسـة أم كعكاً... وكانت النسـوة يتجمّعن حولهم يخترن ما يشـأن شـراءه. كان هذا قَدَر البيوت المنفردة، ذات الطابـق الأرضـي، والمتاخمـة للطريق. إنها مقصد الزائرين العابرين كلّ يوم لا سيّما في الصيف، ولـم تكن الحديقة الصغيرة ولا الفرنـدا الكبيـرة لتردّهـم عـن البوابة. كان البيت كأنّه مفتوح دومـاً مـا خـلا أيـام الشـتاء. والحيـاة خارجـه كانت تحسـن في نظرنا أكثر مما داخل جدرانه أو في غرفه: في الحديقة والبورة التـي تحيـط بـه وعلـى الفرنـدا التـي تطـل علـى الطريـق. وكان يحلو للجارات أن يحملن كراسـيهنّ ليجلسـن في البورة قرب الشـبابيك ويقضيـن فتـرة الغروب هنـاك، متحدّثات أو حائكات الصوف أو...

كنت أخاف البصّارات كثيراً وعندما أبصرهنّ قادمات مناديات بأصواتهـنّ الغريبـة، كنـت أختبـئ. هذا الخوف كان يعروني أيضاً إزاء نسـوة كان يقـال عنهـنّ إنهـنّ يصبـن بالعيـن. هذه الجملة لم

أفهمها يوماً، لكنني كنت أخاف كثيراً عيون النسوة هؤلاء وكنت أختبئ لدى مرآهنّ. وأذكر أنني أصبت بالعين مرّات. وكانت أمي تصحبني كلما أُصاب بالعين الى جارة لنا تُدعى أمّ فوزي، كانت تجيد الرقية، فأجلس قربها وتروح "ترقي" لي، متمتمة كلمات لا أفهمها، وكانت تتثاءب كثيراً، ثمّ تأتيني بالماء لأشرب. ولم تكن تتيقن من خروج العين إلا عندما ينتهي التثاؤب. وفي أحيان كانت تقصد منزلنا لتصبّ الرصاص في مقلاة مسخّنة تحملها فوق رؤوسنا وتروح تتمتم وتتثاءب الى أن تخرج العين، كما يقال. وعندما كانت تنتهي كنا ننظر الى المقلاة التي بردت ونبصر الرصاص الذائب وقد اكتسى أشكالاً غريبة، كانت أمي والجارات يجدن فيها وجوهاً يقلن إنها وجوه الذين أصابونا بالعين. لم أعلم يوماً من أين وصلتنا هذه العادة، عادة الرقية وصبّ الرصاص، وكان أهل الحيّ، مسيحيين ومسلمين، يتعاونون على إخراج هذه العين الشريرة. كانت جارتنا أم فوزي مسلمة وكان زوجها ينتمي الى الحزب السوري القومي والتحق أحد أبنائها بحركة فتح الفلسطينية. كانت "ترقي" لأبناء الحيّ كافّة، وكنت شخصياً أشعر براحة تامة بعد الرقية، على ما أذكر، ولم أدر يوماً ما السرّ. لا أدري إن كانت حال الكآبة والخمول التي طالما ما أصابتني صغيراً هي ما كان يُسمّى صيبة عين، وكانت هذه الحال سرعان ما تزول عندما يُرقى لي. أما الرقية فلم أفهم كلامها يوماً وكان في إمكان المرأة أن تلقن الرجلَ هذه الرقية والرجلُ المرأةَ. وكان ممنوعاً على المرأة أن تلقّن امرأة أخرى هذه الرقية، ولا أعلم لماذا. لكنّ أمّي، بعدما هُجّرت أم فوزي وعائلتها غداة الحرب،

صنعـت رقيـة خاصـة بهـا قوامها الصـلاة الربانية التي كنا نردّدها: "أبانا الذي في السـماوات...". وكان الأولاد ينهضون من صيبة العين للحين، عندما كانت أمي "ترقي" لهم على طريقتها. فهي كانت تصلّي بقلب ورع وإيمان عميق.

أتذكـر الآن. أتذكـر... كأننـي أصبحـت كائناً من ذكريات لا تاريخ لها...

كنت أخشى ألا أستيقظ من الغيبوبة التي أحدثها البنج المخدّر فيّ فلا أعود. كنت أخشى أن يُصبح هذا الفتى الذي كان إياي، يتيماً مرّة أخرى. فأنا أمسيت أباه منذ أن أمسى بلا أب هو أبي نفسه. كنت أخشى ألا أعود من هناك، من المجهول الذي اختطفني، فتفتقدني ابنتي مثلما افتقدت أبي بعدما أغمض عينيه للمرّة الأخيرة وتصبح شقيقة الفتى الذي كنته، في يتمه الذي كاد أن يعيشه مرّة أخرى. كنت أكره فكرة اليتم التي تُسقط عن الفتى حظوة منحته إياها الطبيعة أو الحياة. كم كنت أكره بعدما فارقنا أبي، أن نُسمّى أيتاماً. كنت كلّما سمعت هذه الكلمة أشعر أنني أصبحت كالظلّ، لا اسم لي ولا عائلة ولا بيت. كنت أكره أن أكون مسقط اهتمام الآخرين أو محلّ مودّتهم، لا سيما في لحظات الضعف، عندما كنت أحسّ أنني طيف شخص يكاد لا يرى من شدّة ضآلته. لكنّ الذين كانوا ينعتوننا بهذه الصفة، ما كانوا يقصدون إهانتنا، بل على العكس، كانوا كأنهم يبغون إظهار حنانهم إزاءنا، وكنت أبغض ذاك الحنان الذي لم يعنِ لي إلا الشفقة، الشفقة التي لم أكن أحتملها. كنت أشعر للفور أنني طُعنت، أنني عُزِلت وسقطت مثل رقم محذوف. لكنني بالسرّ، لم أكن أحسد رفاقي كثيراً لأنّ آباءهم على قيد الحياة، فهم كانوا يخشونهم بصراخهم أو بالصفعات التي كانوا يوجّهونها إليهم،

وبالعقـاب الـذي كانـوا يُحلّونـه بهم. لكنّ موت الأب كان قاسـياً حينذاك، في ذلك العمر المبكر، مع أنني لم أعرف شـخصه إلا لماحاً. كان غيابه جارحاً ليس لأنني افتقدته باكراً فقط بل لأنني كنت أحس أنني أُعيَّر بهذا الموت. ولهذا ربّما لم أنتبه الى غيابه إلا لاحقـاً، عندمـا مـرّ عـام أو عامـان علـى رحيلـه، عندما بدأت أفهم معنى أن نسمّى أيتاماً. كان أهل الحيّ يتهامسون في أحيان متحدّثين عن يتمنا، أنا وأخوتي، وكانوا يسـمّوننا "أبناء المرحوم قيصـر"، وكان يؤلمنـي ذلـك التهامـس كثيـراً، مثلما كانت تؤلمني النظرات التي كانت تُلقى عليّ وملؤها الشـفقة. كان أهل الحيّ يُحنون علينا ويسعون الى ملء ذاك الغياب، لكنني لم أكن أحتمل عواطفهم المعلنة أو الخفية. كان الموت حينذاك حدثاً كبيراً في حياة الناس لا سـيّما إذا كان الميت ربّ عائلة. وأذكر كيف أنّ البلدة كانت تعلن الحداد إذا مات أحد أبنائها لا سـيما إذا كان أباً أو فتى وحيداً أو... كانت البلدة كلّها تصاب بالحزن وتشارك فيه. وعندما راج التلفزيون واحتل بعض المنازل، كانت العائلات تنقطع عن مشاهدة الشاشة الصغيرة طوال أسبوع، مشاركةً منهم فـي الحـداد. وأذكـر كيـف كان أهـل الفقيـد يجولـون علـى أهل الحيّ بعد أسبوع من دفن الميت، شاكرين إياهم على مشاركتهم العزاء وطالبين منهم أن "يشعلوا" تلفزيوناتهم. كان التلفزيون هو المقصود وليس الراديو. هذا ما كان سائراً أيام طفولتنا. لكنّ أهل الحيّ كانوا يخفضون صوت الراديو لا سيما عندما يبث الأغاني ويسـتمعون إليه بالسـرّ. أما التلفزيون فكان ممنوعاً. وأذكر كيف كنّا في بيت الجيران، نغلق النوافذ ونسـدل السـتارات جيداً أيام

الحداد و "نشعل" التلفزيون في السرّ لنشاهد البرامج التي لم نكن قادرين على تناسيها وتركها تمرّ من دوننا. وهكذا كان يفعل بعض الجيران الذين ما كانوا قادرين على السهر دون الشاشة الصغيرة، بفضتها الساحرة.

أتذكر التلفزيون الآن ولا أنسى كيف حُرمنا منه في البيت طوال الطفولة. وما زلت أذكر الألم الذي كان يبعثه فينا غياب التلفزيون عن بيتنا. كنا نحلم به وكان الحلم سيتحقق، لكنّ وفاة جدي وأبي من بعده حالت دونه. عندما يموت ربّ الأسرة يصبح من المستحيل اقتناء هذه الآلة العجيبة. فالحداد كان يعني ألا "يدار" التلفزيون في البيت سنة أو سنتين وربّما أكثر. كنا نزمع على شراء هذه الشاشة الصغيرة، بالأسود والأبيض طبعاً، عندما مات الوالد في سريره. أصبحنا فجأة أيتاماً والأيتام لا يشاهدون التلفزيون في البيت. هذا الشعور ظل يخالجني بضعة أعوام. كنت أشعر بالعمق أن عائلة بلا تلفزيون هي عائلة ناقصة، كان التلفزيون في نظري فرداً من العائلة، مثل الأخ أو الأخت، ومن دونه لا يمكن أن تكون العائلة سعيدة. هذا الأسى لم يفارقني إلا عندما أصبح لدينا تلفزيون بعد أعوام ولم نعد مجبرين على قرع أبواب الجيران لنشاهد البرامج التي كنا نحبها. وكان أولاد الجيران، رفاقنا في اللعب والدرس، لا يشاهدون تلك البرامج من دوننا، فكنّا نتجمع جالسين على الأرض، ننظر الى الشاشة بصمت ونصغي أو نقرأ الأسطر في أسفلها إذا كان البرنامج أجنبياً. كانت تلك الشاشة حدثاً في حياتنا، مع أن رفاقاً كثيرين لم يكن لديهم تلفزيون. وكانت الجلسة تضم أكثر من عشرة أولاد، يتهامسون

ويتأثـرون بمـا يشـاهدون. هـذا فـي أيام الصيـف والعطل. أما في أيام المدرسـة فلم يكن مسـموحاً لنا أن نشـاهد التلفزيون سـوى مرّة في الأسبوع، يوم العطلة.

كان ذاك الفتى الذي كنته يعشق التلفزيون حتى الولع، وكنت أحسد أصدقائي الذين كنت أقصدهم، على تلك الآلة في بيتهم. كنـت أحـب التلفزيـون حتـى لو كان مطفأ، وكم حلمت أنني أنام قربـه فـي الليـل. كان لونـه الفضيّ يبعـث فيّ الكثير من الطمأنينة والـدفء اللذيـن كثيـراً مـا افتقدتهما. وكنت أحـسّ أن للتلفزيون رائحة كنت أشمّها لدى الجيران وليس في بيتنا، رائحة لا أعرف من أين كانت تأتي ولا كيف أشمّها. وليس بمستغرب أن ترتبط تلـك الشاشـة الصغيـرة فـي ذاكرتي بحال اليتـم، فاليتم كان يعني أن لا تلفزيون في البيت وأن الحياة ينقصها شـيء ما. وربما لم يخفّ الشعور باليتم إلا عندما أصبح لدينا تلفزيون.

أصبـح التلفزيـون، منـذ تلك الأيام، بمثابة صديق لي. كانت شاشته الفضية تسحرنا، تملأ عيوننا صوراً ووجوهاً وتمدّ مخيّلتنا الطفلة بالحكايات التي كنا نحتاج إليها، لا أدري لماذا. وكنا عبر تلك الصور والحكايات نهرب أقصى ما أمكننا، نتخيل عالماً لا تغيب شمسه ولا يبلغه الأسى. أضحى التلفزيون منذ تلك الأيام، رفيقنا، في الشتاء والصيف، ننتظر أن يحل أول المساء كي "نديره" ونجلـس أمامـه بصمـت وكأننا نتهيّأ لرحلة خارج عالمنا الصغير. وكنا نعرف للفرح نكهة لم نكن نعرفها بعيداً من تلك الشاشـة. كان التلفزيون حدثاً في حياتنا، بل الحدث الذي لم ندرك سـرّه إلا عندمـا اجتزنـا عتبـة المراهقـة. وأذكر كيف كنا في تلك الأيام

نتخيّل أننا في صالة سينما نشاهد فيلماً من أفلام الوسترن التي كانت تبهرنا، فنطفئ الضوء ونغلق الستائر ونجلس في العتمة التي تضيئها الشاشة الصغيرة وحدها. وكم كنا نفرح عندما ينتهي الفيلم فنضيء الغرفة وكأننا في صالة السينما. لم نكن نعتمد هذه الحيلة إلا لأننا كنا محرومين في ذلك العمر من الذهاب الى السينما، والسبب أن أهلنا ما كانوا من هواتها، مع أن أمّي كانت تخبرنا دوماً عن الأفلام التي شاهدتها في صباها ومنها على ما أذكر الفيلم المصري "كرسي الاعتراف". ولكن منذ أن تزوجت كما كانت تقول، انقطعت عن الذهاب الى السينما. لم أكن أحمّل أبي يوماً سبب هذا الانقطاع، لأنني كنت أجهله وأجهل إن كان يهوى السينما. وأذكر أنني لم أسأل أمي يوماً عن هذا الأمر. لكنه، كما تخبر أمي، كان يهوى مشاهدة مسلسلات بعينها على الشاشة الصغيرة وكان يتابعها مع أمي لدى الجيران أو الاقارب. فبعد وفاة والده - جدّي - رفض أن يكون لدينا تلفزيون في البيت.

أعترف أنني ورثت حبّ التلفزيون من الفتى الذي كنته وورثت من المراهق الذي كنته أيضاً حبّ السينما، بل لأقل حبّ العتمة التي تغرق فيها الصالة لدى بدء الفيلم. وكنت وما زلت أؤثر إطفاء الضوء عندما أجلس أمام التلفزيون متخيلاً أنني في صالة السينما. كانت تلك العتمة أجمل ما يمكن أن أعيشه في الصالة. وفي أحيان كنت أدخل الصالة دون أن أعلم ما هو الفيلم، أدخلها لأتمتع باللحظة التي يُطفأ فيها الضوء ليشتعل ضوء آخر، هو ضوء الفيلم، ضوء هذا العالم الذي سيطلّ علينا أو الذي ستحملنا إليه الشاشة الكبيرة. كانت لحظة إطفاء الضوء

أجمل لحظة في الصالة أو لأقل في المشاهدة. إنها اللحظة التي تختصر نهاية عالم وبداية آخر. إنها صنو لحظة الموت أو لحظة الولادة أو كلتيهما معاً.

كان أحد الرفاق، عندما نجلس أمام التلفزيون، يتمنى لو أنّ أحد الأبطال يكسر الشاشة الصغيرة وينزل فيتعرّف إليه ويكلّمه. لم أعد أذكر من هو هذا البطل وأظنه كان فرنسياً. لكنّ أمنية رفيقي لم تتحقق، واكتفى بجمع صور هذا الممثل في ألبوم من غير أن يميّز بين الممثل والشخصية التي يؤدّيها، وفي ظنه أن البطل هو البطل. ولم يكن ينتبه الى أنه يجمع صور الممثل في شخصيات أخرى كان يؤدّيها في أفلام لم نشاهدها. كان رفيقنا هذا يحلم دوماً بهذا البطل يكسر الزجاج وينزل. أما أنا ورفيق آخر، فكنا نحلم أن نكسر زجاج التلفزيون لندخل إليه ونرافق الشخصيات التي نحبّها ونجوب معها الأحياء والمدن. كان دخولنا الى ذلك العالم أجمل من خروج الأبطال منه. لكنها أحلام الأطفال التي لا حدود لها. وأذكر كم أنني فرحت عندما شاهدت قبل أعوام فيلماً للمخرج وودي ألن يقفز بطله من الشاشة، نزولاً عند رغبة الفتاة التي تحبه ويأخذ بيدها ويخرجان من الصالة ليعيشا قصة حبّ في حياة هي أشبه بفيلم. تذكرت رفيقي الذي لم أره منذ أعوام طوال وفرحت فرحاً طفولياً وقلت في نفسي إن الأحلام لا بدّ من أن تتحقق ولو على الشاشة نفسها.

إنها الذكريات، ذكريات هذا الفتى الذي كان يكره أن يُسمّى "يتيماً". وأعتقد أن ما كان يجعلني أكره كلمة "يتيم" أكثر فأكثر، هو الصورة التي كنت أتمثلها عن الأيتام، وكانت تؤلمني كثيراً.

كان في البلدة ميتم، لم أعد أذكر أسمه، متاخم للملعب الذي أنشأته البلدية والذي كنا نشاهد فيه مباريات كرة القدم ونتحمّس لفريق ضد فريق، دون إلمام بشروط اللعب. في هذا الملعب كنا نقضي ساعات طوالاً في أيام الصيف، تنتهي عند حلول الظلام، نلعب ونتمرّغ بالتراب. كان الميتم شبه مغلق أمامنا وكان يحيطه سور من حجارة، لكننا كنا نقف أمام البوابة الخضراء - على ما أذكر - بقضبانها الحديد وننظر الى الداخل بشغفٍ أو فضول، لنبصر ماذا يحصل داخل السور. كنا نرى الأيتام يلعبون في ملعبهم الصغير وكيف يقفون في صفوف غير طويلة عندما يقرع الجرس، ظهراً أو عند الغروب. كنا نبصر غرفهم ذات النوافذ الواسعة، ونرى الأسرّة موزّعة في ردهة لم يتح لنا أن نبصرها جيداً. فالدخول كان ممنوعاً علينا، وكان الأولاد أو الأيتام ممنوعين من الخروج والاختلاط معنا. لكنهم كانوا قادرين على الوقوف وراء البوابة ومن هناك ينظرون إلينا، نحن الأولاد الذين يلعبون بحرية ويقفزون ويصرخون. ومثلهم كنا نقف أمام البوابة، نتقابل من دون أن نتكلم بعضنا مع بعض - ما زلت حتى الآن أجهل لماذا - وكم كنا نسرّ عندما كنا نراهم في أيام الصيف يغتسلون تحت الحنفيات بالماء من غير أن يخلعوا سراويلهم. كنا نحسدهم فقط على هذا اللعب بالماء في أيام الحرّ. وأذكر مشهداً لا أستطيع أن أنساه ربّما لغرابته أو قسوته. ففي أحد أيام الصيف خرج الفتيان الى الملعب شبه عراة واصطفّوا في خطّ واحد، وقبالتهم كان يجلس رجلان تحت الشجرة، وعلى الطاولة أمامهما مقصّ وصابون وآلة حلاقة، والى جانبهما برميل مملوء

ماء وقصعة. وكان هذان يناديان الفتيان بالارقام وليس بأسمائهم، فيتقدم كلّ منهم عندما يحين دوره، فيتولى أحد الرجلين قصّ شعره بالمقص بسرعة ثم يغسله بالماء والصابون ويروح الآخر يحلق رأسه بآلة الحلاقة حتى يصبح أصلع ثم يرمي عليه الماء... وكان كل فتى يُحلق شعر رأسه يلتحق بالصف الجديد مع رفاقه المحلوقي الرؤوس. وعندما ينتهي الرجلان من مهمّتهما يتوجهان نحو الفتية وفي يد كلّ منهما قنينة يدلقان منها سائلاً أصفر - على ما أذكر - ثم يمسحان الرؤوس الحليقة. كان المنظر رهيباً حقاً، بعض الفتية كانوا يتذمّرون خارجين عن الصفّ ربما لعدم تحمّلهم الرائحة الكريهة المنبعثة من الدواء. كنّا نحن نقف أمام البوابة، نحدّق اليهم ولم يكن الرجلان يباليان بنا. لكنّ الفتية ما كانوا ينظرون الينا. وقد علمنا فيما بعد أن موجة من القمل كانت انتشرت في الميتم ولم يكن أمام القائمين عليه إلا أن يبادروا الى حلق رؤوس الفتيان درءاً للخطر. وفي ذلك الصيف أصيب بعض الفتية والفتيات في حَيِّنا بهذا "المرض" فحلقت رؤوس الفتيان، أما الفتيات فكانت أمهاتهنّ يعتنين بشعرهن، غسلاً بالصابون والدواء. وأذكر كيف كنّ يستخدمن مشطاً طويلاً، مسنّناً يمرّرنه على الشعر بقسوة، وكانت الفتيات يصرخن ألماً ويبكين في أحيان.

ظل الميتم عالماً مجهولاً، لم ندخله يوماً ولم نبصر كيف كان ينام هؤلاء وماذا يأكلون وكيف يصلّون معاً عندما يرتفع الآذان في الداخل. وأذكر كيف كنا ننظر إليهم نظرات فيها من الخفر ما فيها من الفضول أو... فهؤلاء لم يكن لديهم آباء أو

أمهات أو إخوة. ولم يكن لهم أيضاً بيوت ومدارس يذهبون إليها ويعودون منها. لم تكن لهم حياة خارج هذا السور. لكنهم ما كانوا يضجرون ولا كان الحزن يحل بهم ولا الشعور باليتم. كانوا يبتسمون ويلعبون ويصرخون... غير مبالين بنا ولا بنظراتنا، وكأنهم فعلاً أسرة كبيرة.

وأذكر أيضاً كيف أصبنا في الحيّ بمرض "الجرب". كان هذا المرض ينتشر بين الفتيان بسرعة، عبر احتكاكهم بعضهم ببعض خلال اللعب الذي لا يخلو من العنف الخفيف في أحيان. انتقل المرض إلينا، نحن صبية الحيّ جرّاء عدوى لم يعلم أهلنا كيف حصلت، مع أنّنا كنا في عطلة الصيف. كانت بثور زهرية اللون قد انتشرت في نواح عدّة من أجسادنا، في الساقين، في الذراعين، في البطن، في أسفل الظهر والحوض... وكنا نحكّها باستمرار حتى لتصبح حمراء. ولم نكن نتوقّف عن حكّها، لا سيّما في الليل.

كنت الوحيد الذي أصيب في البيت. وسرعان ما استعانت أمي، مثل أمهات رفاقي، بجارنا الطبيب الذي كان يملك عيادة في الحيّ. وقال لهنّ إنّ الأولاد المصابين يجب أن يظلّوا بعيدين عن أشقائهم الأصحاء، وألا يناموا في الغرفة نفسها. ووصف لنا دواء كريه الرائحة. قنينة كانت أمي تدلق منها سائلاً كثيفاً أصفر اللون ثم تدهن جسمي به. ولم أكن أتمالك عن الصراخ من جرّاء الحريق الذي كان يحدثه في الجلد. كانت رائحته كريهة جداً، وما زلت أذكر حدّتها التي تثقب المنخرين. وأفردت لي أمي فراشاً في غرفة الطعام لأنام عليه بعيداً من أخوتي، وكانت

تغسل ثيابي على حدة. وهذا ما حصل أيضاً لرفاقي. هم تألموا أيضاً من حريق هذا الدواء. وكان الطبيب الذي كان صديقنا، أشار إلينا بضرورة التشمس، فكنا نخرج نصف عراة الى السطوح، ونجلس تحت الشمس الحارقة. ولم تمضِ أيام حتى شفينا تماماً وعدنا الى حياة المنزل بعد أن كنّا شبه مُفردين. وأذكر أنّنا، كلّما شعرنا برغبة في حك سيقاننا أو ظهورنا، نحكّها بالسرّ، بعيداً عن عيون أهلنا، خوفاً من نار ذاك الدواء ورائحته النافرة.

كان طبيب الحيّ يدعى اسكندر لوقا، مصري قبطي يتكلّم بلهجة طريفة، مصرية وفرنسية. لا أدري ما الذي جاء بهذا الطبيب الى حيّنا. كان ودوداً، يحبّ أهل الحي، يرشدهم ويطبّبهم مجّاناً في أحيان كثيرة. وكنّا في أيام الصيف ندخل عيادته، عندما لا يكون لديه مرضى، فيحدّثنا بلطافة ويُسدي إلينا النصح. ونظراً الى قرب منزلنا من عيادته، كان يستعين ببرّادنا، ليضع فيه أدوية يجب أن تظل مبرّدة. وعندما انتشر مرّة مرض الكوليرا، تلقى أهل الحيّ "الطعم" أو اللقاح على يده، وكان عليه أن يضع ما بقي من هذا اللقاح في برّادنا، داخل علبة مقفلة. وأذكر كم كنت أخاف عندما أفتح البراد من هذا اللقاح، متوجّساً أن يتسرّب الى الطعام أو أن تأكله جدّتي بالخطأ.

أذكر كيف كنت أتألم عندما كان رفاقي ينظرون إليّ، عندما كنا نتكلم عن صبية الميتم. كانت نظراتهم الصامتة توقظ فيَّ جرحاً كان لا يزال ندياً مثل طفولتنا. إلا أن هذا الفتى اليتيم الذي كنته، كان قادراً على مواجهة يتمه والخروج منه في أحيان بما يشبه "الانتصار". كان يتباهى على رفاقه مثلاً بما ينعم به من

حرية لم يكن أولئك ينعمون بها. فغياب الأب كان يعني في ما يعنيه غياب السلطة في العائلة، فالأم لا تستطيع أن تحلّ محلّ الأب، مهما بلغت بها القسوة. وكانت أمي امرأة ورعة، لا تكفّ عن الصلاة. وكان أكثر ما يزعجني أن أسمع بعضهم يسمّونها "الأرملة" أو "أرملة قيصر". كنت أشعر عندما أسمع كلمة "أرملة" أن الحياة ناقصة، لم تكتمل، وأقصد حياتنا أو حياتي، وأنها حياة على هامش الحياة أو خارجها. هذا ما كان يؤلم ذاك الفتى الذي ظل يفتقد الأمان أو الطمأنينة حتى أعوام بلوغه، وربما بعدها. وأكثر ما كان يحيّرني هو إسم أبي الذي اكتشفته في الإنجيل. وكنت أتذكره عندما أسمع الكاهن يقرأ فيه: "أعطوا ما لقيصر لقيصر...". لكنّ قيصر الإنجيل لم يكن أبي ولم يكن من امرأة في الإنجيل تدعى أرملة قيصر. كنا نقرأ فقط عن فلس الأرملة في الإنجيل، وكنت أتذكر أمي التي تسمّى أرملة، وأتصوّر أن المسيح باركها مثل تلك الأرملة في الهيكل التي وهبت الفلس الوحيد الذي كان معها.

غير أنّ غياب الأب لم يكن له وقع مأسوي في حياة الفتى الذي هو أنا. لم أملْ يوماً الى استدرار شفقة أحد وكنت أكره أن يعطف عليّ الأقارب أو الجيران. وأذكر أنّ عندما جاء رفاقي يعزّونني بأبي عند رحيله وقد غمرني أحدهم بين ذراعيه، لم أتمالك عن الابتسام، بل عن الضحك الخفيف. كنا في دارة الجيران، أجلس مع الرجال، قرب عمي وأبناء عمي وخالي وسواهم، وكان عليّ أن أقف معهم كلما وافانا المعزّون. قضيت، بعد الجنازة ثلاثة أيام، أقف وأجلس، أصافح المعزّين والمعزّيات

وكان بعضهم يضمّني ويبكي. لم أستوعب هذا "الطقس" إلا لاحقاً عندما مات والد صديقي بعد ثلاثة أعوام. لقد أصبح هو مثلما كنت أمسيت أنا، ربّ العائلة، وإن في هذا العمر المبكر.

كنت أجهل أبي، أجل يمكنني أن أقول إنني كنت أجهله. لقد خانتني ذاكرتي أو خانته. أتذكر أموراً كثيرة ترجع الى زمن الطفولة، وبعضها باهت أو نافل، لكنني لا أتذكر جيداً وجه أبي أو شخصه بل لأقل إنني أتذكره لماحاً. يحضر وجهه في عيني مثل لمح البرق أما صوته فلا. وكم كنت أتمنى لو أنّ أمي سجّلت صوته على شريط لأستمع اليه يتكلم، لأسمع صوته وأتعرّف اليه ولو بالصوت. فالموت هو في أحد وجوهه، موت للصوت أيضاً. صوره قلّبتها بين يديّ مرات ومرات، ساعياً إلى استعادة وجهه، لكنّ الصور تظلّ صوراً ويظل وجهه وجهاً في صور.

أذكر بضعة أمور لا تغيب عن ذاكرتي، مهما تضاءلت. أتذكّر كيف كان يصطحبني في الصيف الى "الفاخورة" وهي الاسم الشعبي لمعمل القرميد أو الفخار الذي كان يديره وتحت يده عمّال بعضهم من العرب، سوريين وفلسطينيين... كان هو يشرف على سير العمل، متنقلاً بين جهة وأخرى. وأذكر كيف كنت أتبعه: هنا يجبلون التراب بالماء داخل جبالات ثم يضيفون اليه مادّة لها رائحة الكاز، هذه الرائحة التي لم تغادر ذاكرة الشمّ لديّ على رغم صغري حينذاك، هنا يرصّون الجبلة وقد أصبحت طيناً حتى تمسي أشبه بقطعة كبيرة جداً ثم يعمدون الى تقطيعها ناقلين القطع الصغيرة الى آلات كانت تدار وتحدث ضوضاء. في الجهة الأخرى كنت أشاهد قطع القرميد وقد صفّت لتجفّ قليلاً

قبل أن يدخلوها الى الفرن كي "تُشوى"، هكذا كانوا يقولون، ثمّ تُبرّد فتقسو وتمسي قرميداً أو فخاراً. وكانت للقرميد أشكال عدّة: القرميد المستطيل الذي تبنى به الجدران والمداخن وسواها، والقرميد العريض الذي كان يحتل سقوف المنازل، القديمة أو الجديدة، بأحمره الجميل الذي طالما تغنّت به القصائد. كان يبهرني كثيراً كيف يصبح التراب طيناً والطين قرميداً... منظر بديع كنت أتنقل في أرجائه. وكم كان يحلو لي جبل الطين واللعب به وصنع أشكال منه. ما زلت أشعر بطراوة الطين بين أصابعي، أصنع منزلاً أو شخصاً أو حيواناً ثم أروح أتأمل ما صنعت بفرح كان يبلغ أوْجه عندما أشاهد مصنوعاتي تخرج من الفرن.

كان والدي يتقن هذه الحرفة جيداً، لا سيما حرفة "الشوي" أو الشيّ التي تفترض الكثير من الدقة والمهارة، فالنار لا توقد مثل أي نار، بل بالتدريج، وعلى "الفرّان" أو "الشوّاء" أن يعلم متى عليه أن يزيد من اضطرامها وأن يخففها... في آخر النهار كان التعب يحلّ على والدي وعلى العمّال، فيجلسون في الخارج قرب بركة ماء، يشربون ويأكلون ما تبقى من زوّاداتهم قبل أن يفترقوا. لم أدر يوماً كيف تعلم والدي هذه المهنة هو الذي عمل فترة غير قصيرة في "الاطفائية" الفرنسية. كان إطفائياً يكافح النار ويطفئها فأصبح "فاخورياً" أو خزّافاً يضرم النار ويراقبها. كانت صوره في لباس الاطفائي جميلة جداً، وكانت القبعة الفرنسية تضفي على رأسه هالة. كان عازباً حينذاك وكان مهيّأ لأن يُرقّى ويصبح كومندان، كما قال لي مرّة ابن عمّه، لكنه ترك الاطفائية بعدما تعرّض لحادث كاد يودي به وبرفاقه. هذه الفترة من حياة

والدي كانت مجهولة ولم أسأل أمي يوماً عنها، لا أدري لماذا. ولعلها لم تبال بتلك الفترة، فترة الاطفائي، لأنها عندما تزوّجت كان والدي "فاخورياً" أو "خزّافاً". ولم أسأل أمي يوماً إن كان والدي يقرأ ويكتب، لا أدري لماذا أيضاً، هل حرصاً على ألا أجرحها هي "الأمية" أم لقناعة رسخت لديّ من أنّه كان يقرأ، لا سيما الصحف والكتاب المقدّس.

أما "الحدث" الوحيد الذي لا أنساه من أحداث ذلك الصيف الذي كان يصطحبني والدي فيه الى "الفاخورة" فهو "الحدث" السينمائي الذي عشته عن كثب وأبصرته بعينيّ. كانت "الفاخورة" قريبة من الشاطئ وكان يفصل بين جدارها الطويل والماء فسحة من الرمل. وصدف حينذاك أن مخرجاً سينمائياً اختار ذلك المكان ليصوّر لقطة تنتحر فيها البطلة رامية بنفسها في البحر. أذكر جيداً كيف جهّز المخرج وفريقه الكاميرا، وكيف صعدوا الى أعلى المصنع وراحوا ينظرون ويتحدّثون، لم أعلم عمّاذا، وكانت "البطلة" على الشاطئ تنتظر الإشارة لترتمي في الماء. أما ما فاجأني، ولا أنساه، فهو الدمية الكبيرة التي حملوها وصعدوا بها الى السطح، وكانت ترتدي الثوب نفسه الذي ترتديه الممثلة التي في الأسفل. أوقفوا الدمية الكبيرة على الحافة واختفوا ثم أبصرتها تقع وكأنها ترمي بنفسها في الماء. كانت الكاميرا تصوّر الدمية وهي تقع... ثم بعد أن انتشلوها من الماء، راحوا يصوّرون الممثلة مستلقية على الماء والموج يقذفها. كانوا كثراً، عشرين ربّما وكان بينهم رجل يوجههم رافعاً صوته في أحيان، هو المخرج الذي لم أكن أعلم ماذا يفعل.

هذا المشـهد كان أول لقطة سـينمائية أشـاهدها حية وليس على الشاشة. وصورة "الدمية" التي تشبه الممثلة لا أنساها. إنها اللقطة السينمائية الأولى التي أشاهدها في حياتي بالألوان، بينما كان الفيلم بالأسـود والأبيض على ما أظن. هنا على الشـاطئ، بدأت علاقتي بالسـينما، التي أصبحت لاحقاً واحداً من عشـاقها المفتونيـن. وقـد ارتبطـت هـذه اللقطة بصورة أبي وأصدقائه وهم يقفـون مندهشـين أمـام هـذه اللعبة السـينمائية التـي لم تكن فعلاً إلا خدعة واهية.

لـم أفتقـد أبـي كثيـراً، ولـم تمضِ بضعة أعوام حتى أصبحت فتـى هـو والـد نفسـه. كان الأب فكـرة غامضـة تلتمـع في الرأس كالسراب. كان صورة، أنظر إليها كما لو أنني أنظر الى شخص أعرفه ولا أعرفه. ومن كثرة ما نظرت إليها صارت مجرّد صورة على جدار، اعتدت عليها مثلما يعتاد المرء على رؤية الأشياء التي تحيط به، يبصرها ولا يبصرها، ينتبه ولا ينتبه إليها. أصبحت سيد نفسي باكراً، لم يستطع العم أو الخال أن يحلا محلّ الأب. ولـم أدع لهما فرصة أن يلعبا هذا الدور، مع أنني كنت في أحيان كثيرة أحتاج الى شخص يقف إلى جانبي ويمدّ لي يده إذا تعثرت. وكم تعثرت ولم أجد سوى نفسي أتكئ عليها. كنت كأنني أعيش داخل سـياج أقمته من حولي، ولم يكن من أحد يخترق هذا السـياج. وكنـت أفهـم جيـداً مـا كان يردّده بعضهم واصفاً إياي بالشـخص المنطوي على نفسه. وطالما تمنّيت أن أغلق على نفسي فعلاً كما لو داخل شرنقة، فأغيب في نفسي. لا أذكر تماماً متى عشت حال الانطواء هذه، التي لم تكن عابرة. وقد تركت فيّ شعوراً عميقاً

بالنقصان، باللاطمأنينة والكدر أو الاضطراب. وكنت بصمت أحيا، أتألم بصمت، لا أخبر أحداً عما يساورني من هواجس، لأنني كنت على يقين أن ما من أحد سيفهم ما سأخبره عنه. هل هو غياب الأب الذي تجاهلته طويلاً كان له أثره فيّ؟ كنت حقاً أتناسى صورة الأب بل أنساها بعد ما اعتدت على غيابها. وعندما كنت أبصر آباء رفاقي وكيف يعاقبونهم أو يضربونهم لم أكن أحسدهم كثيراً على عدم يتمهم. كنت أشعر أنني لا أحتاج الى أب، أنّ من الأفضل لي أن أكون دون أب. كانت الحرية التي نشأت عليها تمنحني قدْراً من الرضا، أنا سيد نفسي ولا أحد فوقي. لم تملك أميّ سلطة عليّ إلا لاحقاً، في خريف عمرها. لكنّ هذا الفتى كان ضعيفاً، أضعف مما يمكن تصوّره.

كنت أتباهى أمام رفاقي بما أسمّيه حرية. أعود من اللعب في الحيّ عندما أشاء من غير أن ألقى عقاباً. أفعل ما أشاء ولا خوف من ضربات "حزام" أو من ركعة قد تطول. أما رفاقي فكان الأب أشبه بالهاجس لديهم لأنهم كانوا يعاقبون على أي فعلة يرتكبونها. وكنت في أحيان أستمع الى صرخات بعض الرفاق ترتفع تحت وقع الحزام. وعندما أقول الحزام أقصد حزام الأب الذي كان يلمع في مخيلات الصبية. لم أعرف هذا الخوف طوال سنيّ الطفولة وما بعدها. وكان بعض هؤلاء الصبية يحسدونني على هذه النعمة. أما أنا فكنت أكره بالسر هذه الحرية التي تباهيت بها، مثلما كنت أكره صورة الأب كما عرفتها عبر رفاقي، الأب القاسي الذي يضرب بلا رحمة، وفي ظنّه أنّه يؤدّب ابنه. ولم أكن أصلاً شقياً كي أخاف العقاب جلداً بالحزام، بل كنت أميل

الى الانطواء على نفسي، أحزن بسرعة ويلازمني دوماً شعور باللاطمأنينة. لكنني كنت أخفي كلّ هذه الأمور في الداخل، مبدياً الكثير من الصلابة.

أما أكثر ما كان يحسدني رفاقي عليه فهو إقدامي بنفسي على توقيع دفتر العلامات المدرسية داخل الصفّ وفي اللحظة التي كانت توزّع فيها تلك الدفاتر على التلامذة. كنت أفتح الدفتر وأوقّعه للحين متباهياً وكأنني وليّ أمري، وكان التلامذة ينظرون إليّ بدهشة لم تكن تفارقهم فصلاً تلو فصل. أما الأساتذة فاعتادوا على الأمر بعدما وافق المدير على توقيعي الشخصيّ. والسبب أن أمي لم تكن تجيد القراءة ولا الكتابة، فكان عليّ أن أحلّ محلّها في تدبير هذا الشأن. أما إخوتي فكنت أنا مَن يتولى توقيع دفاترهم وكأنني الأب بينهم ولكن من دون سلطة.

لم أستطع يوماً أن أفهم ما يعني ألا يجيد المرء القراءة والكتابة. لم تكن الكتابة مهمة حينذاك في نظري، أما القراءة... كيف يمكن أن يكون امرؤ عاجزاً عن القراءة؟ كيف يمكنه أن يتجوّل في الشارع؟ أن يدخل المحالّ؟ أن ينظر الى الجدران وما كُتب عليها؟ كيف يمكنه أن يحيا في العالم؟ كانت تؤلمني حال أميّ مثلما كانت تخيفني. كنت أخشى عليها أن تضيع لأنها لم تكن قادرة على قراءة ما يُكتب هنا وهناك وما يرشد أو يساعد أو يوجّه. لكنّ أمي لم تكن تبالي بهذا الأمر ولم تسمع أحداً يصفها بـ "الأمية"، لأنها كانت على تقواها، شديدة الذكاء، واستطاعت وحدها، بُعيد وفاة الوالد، أن تواجه المحكمة وشؤون الإرث. وكانت تردّد أمامنا أنها تعلّمت القراءة والكتابة في أعوامها الأولى

لكنها نسيتهما على مرّ الأعوام، مع أنها عملت فترة في مطبعة في بيروت كانت تشرف فيها على تجليد الكتب. أي كتب؟ كنت أسألها، فتقول إنها نسيت عناوينها.

كانت أمي بمثابة أمّ فقط، لم تكن صديقة أولادها، كانت أمهم فقط. وكانت هذه الحال الأمومية تترسّخ أكثر فأكثر كلّما كبرنا. تزداد الأم قرباً وبعداً في آن واحد. كانت صورة الأم تغلب عليها، الأم بحنانها، بعطفها، بحدبها على الأولاد الذين ما كانوا ليكبروا في نظرها. لكننا كنا نبتعد عنها دون قصد ولم تكن هي تبالي، كلّ ما يهمّها أننا لها وأننا من حولها، حتى وإن كنا صامتين. ولم يكن أحد منا يحدّثها عن شؤونه الخاصّة، ولا يلجأ إليها ليسألها عن أمر أو يستشيرها في مسألة، مع أنها كانت حاضرة بشدّة في حياتنا، ولكن كأم وليس كصديقة أو رفيقة. كانت تصلّي كثيراً، حتى في صباها، ولم تكن المسبحة تفارق يدها في الليل. لم أشعر يوماً أنها تجذبني كامرأة وكنت إذا تعرّفت الى فتاة أبحث في وجهها عمّا لا يذكّرني بأمي، المرأة الورعة التي ترمّلت باكراً وحُرمت باكراً من رغباتها ولم تفكر يوماً في الإقدام على الزواج أو على علاقة حب عابرة. وكنت أشكّ في أحيان كثيرة إن كانت لها رغبات. كنا نحن، أولادها، حياتها بعد وفاة زوجها. كنا نحن ولم تكن هي، إلا لأننا كنّا. لم تفكر يوماً في رجل. ظلّت تضع خاتم الزواج في إصبعها وضمّت إليها خاتم والدي الذي لم يدم طويلاً في إصبعها النحيلة، وخوفاً من أن تضيعه خبّأته في خزانتها. كنت أتصوّر أمّي امرأة ولدت لتكون أماً، وتزوّجت لتكون أمّاً فقط، كان يُهيّأ إليّ أنها لم تعرف اللذة

إلا عابراً وربّما عن غير قصد. إنها امرأة قديسة، مع أنها أنجبت وعرفت المخاض. كان جسدها على حدة، كأنها عاشت خارج جسدها. ترمّلت شابة ولم تشعر يوماً بحاجة الى رجل، كنا نحن حبّها وأملها في هذه الحياة التي كانت حياتنا، لا حياتها. لم أذكر يوماً أنها ارتدت قميصاً أو فستاناً ينمّ عن مفاتنها ولا سرّحت شعرها تسريحة فيها بعض إغراء. كانت تكتفي فقط بالعطر، وتؤثر عطراً فرنسياً أذكر أن إسمه كان "سواريه دو باري" - إن كنت أذكر حقاً - لكنّ قنينته الليلكية الغامقة لا تغيب عن عينيّ، وطالما شممت هذه القناني التي كانت تحتفظ بها بعد أن تفرغ.

عندما توفّي والدي شعرت أن نصفها سقط مثل غصن، لكنّها لم تستسلم ولا انهارت ولا انزوت داخل البيت. وصية زوجها أن تحدب على الأولاد وترعاهم. وكان أن حلّت محلّ الأب ولكن بلطافة الأم. وإذا قست علينا في أحيان عندما كنّا "نعذّبها"، لم تكن تنثني عن ذرف بضع دمعات ولكن بصمت. وكنت أبصر تلك الدمعات في عينيها وأغصّ بصمت أيضاً. إنها الأم التي لم تعرف من هذه الحياة إلا أنها أمّ، أنها أم لأولاد هي والدهم أيضاً. لكنّنا لم نشعر بأبوّتها يوماً. فهي لم تنجح في أن تؤدي شخصية الأب الراحل مهما حاولت أن تقسو علينا. كانت أمّاً، أقلَّ من أمّ وأكثر من أمّ. لم أكن أحتمل رؤية عينيها مخضّلتين دمعاً. كانت بمثابة مريم أخرى، بلا رجل ولكن بابناء، وكم آلمها أن تموت ابنتها بين يديها. كنت أتخيلها في تلك اللحظة مريم المتألمة، المنحنية على ابنها الذي فارق العالم، كما في منحوتة دولوروزا ماتر. وقد ازدادت بُعيد وفاة الشقيقة أمومةً، لم تتذمّر

ولم تحتجّ أمام إلهها. وكانت حال أمومتها هي الغالبة، وقد نشأنا في كنفها وحملناها في سرائرنا. زُرِعت فيّ بذرة الأمومة فنبتت بالسرّ وأزهرت. وكثيراً ما كنت أشعر أنّ الحبّ هو حال من الأمومة، وكذلك الإيمان والفرح والأسى. إنها حال الأمومة التي تغلغلت فيّ، لا أعرف كيف. حتّى عندما كنت أجافي أمي كنت أشعر بأمومتها أكثر فأكثر. وأتذكر ما قال المسيح مرّة لمريم: مالي ولكِ يا امرأة... فكّرت كثيراً بهذه الجملة وكنت أفسّرها على طريقتي.

هذه الأم التي لم تكن تقرأ وتكتب، عرفت كيف تحافظ على ميراث الأسرة، أي على الأراضي التي ورثناها عن الجدّ والأب، ولم تسع يوماً الى بيع قطعة أرض مهما بلغت بها الحاجة، فهي كانت تؤمن أن الأراضي لا تباع بل تشترى.

لم أكن قادراً على أن استوعب أمّية والدتي مع أنني كنت أفرح عندما أقرأ لها بعض العناوين أو الأسماء، وما كُتب على بعض اللوحات عندما كانت تصحبني الى ساحة البرج في قلب بيروت. أما المحالّ في الساحة التي تقصدها فكانت تعرفها جيداً ولم تكن في حاجة الى أن تقرأ أسماءها. وكانت تعرف بيروت غيباً، تعرف المقاهي التي كان يجلس فيها شقيقها، خالي، والمحال و "البوتيكات" التي طالما قصدتها منذ فتوّتها التي أمضتها في منطقة الجمّيزة المتاخمة لساحة البرج. وأذكر كيف كانت تصطحبني في بداية العام الدراسيّ الى منطقة اللعازارية لشراء الكتب المدرسية. وهناك كانت تنتحي إحدى الزوايا عاهدةً اليّ مهمة شراء الكتب، كتبنا، اخوتي وأنا، وكتب ابن الجيران

الذي لم تكن تسمح له أمه بمرافقتنا. كنت هناك، وسط الكتب، الجديدة والمستعملة، أشعر بحبور نادر، الكتب من حولي وأنا الذي أختار حاملاً قوائم العناوين. أما أمي فكانت تنظر إليّ مبتسمة وكأنها ترى فيّ التلميذ الذي طالما تمنّت أن تكون مثله في صغرها.

كنت أتباهى أمام رفاقي بمثل هذه "الهبات" التي منحني إياها القدر، لكنني كنت أخفي في الداخل ألماً ما كان ليظهر إلا قليلاً. وقد دفعتني "حال" أميّ الى حبّ القراءة، ولا أدري لماذا، هل خوفاً من أن أصبح أمياً أم تحقيقاً لحلم عجزت هي عن تحقيقه؟ بدأ هاجس القراءة لديّ منذ تلك الأعوام الأولى وكان لأمي أثر فيها. كنت أشعر أنّ عليّ أن أقرأ عنها وعنّي، وأن أملأ هذا الفراغ الذي عاشته طويلاً. وأذكر كم كانت تفرح عندما تراني أقرأ دون أن تعلم ماذا أقرأ، ما عدا الكتاب المقدس الذي كانت تعرفه جيداً وسير القديسين الذين كانوا أصدقاء لها.

كان الإنجيل من الكتب الأولى التي كنّا نقرأها برهبة أو ربّما بخشوع. وكانت قراءته تختلف تماماً عن قراءة الروايات والقصص التي كانت تملأ حياتنا. وأذكر كيف كنت أجلس في أحيان، حاملاً الانجيل بين يديّ أقرأ فيه بصوت عالٍ على جارة لنا عجوز كانت تهوى الاستماع الى تلك الكلمات. وأذكر أيضاً كم قرأت على أمي من صفحات طويلة من الانجيل كانت تتقبلها بفرح شديد. هكذا بدأ ولع الصبيّ بالقراءة، قراءة النصّ الديني الذي كان يحفر أثراً في روحه لم ينتبه له إلا بعد أعوام. كان الانجيل أول نصّ رمزي يقرأه هذا الصبيّ، أول نصّ علّمه كيف

عليـه أن يصغـي الـى مـا وراء الحـروف، بـل كيـف عليـه أن يقرأ بروحـه أو قلبـه وليـس بعينيـه. كان الانجيـل أول صدمة في حياة ذلـك الفتـى الـذي فتنتـه القراءة باكـراً ولم تفارقه يوماً. لقد علّمه الانجيـل أن الحكايـات قـد تكـون حقيقيـة حتـى وإن كانت على قدر من الغرابة أو المأسوية.

أذكر جيداً أن "الكتاب المقدس" كان أول كتاب أكببت على قراءته خارج كتب الأدب. أقول "الكتاب المقدّس" قاصداً كتاب "العهد القديم"، الفائض بالحكايات والأساطير والنبوءات والقصائد والأمثال والحكم... وكنت أحار دوماً في مقتبل المراهقة، لماذا كان الإنجيل يُرفق دوماً بالتوراة الذي يُعدّ كتاب الدين اليهوديّ، ولماذا كان يسمّى كتابُ التوراة بالعهد القديم والإنجيل بالعهد الجديد. لكنّنا كنا نقرأ الإنجيل بخشوع ورهبة، وليس بصفته كتاب حكايات تعدّد رواتُها، إنجيلاً تلو آخر. كنّا نقرأ العهد الجديد وكأنّنا نصلّي آياته ونصغي اليها بقلوبنا. كان هذا كتاب البيت، وأذكر كم مكث قرب السرير، وكم كنّا كلّ ليلة نقرأ فيه قبل أن ننام.

"العهد القديم" لم أكتشفه حقاً إلاّ في أحد دروس القواعد العربية. كان المعلّم يشرح لنا الفعل الماضي التامّ الذي يقابل الفعل الماضي الناقص وهو "كان". استخرج المعلّم المثل الذي ضربه لنا من "سفر التكوين" الذي يرد في مطلعه هذا الفعل في صيغته التامة: "وقال الله ليكن نور فكان نور. ورأى الله النور إنّه حسنٌ، وفصل الله بين النور والظلام. وسمّى الله النور نهاراً والظلام سمّاه ليلاً. وكان مساءٌ وكان صباحٌ يومٌ واحد". كان وقع هذه الآيات رهيباً عليّ، على ما أذكر. لم يهمّني الفعل التام

"وكان مساء..." مقدار ما جذبني جمال هذه اللغة أو سحرها. نصحنا معلّم العربية حينذاك بقراءة "العهد القديم" في ترجمة ابراهيم اليازجي، مثلما كان ينصحنا بقراءة "كليلة ودمنة" وكتب طه حسين وتوفيق الحكيم وابراهيم المازني ومصطفى لطفي المنفلوطي، عطفاً على طائفة من الأدباء اللبنانيين النهضويين والمحدثين الذين كان يفرض علينا قراءتهم. وكان يكنّ لطه حسين مودّة خالصة ولطالما حدّثنا عنه وعن فرادة لغته ومتانتها وسحرها، لا سيما في "الأيام" و"دعاء الكروان"، ولطالما ردّد أمامنا أن طه حسين الكفيف كان يملي ولم يكن يكتب، واصفاً إيّاه بالكاتب العبقري الذي لا مسوّدات لنصوصه. كان يسمح لنا بقراءة "ألف ليلة وليلة" في هدف المتعة والسلوى لا أكثر. فاللغة المستخدمة في "الليالي" لم تكن تروق له. وقد جعلنا نؤخذ بابن المقفع، الكاتب الأثير لديه، وكان في أحيان كثيرة، يختار مادّة الإعراب من نصوصه، ويروح يعلّمنا كيف نعربها ونستذيقها. ولم يفته أن يردّد على مسامعنا أنّ علينا أن نقرأ القرآن الكريم ونهج البلاغة لاحقاً عندما نصبح مهيّأين لقراءتهما.

عندما اكتشفت "العهد القديم" شعرت أنّني وقعت على كنز. رحت أقرأه بتأنٍّ، أرجع الى الشروح المرفقة بالنصّ، وأدوّن على دفتر، الجمل التي كانت تبهرني والمفردات والأوصاف والتراكيب الفريدة والمشتقات... وأذكر أنّني أمضيت قرابة عام، اقرأ فيه وأدوّن، حتى أصبح الدفتر دفترين، وما زالا معي، أحافظ عليهما بحرص شديد. ظللت أقرأ هذا الكتاب طوال أعوام، قراءة متقطعة، وما برحت، فهذا كتاب يقرأ باستمرار بصفته كتاباً مقدّساً

أولاً، مع أن "الكتاب المقدّس" بحسب نشأتنا هو الإنجيل، ثم بصفته عملاً من الأعمال الأدبية العظيمة. وقد صنعه أو أنشأه كما يقال، ابراهيم اليازجي، الأديب النهضوي الكبير في صيغة عربية قشيبة، شديدة البهاء والسحر، بليغة تمام البلاغة. وبدا تعريب اليازجي الذي أُعدّه أحد معلّميَّ، لهذا الكتاب الضخم بأسفاره كافة، عملاً إبداعياً صرفاً، وقد تجلّت عبره عبقرية اللغة العربية أقصى تجلّياتها الجمالية الحديثة.

كنت - وما زلت - أقرأ هذا الكتاب في صيغة اليازجي بشغف ومتعة، وقد تعلّمت منه الكثير، لا سيما الإيقاع الداخلي الذي يمكن أن يختزنه النثر. كأنّ اليازجي كان يكتب الأسفار، ولا يترجمها، مرتكزاً الى إحساسه الموسيقي باللغة. ولعل هذا النص الذي أبدعه انطلاقاً من النص المقدّس، هو أجمل ما ترك من آثار. وأعترف أنني لم أمِلْ إلى ما كتب من قصائد ومنشورات، وبعضها خيّبني فعلاً، حتى أنني ساءلتُ نفسي مراراً إن كان هو نفسه الذي صاغ "الكتاب المقدّس" متعاوناً مع بضعة آباء فرنسيين كانوا يجيدون اليونانية والعبرية. كأنّ إلهاماً إلهياً كان يحلّ عليه عندما كان ينصرف الى عمله الخارق هذا. وأعترف أيضاً أنني تعرّفت إلى الكثير من أسرار العربية، من خلال ما دوّنت على دفتريّ من جمل وآيات بديعة. وسعيت مرّة الى المقارنة بين ترجمات عربية أخرى للعهد القديم وصيغة اليازجي وشعرت أنني مصاب بحمّى هذا العبقريّ الذي كان السبّاق الى إحياء اللغة العربية والى تحديثها. ولا أنسى البتة الأثر الذي تركته فيّ قراءة سفر أيوب مثلاً أو نشيد الأناشيد أو المزامير ونبوءة أشعيا،

ناهيك عن "العهد الجديد" ورؤيا القديس يوحنا...

أما القرآن فشرعت في قراءته لاحقاً وكنت كلّما فتحته أتذكر الصفة التي نعمت بها اللغة العربية متفرّدة، الصفة القدسية، صفة اللغة المقدّسة، لغة الله أو اللغة التي تحدّث بها الله. ولطالما ساءلت نفسي إن كان ممكناً حقاً الإبداع في لغة أبدع الله فيها. إنها لميزة فريدة أن يمتلك المرء لغة سبقه إليها خالقه فيشعر عندما يكتب برهبة المقدّس الذي لا بدّ من مجابهته. كأنّ الكتابة بالعربية فعل مواجهة دائمة لهذا المقدس الذي يسكنها. ولعلّ هذه المواجهة دفعت كثيراً من الشعراء الى السقوط في "هاوية" المقدّس. أذكر ما قاله مرّة شاعر مجيباً على سؤال عن الكتابة: "أكتب لأقول ما لم يقله الله". لعلّ ابراهيم اليازجي، مبدع "الكتاب المقدّس" بالعربية، لم يواجه حرجاً مماثلاً، على رغم تحدّره اللغوي من نسب المتنبي الذي تعلّم عليه أسرار العربية. لم يفكر ابراهيم اليازجي، عندما كتب "العهد القديم"، أنّه في صدد أداء الصوت المقدّس أو محاكاته، ولا في صدد التماهي مع صاحب هذا الصوت.

أتذكّر "الكتاب المقدّس" الذي لا يفارق طاولتي، مثله مثل بضعة كتب أخرى. أتذكر إبراهيم اليازجي أيضاً. ترى لماذا أتذكرهما؟

لـم نكـن نشـعر بالحـداد إلا عندمـا يُغطّـى التلفزيون بخرقة رماديـة. لا أدري لمـاذا كان لونهـا رماديـاً. كان اللـون ذاك لـون الحداد في عيوننا، نحن صبية الحيّ أكثر مما كانه اللون الأسود. عندما يموت شخص في العائلة تُسدل تلك الخرقة على الشاشة الصغيرة لثلاثة أشهر أو ستة أو سنة. يصبح التلفزيون قطعة شبه معطّلة، صامتة وخرساء مثلها مثل الكرسيّ أو الكنبة، ولا ضوء فضياً ينبثق منها، ذاك الضوء الذي كثيراً ما بهر عيوننا. هكذا كان يبدأ الحداد في حياتنا. سهرة بلا تلفزيون ونوم مبكر وأحلام كأنها مكسـورة... كيـف كان يمكننـا أن نحيـا بـلا تلفزيـون؟ كيف كان يمكننا أن نبصر الشاشة الصغيرة مطفأة ومغطّاة، نحن الذين كنّا نحتـاج الـى القصـص لنملأ حياتنـا الواهية بالأبطال والحكايات؟ كانت الشاشـة أجمل ما في تلك الحياة، وكذلك الأبطال الذين كنا ننتظر إطلالتهم لنفرح ونهنأ ونظن أن الحياة يمكنها أن تكون جميلة. حياة بلا أبطال لم يكن لها من معنى حينذاك، وكان أجمل الأبطـال أولئـك الذيـن نبصرهم على الشاشـة الصغيرة فيصبحون أصدقاء لنا ولو من خلف الشاشة. لم تكن السينما دخلت حياتنا في تلك الحقبة، وحده التلفزيون كان صديقنا بدءاً من أول الليل، عندما تبرق الشاشة بلونيها الأسود والأبيض اللذين كانا يسحراننا. في تلك الأيام لم يكن التلفزيون "يُدار" في النهار، كان كائناً ليلياً

يرافقنا حتى منتصف الليل.

لكننا سرعان ما كنا ننتبه الى أن اللون الرمادي المسدل على الشاشة الصغيرة أصبح أسود، حين ننظر الى النسوة يرتدين ملابس سوداً. كان هذا اللون مقيتاً وقاسياً وهو الذي جعلني أخاف الليل في مطلع صباي وأكرهه لا سيما في الشتاء. عندما توفّي أبي غرقت أمي في اللون الأسود. لا أذكر متى خلعته عن جسمها. ارتدته أعواماً. الفتيات في العائلة كن يرتدينه لأشهر، لا أعلم كم. وعندما توفيت شقيقتي عادت أمي الى الأسود، لكننا ألححنا عليها ألا تطيل ارتداء هذا اللون، لأننا كنا كبرنا. واقتنعت ورأت في الصلاة ما يخدم الموتى أكثر ممّا في الحداد.

كانت جارتنا في الحيّ أقسمت ألاّ تخلع الأسود طوال حياتها، عندما مات وحيدها غرقاً في البحر. لا أذكر الحادث، أذكر فقط كيف ظلّت غارقة في السواد حتى أيامها الأخيرة. وأذكر أيضاً الخوف من البحر الذي غزا قلوبنا لا سيما بعدما ألغت أمي من حسبانها فكرة البحر أو السباحة، أيام الصيف. كان ممنوعاً علينا أن نذهب الى البحر لنسبح، نحن ومعظم صبية الحيّ، من جراء الحادث الذي أودى بوحيد الجارة. لكننا كنا نستعيض عن البحر بما توافر من برك تُملأ ماءً لريّ الحدائق أو البساتين. كانت تلك البرك بحرنا الخالي من الزرقة ولكن المحاط بالخضرة، بالأشجار والنبتات... وكانت تلك الحدائق والبساتين فردوس طفولتنا، نحن أبناء المدينة التي لم تكن حينذاك إلا ريفاً يطلّ على البحر. وأذكر كيف أصابني الخوف عندما ذهبت الى البحر للمرّة الأولى وكنت في السابعة عشرة، وكيف أنني لم أجرؤ على

النزول في الماء، فاكتفيت بالجلوس على الشاطئ غاسلاً جسمي بالزبد الذي كان يقذفه الموج. كان البحر يخيفنا لا سيما عندما يكون هائجاً، نبصر الأمواج تضرب الصخور وتنفجر مثل شظايا من الماء. كان هذا المنظر يعيد إليّ صورة الفتى الذي غرق أو الذي "سحبه" الموج كما كان يقال، وخطفه الى أعماق الماء وهناك انقضّت عليه الأسماك المفترسة. لم أستطع يوماً أن أتعلّم السباحة، على خلاف معظم رفاقي الذين راحوا ينعتونني بالجبن. وكنا نحن أصلاً مهيّأين لمثل هذه المغامرة لأننا من أبناء المدينة، وكان البحر دوماً على مرمى نظرنا. ربما هو الغرق الذي راح ضحيته ابن الجارة جعلني أظنّ أن البحر ليس إلا منظراً جميلاً، أشاهده دون أن أنزل فيه. هكذا أحببته وما زلت، مع أنني كنت سرعان ما أملّ الجلوس أمامه، على الرمل أو على الصخور. كان البحر أجمل، عندما تنظر إليه من بعيد، فتراه صفحة ملساء تخترقها مراكب الصيادين. أما في الليل فكانت الصفحة تلك تستحيل مرآة للسماء المعتمة، لقمرها المتلألئ ونجومها الخافتة. لم أستطع يوماً أن أتعلّم السباحة، لكنني فيما بعد صرت أنزل الى الماء وأمشي حتى يغمر الماء صدري فأعود. هذا كلّ ما قدرت عليه، أمام هذا الكائن الأسطوري العظيم، بزرقته وأسراره وكنوزه الخبيئة.

لم تكن جارتنا الثكلى تخلع الأسود إلا عندما تنام. ولم يكن يراها سوى النسوة في أول الليل، يساعدنها إذا احتاجت إليهنّ، فهي كانت أرملة أيضاً وتحيا وحدها، تجلس على كنبتها وتصلّي معظم النهار وردحاً من الليل. كانت تشعر أن اللون

الأسود يُبقي ابنها قربها بل يُبقيه فيها، في حناياها وبين أضلاعها. كانت تشعر أيضاً أنها عبر هذا الحداد لا يمكنها أن تنساه لحظة، أنها تكون وفيّة له. كانت تشعر أنها هي الميتة وليس هو، أو أنهما ميتان معاً أو حيّان معاً. كانت هكذا تعزّي نفسها هي التي لا يمكن أن تُعزّى. وكانت تتحدّث عن وحيدها وكأنه خرج للحين وسيعود، فتنتظره وفي ظنها أنه لن يتأخر. كانت تعلم جيداً أنه لن يعود ومع ذلك كانت تنتظر، آملةً أن تراه. وبعد بضعة أعوام على رحيله سقط الحزن من عينيها وباتت تتحدث عنه بما يشبه الفرح الخفيض من غير أن تتخلّى عن الأسود. فهي لم تعد قادرة على ارتداء أيّ لون آخر. ظلّت ترتدي الأسود حتى عندما أُدخلت المأوى في مطلع الحرب، عندما لم تبق قادرة على البقاء وحدها. ولعلها ماتت مرتدية الأسود نفسه. وأذكر كيف زرناها في المأوى وكيف راحت تبكي وتشهق بأسى عندما رأتنا ولم تلفظ كلمة إلا بعد دقائق. كان المشهد مأسوياً: ردهة واسعة ملأى بالأسرّة وعلى الأسرّة عجائز، بعضهم نيام وآخرون، رجالاً ونسوة، يجلسن على أطراف الأسرّة. عجوز يصرخ من هنا، عجوز تسعل هناك، عجوز تمشي على عكّازتها، أخرى يرتفع شخيرها... أصوات غريبة وممرّضات في منتصف العمر، يتنقلن بين الأسرّة وبدت إحداهن تتجه نحو إحدى العجائز، بيدها إناء ويتبعها ممرّضان راحا يرفعان المرأة العجوز النائمة على السرير بفخذيها، حتى يتسنى للممرضة أن تضع الإناء الأبيض المستطيل تحت مؤخرتها... كان المنظر قاسياً وفي وسع أيّ شخص أن يراه، فلا ستارة تخفي السرير، والعجوز لم تكن تدرك أنها تفعل

ما تفعل أمام أعين الآخرين. أما الروائح فكانت مختلطة، كريهة وحادّة، ولم تكن المطهّرات قادرة على طردها. أدركت في تلك اللحظات لماذا كانت العجائز في الحيّ يكرهن فكرة المأوى. حتى جدّتي كانت تمقت المأوى وتوصينا دوماً: إياكم والمأوى. أريد أن أموت هنا على هذا السرير. وكانت على حقّ مع أنها لم تزر جارتها العجوز التي أسلمت روحها هناك، في تلك الردهة المخيفة، التي كانت تستقبل العجائز الفقراء الذين ليس من معيل لهم.

كان الحداد يجعل الغائبين كأنهم غير غائبين. الحداد كان بمثابة العتبة التي تقف عندها الأم أو الزوجة في انتظار غائبهما. كان هو الحافز على الحياة، على مواصلة هذه الحياة التي أضحت ناقصة الى الأبد. كان الحداد أشبه بخيط الضوء الذي يفصل بين الأحياء وموتاهم أو بين الموتى واحيائهم. إنه عزاء مَن لا عزاء له.

حتى الليل حينذاك بات كأنّه لون حداد، هذا الليل الذي كان يضيق به صدر الفتى حتى ليشعر أنه يختنق. ولم يكن يختنق فيه سوى ضوء العالم. كان يشعر برهبة الليل عندما تنزل خيوطه، عندما ينتشر ظلامه في الجهات. كان يخاف العتمة. في العتمة كانت تعبر رأسه صور الموتى الذين يحتلّون الجدران. ولم يكن يدري لماذا في الليل. في تلك الأعوام لم يكن الفتى اكتشف معنى الليل، كان الليل عتمة في نظره، عتمة تنهض فيها كائنات غريبة، أشباح وموتى ينتهزون رقاد الأحياء ليجولوا ويتيهوا قبل أن يداهمهم الضوء. وكان إذا استيقظ في وسط الليل يغطّي وجهه

لئلا يبصر شيئاً. هذا الخوف من الليل بلغ أوجه بعد وفاة والده. حتى أنّه ليلة قيل له إن الوالد توفّي، بال في الفراش ولم يجرؤ على النهوض الى الحمّام. هذه الحادثة ظلّت تؤلمه أعواماً وكانت إذا روتها الأم للجارات يخجل كثيراً.

إلا أن الليل ما لبث أن أصبح صديقه بعد أن دخل أعوام المراهقة. لا يذكر متى بدأ يحبّ الليل. هل عندما أحبّ فتاة الجيران وبات ينتظر القمر ليحدّق فيه كما لو الى وجه فتاته؟ هذا ما تعلّمه من صبية الحيّ الذين كانوا يقعون في الحب. وكان يبلغ به الشوق في أحيان حتى ليقضي ساعتين أو ثلاثاً على السطح ساهراً مع رفاقه في ضوء القمر، قرب العريشة التي كان يأنس الى أوراقها والعناقيد، والى ظلالها المترامية بصمت. لم يعد الليل يحمل في طيّاته لون الحداد. راح الليل ينفض عن وجهه تلك الصور والأشباح وأضحى المراهق ينتظره ليمتلئ به وكأنه يمتلئ برغبة غامضة، لا سيما في الصيف، عندما تشرق السماء بنجوم منثورة كاللآلئ. لكنّ القمر كان ملاك الليل، الملاك المضيء الذي يغادر في مطلع الفجر. أصبح الليل أسير القمر. ليل بلا قمر في نظر ذاك الفتى، ليل ناقص، ليل بلا سحر، ليل مقفر مثل صحراء. كنا ننظر الى القمر بحبور، نتأمّل وهاده والتلال التي كانت أشبه بالظلال المضيئة. وكنا نسأل: هل من أحد هناك؟ ولم تكن الأفلام الخرافية التي نشاهدها على الشاشة الفضية تقنعنا كثيراً بكائناتها التي سقطت من القمر، مع أنها كانت تبهرنا. وأذكر كيف أمضينا ليلة العشرين من تموز عام 1969 على سطح منزلنا نحمل مناظير صغيرة نرنو عبرها الى القمر عسانا نبصر المركبة

الفضائية "أبولو" تمخر عباب الفضاء وتتهيأ للهبوط على سطح كوكبنا الجميل. لكننا لم نبصر المركبة تلك الليلة ولا الرواد الذين استقلّوها وأخذتنا الحيرة. وأذكر كيف قال أحد الرفاق: ربّما صعدوا من الناحية الأخرى. وسمحت لنا براءتنا أو لأقل جهلنها أن نصدّقه لا سيّما بعدما شاهدنا على الشاشة الصغيرة الرائد نيل أرمسترونغ يخطو على القمر. كانت تلك الحادثة أشبه بالأسطورة مع أننا لم نستوعبها وقتذاك تماماً، وقد سمعنا الجميع يتحدّثون عنها بحماسة ودهشة. وأذكر كيف أن أستاذ العربية طلب منا عندما عدنا الى المدرسة في أول الخريف أن نكتب عن رحلة أبولو. كان هذا أول موضوع إنشاء نكتبه بعد عودتنا الى صفوفنا. وكان أجمل موضوع إنشاء يمكن أن يكتبه تلامذة صغار تابعوا تلك الرحلة الباهرة الى القمر. وكنا نتخيل أنفسنا نمشي على القمر مثلما فعل روّاد الفضاء الذين شاهدنا صورهم وهم يرتدون تلك الملابس الغريبة، أو نتوه في صحرائه مثل "الأمير الصغير"، البطل الذي غزا خيالنا.

منذ ذاك الحين، منذ ذاك الحبّ الأول، تصالحت مع الليل وصرت أحبّه وأنتظره كلّ ليلة لا سيما في الصيف. صرت أحبّ النافذة ولم أكن أقدر على النوم في غرفة لا نافذة فيها. النافذة هي شقيقة الليل، أطلّ منها على سمائه. وكم كان يحلو لي أن أنام تحتها، حتى إذا فتحت عينيّ أبصر الليل يسيل على وجهي، وأرى النجوم تتلألأ مثل أحلام لا يبصرها أحد. كنت أحبّ النوم مع الليل من خلف النافذة وكأنّه فتاتي، أضمّها ونغيب معاً في رغبة ما كنت أدركتها حينذاك تماماً.

لكنّ الليل كان هو اللغز في هذه الحياة التي أسمّيها حياتي، اللغز الذي ما برح يحيّرني وسيظل. كلّ ما قرأته عن الليل زاد من حيرتي إزاءه، حتى النصوص التي تدّعي علميتها لم تقنعني. الليل أبعد من أن يُحدّ بمفهوم الزمن أو بالفيزياء. إنه ناحية من هذه الروح التي تسكن الشخص أو التي يسكنها الشخص. الليل هو الكائن وقد أضحى وحيداً أو لا أحداً أو الآخر الذي لم يَكُنْهُ إلا سراً. هذه القارة السوداء أشعر دوماً أن ما من أحد اكتشفها كلها. إنها عصية على الاكتشاف. إنها ما لا يوصف، ما لا يمكن الوصول إليه، ما لا يُحدّد، ما لا شكل له ولا نهاية ولا لون. الأسود ليس لوناً بل هو غياب اللون. ليل الإنسان مثلما هو ليل الجحيم أو ليل القبر أو ليل الليل. لا أذكر من قال إن "الإله من ليل". هذا وصف لم ينعم أيّ إله به، حتى آلهة الليل في الأساطير القديمة. ليل الأسرار التي تنهض من رقادها كلما حلّت عتمة، ليل الحكايات التي تفيض بالأشباح والجنيات، ليل الكنوز الخفية. كم أحببت عبارة "مملكة الليل"، هذه المملكة التي لا مَلِكَ لها، بل رعية فقط، تختلط فيها الأطياف، أطياف موتى وأحياء، ويسطع في ضواحيها الذهب، "ذهب الليل"، وفي عمقها تنبت أزهار سود هي "أزهار ليل المادّة". هذا ما كانت تزرعه في مخيلاتنا القصص التي كنا ندمن قراءتها. وكنت أميل الى القول: "أشرق الليل"، ولم أكن أفهم ماذا أعني في هذا القول الذي سرقته لا أذكر من أيّ كتاب. كان رفاقي في الصف يضحكون وفي ظنهم أنني أمزح. لكنني ما لبثت أن أدركت بعد بضعة أعوام معنى هذا القول الذي لم أعلم حينذاك أنه من قبيل

المجاز. أذكر أن الفتى رسم، عندما طلب الأستاذ منا أن نرسم منظراً في قلب الطبيعة، صخرة ملطخة بالأحمر يحيط بها الليل من كلّ نواحيها. هذه الرسمة لا أنساها وقد خبّأتها فترة طويلة بين كتبي. ولم يمضِ عامان حتى اندلعت الحرب وفقدتها.

كان أكثر ما يشغلني أنّ الليل كان له مؤنث هو "الليلة" كما كان يقول لنا معلّم العربية. كنت أستغرب أن يكون الليل في لغتنا مذكراً بينما هو شديد الأنوثة، غامض وصموت. لم تكن كلمة "ليلة" تعنيني كثيراً لأن الليل يحمل مؤنثه في روحه. وكم كنت أغتبط عندما كان المعلّم يردّد على مسامعنا مفردات الليل أو مشتقاته: ليل لائل، ليل أليل ومليّل، أو ليّل الليل. كأنّ الليل أكثر من ليل، أو كأنّ له مراتب. كأنّ هناك ليلاً أدنى وليلاً أقصى، ليل الديجور وليل السماء...

كان الليل كأنه أمّ النهار والنهار طفله الذي يولد كلّ يوم. النهار هو الذي يخرج من جوف الليل ليعود اليه ثمّ ليخرج مرّة تلو مرّة بلا انتهاء. الليل هو الأم التي لا وجه لها، ترخي سدولها فتحلّ العتمة على العالم مثل غطاء شاسع. كنا في الليل نبصر الأشياء وكأننا لم نبصرها من قبل، كأننا للمرّة الأولى نبصرها. ولم تكن هي نفسها في النهار عندما يسقط الضوء عليها. الأشياء تخفي روحها في النهار وفي الليل تستيقظ تلك الروح فتغدو الأشياء غريبة، غريبة بظلالها وألوانها... لا أدري مَن الذي تحدّث عن "ألوان" الليل وكيف كان يبصر فيه ألواناً لم يكن ليبصرها في النهار. الشجرة في الليل ليست كما في النهار، وإن كانت هي نفسها في الحديقة التي قرب البيت. هكذا الأبواب التي تُغلق

والنوافذ الهاجعة بصمت والزقاق الضيّق والسياج والورد الذي على السياج، والهواء والحقل... كأن الليل يلقي على الأشياء ماء سحرياً أو رحيق أزهار مجهولة أو عسلاً إلهياً.

كانت الليلة المقدسة أو ليلة "الغطاس" كما نسمّيها، أشدّ الليالي فتنة. إنها الليلة التي تسبق الاحتفال بعماد المسيح على يد يوحنا. كانت أمي تهيّئ العجين لتصنع منه الزلابية. وكانت تنتظر حلول الليل لتباشر في قليها. فالليلةَ يمرّ المسيح ويبارك العالم. وكان موعد مروره عند منتصف الليل. وكانت أمّي تسرد لنا كيف أن الأشجار تركع عند مروره ابتهالاً له. لكننا لم نبصر الأشجار ركعت مرّةً عند منتصف هذه الليلة المقدّسة، مع أننا كنا نسهر وراء النوافذ محدّقين في الأشجار، ما عدا شجرة التين التي لعنها المسيح كما يقول الكتاب، ويبست لحينها. وهذا ما لم أفهمه يوماً، فالمسيح هو المحبّة بذاتها، المحبّة الخالصة، وإذا كان غفر لصالبيه ما فعلوه فهل يمكن أن يلعن شجرة تين لأنه لم يجد فيها ثمرة في غير أوان التين؟ لم أفهم ما قام به المسيح إزاء هذه الشجرة التي لا تثمر إلا في الصيف، مثلما لم أفهم لماذا لم نبصر الأشجار تركع مرّة في منتصف ليلة "الغطاس". وكنا إذا سألنا الأم عن الأمر تقول لنا: الأشجار تركع بالسرّ ولا أحد يراها من البشر.

لم تفارقني هذه الحكاية يوماً وأعتقد أنّها كانت أول إدراك لي لما سمّيناه لاحقاً "المجاز". هذا "المجاز" الذي رحت – وما زلت – أفسّر من خلاله الكثير من الظواهر المقدّسة، وأُولاها قصة شجرة التين التي كان القصد منها أن يظل الإنسان في حال من

الإثمار خارج لعبة الفصول. ولعله "المجاز" نفسه الذي أدرجني في خانة "المهرطقين" بعدما قرأت الكتاب المقدس كما حسن لي أن أقرأه بعيداً عن مبادئ الكنيسة. كانت "الليلة المقدّسة" هذه أول اكتشاف لي لمفهوم المجاز، لكنّ هذا الاكتشاف لم يحل دون اعتقادي بقدسية هذه الليلة. إنني أحب الأسرار وأظن أن ديناً يخلو من الأسرار ليس هو بالدين. هذه الليلة كانت - وما برحت - سراً من أسرار الحياة. عند منتصفها يشرق ضوء لا يبصره إلا الذين وُهِبوا أن يبصروه، كالقديسين والأولياء والمتصوفة والنسّاك الذين هجروا العالم وركنوا الى سكينة لا نهاية لها. هكذا فهمتُ ما قاله يوحنا الصليب، القديس الشاعر، عن "الليل الذي يضيء الليل"، عن "الليل الأحبّ من الفجر"، ليل الطهر والنقاء، الليل الذي لا بدّ من سلوكه وصولاً الى الله، الليل المظلم بنوره، ليل التجلّي... وهكذا أيضاً أدركت سرّ العلاقة التي ربطت بين نوفاليس شاعر "أناشيد الليل"، الذي غادر باكراً، والليل الذي ناداه: "أيها الليل المقدس، الليل السرمدي الذي يفوق الوصف". وما أجمل كلامه عن "العيون اللامتناهية" التي يفتحها الليل فينا حتى لتبدو "أكثر قداسة من النجوم البارقة". ولا أنسى ما قاله ابن العربي صاحب "الفتوحات" الذي خبر معنى الليل بروحه والجسد، معنى غياب الليل والنهار معاً، عندما لا تغرب فيه شمس ولا تطلع. ولا أنسى قوله: "زال الليل وبقي النهار في اليوم كلّه، فلم تغرب له شمس ولا طلعت". وكم سحرني قوله أيضاً: "قد يكون الليل ولا ظلمة، كما أنه قد يكون ولا ضوء". كانت مثل هذه الأقوال تقنعني أن الليل هذا قد يكون الجوهر

الذي يكمن في قلب الدين أو السرّ الذي إذا أدركه المرء يدرك معنى الموت الذي هو اليقظة نفسها.

لمـاذا أتذكـر الليـل؟ لماذا أتذكر علاقتي الصامتة به؟ ألأنني اكتشـفته بعينيـن مغمضتيـن؟ ألأنـني تهـت في أرجائـه ثم فتحت عينيّ؟

إلا أن الليـل كان فـي عينَـيْ ذاك الفتـى لـون الرغبة الأولى، لون الشهوة التي اكتشفها الفتى، أول ما اكتشفها، بنارها العذبة، في جسـد أسـود، في جسـد امرأة سـوداء. عرفت الحبّ أو لأقل الحبّ المضطرم، للمرة الأولى، باللون الأسود، عرفته قاتم اللون، داكناً ولكن على كثير من الرقة. كنت في العشرين عندما وجدت نفسـي في مدينة أفريقية اسـمها كنشاسـا. ولـم أكن أتصور أنني سـأقضي عاماً هناك، في هذا العالـم الأسـود، أنا الشـاب المراهق الـذي كان حينـذاك، غـداة انـدلاع الحـرب، مضطرباً وخائفاً على مصيـر، ليـس مصيـره الشـخصي ولا مصيـر العائلة أو الأرض أو الوطـن... علـى مصيـر لـم يكـن قادراً علـى تحديده. كنت أملك ماضياً فقط، الماضي الذي عبر سهواً، دون انتباه. أما الحاضر فلم يكن واضحاً ولا أكيداً. كنت قد "هجرت" الوطن، أو فررت منه، بعدما بلغت الحرب أوْجها ولم تبق الحياة ممكنة هناك. سافرت الى باريس ومن ثم الى أفريقيا، بعدما فشلت في العيش وحيداً، في هذه المدينة الرهيبة التي ألفيتها قاسـية، أقسـى مما تصوّرت، أنـا القـادم مـن عالـم الضواحي، ضواحي مدينتنـا والعالم. كانت أفريقيا البلاد التي سرعان ما وجدت نفسي فيها، مع أنني أصبت لوهلة، بحيرة شـديدة عندما نزلت سـلّم الطائرة ووجدت أن كلّ الوجـوه فـي أرض المطـار سـوداء. لا أنسـى تلـك اللحظـة بتاتاً.

تجد نفسك فجأة في عالم من الوجوه السوداء، أنت الغارق في بياض ذاكرتك. كانت المرّة الأولى أكتشف فيها أنّ العالم ليس أبيض بل هو أسود أيضاً، أسود كما لم يكن مرّةً، علماً أنني كنت قرأت في كتب الجغرافيا أيام الدراسة عن أفريقيا السوداء والصين الصفراء والهنود الحمر... لكنّ المشهد كان مفاجئاً وخامرني في اللحظة الأولى شعور عميق بالغربة، حتى أنني سألت نفسي ماذا جئت أفعل هنا. هذا الشعور ما لبث أن تلاشى بعد بضعة أيام عندما رحت أكتشف جمال هذا العالم المجهول، بشمسه الحارقة ومناظره غير المألوفة ولطافة ناسه الذين لم أكن عرفتهم من قبل. أتذكّر هذه اللحظات التي كانت بمثابة العتبة التي دخلت عبرها هذا العالم الجديد، العالم الأسود، الذي سمّيته عالم الليل مع أن شمسه الساطعة تنشر في القلب نوراً حارقاً لطالما انتظرته.

أذكر كيف دُهشتْ تلك الفتاة حين قلت لها: عندما ألمسكِ أشعر أنني ألمس الليل. لكنها سرعان ما ابتسمت ونظرت الى جسمها العاري. كانت المرّة الأولى أجد نفسي وحيداً مع فتاة عارية - لأقل امرأة عارية - وجهاً لوجه، بل جسداً لجسد في غرفة لنا وحدنا، وعلى سرير لنا وحدنا أيضاً. كانت أول فتاة سوداء أخلو بها، ومعها أكتشف الجنس - لن أقول الحبّ - في حالٍ من الاضطرام لم آلفها من قبل. لم يكن الجنس من قبل أكثر من لحظات سريعة وعابرة نقضيها مع فتيات الهوى كما تسمّيهنّ اللغة العربية أو المومسات - يا لهذه الكلمة - أو بائعات اللذّة، ولم نكن ندرك معنى الفعل الجنسي كما يجب. كنا نأتي الى أحد البارات خلال مطلع الحرب، زمرة من أربعة

أو خمسة مراهقين، ساعين وراء المتعة ومتباهين برجولتنا الطرية بعد فترة من إدمان العادة السرية التي كانت تنقلنا الى مناخ من الأحلام والرغبات الحرّة متيحةً لنا أن نضاجع بالوهم الفتيات اللواتي كنا عاجزين عن الوصول إليهنّ. لم نكن نأتي فرادى. كنا نشعر عندما نأتي معاً بمقدار من الطمأنينة، وكأنّ ما سنقدم عليه لا يخلو من المجازفة. وأذكر كيف أنني رحت أرتجف عندما أدخلتني الفتاة - أو المرأة - مضجعها وخلعت فستانها أمامي ثم كيلوتها ولم تمدّ يدها الى السوتيان، ثم تمدّدت على السرير فاتحةً فخذيها. ولم يكن أمامي إلا أن أخلع بنطالي والكيلوت وأتقدم إليها وأضطجع فوقها... ولم تمضِ ثوانٍ حتى راحت تصرخ بالعامية: "جويتني، جويتني"، والتقطت محارم من علبة قرب السرير وراحت تمسح السائل اللزج الأبيض الذي اندفق مني في لحظة الهياج الشديد. وأخذت تتذمر ونهضت من السرير ودخلت الحمّام لتغتسل. عندما خرجت لم تلفظ كلمة، نظرت إليّ بشفقة وابتسمت، ثم سألتني: كم عمرك؟ لم أجب. قالت: ليس مسموحاً لكَ أكثر من مرّة وأنت كنت سريعاً وقذفت قبل أن يدخل عضوك فرجي - طبعاً لم تقل "عضو" أو "فرج" بل ما يوازيهما في العامية - وليس الذنب ذنبي. وقد وسّختني. ناولتها أجرها، لم أعد أذكر كم وخرجت والعرق يتصبّب منّي. ولم يكن عليّ إلا أن أتباهى أمام رفاقي ولو تصنّعاً، فهي مضاجعتي الأولى وقد خرجت منها منتصراً - ظاهراً - وشبه مهزوم - سرّاً -. وأعتقد أن معظم أصدقائي عاشوا تلك اللحظة ولم يبوحوا بها. فبعد نحو أسبوع راح أحد الأصدقاء يقترح على الشلّة

فكـرة طريفـة جـداً لـم نـدرِ مـن أيـن أتى بها. قـال: علينا قبل أن نذهب الى البار، أن نستمني، فالاستمناء يمدّ من لحظة الجنس ويؤخر القذف، ما يجعلنا نتمتع أكثر. هذه الفكرة لم أطبّقها، مع أنني ظللت أتردد على هذا البار الذي كان شهيراً في منطقتنا خلال الحرب، وكان يُسمّى "بار السفن آب" لقربه من مصنع المشروبات الغازية الشهير. لكنني لم أنسَ البتة تلك المضاجعة الأولى التي خرجت منها شبه منتصر وشبه مهزوم في آن واحد. ولا أنسى أيضاً تلك الفتاة السمينة البيضاء الجسم التي كانت أول أرض أزرع فيها حرثي - كما يقال - وأرفع عليها رايتي الحمراء. غير أننا لم ننقطع عن الاستنماء، هذه اللذة التي وُصفت بـ "السرية"، ولعلّها أجمل صفة يمكن أن تُطلقَ عليها، ليس لأنها تتمّ بالسرّ فقط بل لأنها كانت تسمح لنا أن نضاجع بالسرّ ووحدنا، ما شئنا من فتيات أو نسوة ومن ممثلات نشاهد صورهن عاريات في المجلات الخلاعية التي كنا نتبادلها بالسرّ أيضاً. ولم تردعنا يوماً وصية الكاهن التي تحرّم هذا الفعل ولا تهديده إيانا بجهنم، مملكة الخاطئين. وأذكر أيضاً كيف كان أساتذتنا ينهوننا عن هذا الاستمناء السرّي، وكان يحلو لأستاذ العربية، المحافظ والمترفّع عن الصغائر، أن يسمّي الاستمناء "جلد عميرة" ويردّد أمامنا: إياكم وجلد عميرة. ولئن فهمنا أن هذه العبارة تعني العادة السرية فنحن لم نعرف يوماً مَن هي عميرة التي تُجلَد وإذا كانت امرأة أو...

وأطرف ما أذكر أنّ كان لنا صديق نجلبه بالقوّة معنا الى هذه الحانة. كان هو يتردّد دوماً في مرافقتنا في رحلتنا "الجنسية"

هـذه، لكنّـه عندمـا يدخـل، كان سـرعان ما يجلس الى طاولة في غرفة الاستقبال ويطلب كأس بيرة. ويروح ينظر إلينا كيف نجول علـى الفتيـات الواقفـات وراء البـار، نتحـدث إليهنّ ثم يختار كلّ منا الفتاة التي تثيره وتشـعل غريزته من نظرتها الأولى. لم يكن صديقنا يجرؤ على النظر الى الفتيات وجهاً لوجه. هذا ما لحظته فـي المـرات القليلـة التـي رافقنـا فيها إلـى الحانة تلك. كان ينظر إلينا ويبتسم، مستغرباً ما نفعل.

كان هذا الفتى شديد الأنوثة، بصوته وحركاته. وكان البعض يروّج عنه أنّه "مثليّ" وأنه يهوى الذكور، لكنّ علاقتنا، ظلّت وقفاً على الصداقة ولم تتخطّها. ولا أعتقد أنّ أحداً من "الزمرة" أحبّه أو مارس الجنس معه. كان هو من زمرتنا في الحيّ، مع أن طبعه يختلف عن طبائعنا. كان مهذباً جداً ومرهفاً، طويل الشعر، أشقره، يسـرّحه علـى طريقتـه الأنثويـة، يرتـدي الثيـاب الخفيفـة ويهوى البناطيـل القصيـرة التـي تُظهر سـاقيه الناعمتين، بوبرهما الأشـقر الخفيف. وأذكر كيف كان يهوى الرقص في الأمسيات التي كنا نلتقي فيها أيام العطلة، ندير الموسـيقى ونتجمّع، فتياناً وفتيات، نلهـو ونضحـك ونرقـص. وكان هذا الصديق نجم السـهرة غالباً، فهو يجيد الرقص الشـرقيّ ويهواه كثيراً. كان يلفّ خصره بشـالٍ ثم يروح يحرّك وركيه على وقع الموسيقى وأغنيات أم كلثوم. كان يرقـص بجسـده كلّـه، ويهزّ صـدره الأملس مقلّداً الراقصات الناهضـات النهـود. فـي تلـك اللحظـات كان يكسـر جليد خجله مستسـلماً لهوايته هذه، منتشـياً، يغمض عينيه ويفتحهما، متأوّهاً ومطلقاً بضع تنهدات. كان إحساسـه بجسـده في تلك اللحظات

شـفيفاً، يرقـص بخفّـة حتـى ليغـدو هـذا الجسـد كأنّـه مقطوعـة موسيقية.

كان صديقـي هـذا وحيـداً أو لأقـل شـبه وحيـد. كانـت لـه شـقيقتان، لكنـه فقدهمـا عشـية انـدلاع المعـارك في السـبعينات، ولعلها المعارك التي مهّدت للحرب لاحقاً. أطلق أحد المسلّحين النار عليهما خطأ عندما اجتازتا بالسيارة حاجزاً لم تنتبها له في الظـلام. رصاصـة واحـدة اخترقـت رأسـيهما وقتلتهمـا معـاً. لـم تكن بدأت الحرب حينذاك، لكنّ المسـلّحين كانوا ينتشـرون في الأحيـاء المتاخمـة لمـا سـمّي لاحقـاً خطّ التمـاس. وكان هؤلاء يقيمون الحواجز في الليل ويختفون في الصبح كالأشـباح. كان جوّ الحرب بدأ يرين على البلاد وراحت تلتمع في الأفق بروق نـار لـم تلبـث أن اندلعـت. قُتلت الشـقيقتان علـى حاجز "أهلي" في البلدة وكانتا في طليعة قافلة "الشـهداء" التي لم تكن تنتهي طوال الحرب بفصولها المتعاقبة. لكنهما كانتا شهيدتين بلا قضية. فتاتان جميلتان سقطتا في غير أوانهما، وقد فُجع أهل الحيّ بهما وصُدمت رفيقاتهما والأمهات. حتى نحن الصبية الصغار شعرنا بخوف شديد لم يفارقني طوال أسبوع.

لم يكن صديقي وحيداً، كان له أشقاء آخرون يكبرونه أعواماً، لكنّهم ما كانوا يقطنون منزل العائلة. ومنذ أن قُتلت شقيقتاه شعر أنّـه أصبـح وحيـداً مـع أمـه. كان البيت له، كان بيته، أمّه تحيا في الظـلّ، تصلّـي وتبكـي. وكان هـو يخبرنـا أنها كانـت تصلّي دوماً لاعتقادهـا أن الصـلاة تجعلهـا تبصـر فتاتيهـا. ولا أدري إن كانت شاهدتهما. كانت الأم على حداد دائم، لكنها لم تحرم ابنها من

حياة اللهو واللعب. وكان يحلو له دوماً أن يلعب مع فتيات الحيّ اللواتي كنّ يسمحن له وحده أن يخالطهنّ كثيراً. أما نحن فلا. كان يخيط لهنّ الثياب ويصنع الزينة، وكانت ألعابه المفضلة هي المقص والإبرة وأحمر الشفاه... وكان في أحيان يرتدي تنّورة وقميصاً بلا كمّين، مسرّحاً شعره كفتاة، شفتاه حمراوان... وكم كنّا نضحك عند مرآه، وكان هو يزداد غنجاً، ويمشي منتعلاً حذاء فتاة، وفي يده حقيبة صغيرة. كنا نمرح كثيراً ونلهو، ولم يخطر في بالنا أن صديقنا لن يغادر هذه الصورة التي راح يصنعها لنفسه، عن نفسه. لكنّنا عندما قاربنا سنيّ المراهقة، تخلّى عن عاداته تلك، ورمى قناع تلك الفتاة الذي لازمه صغيراً ولكن دون أن يتخلّى عن أنوثته التي كانت ماثلة في وجهه وحركاته. ولم تكن أمه تؤنّبه على عادته هذه، ربّما لشعور غامض كان يخامرها في الداخل، هي التي افتقدت ابنتيها بحضورهما اليومي اللطيف.

صديقي هذا، لم أسمح لنفسي يوماً أن أعدّه مثلياً أو مخنثاً كما كانوا يقولون. ظل صديقي، حتى افترقنا بعد أعوام، حتى افترقت تلك "الشلّة"، ولم يبقَ منها إلا ذكريات كأنّها بعيدة، بعيدة جداً. كنا نحن كلما كبرنا نزداد خشونة أما هو فيزداد رقّة. الآن لا أعلم أين أصبح. هل أصبح راقصاً أم أنّه ما زال يعيش حياته وكأنها هواية لا يمكن احترافها؟

تذكرت تلك الأيام في الليلة الحمراء الأولى التي قضيتها مع فتاة سوداء. كانت رقيقة جداً وعذبة. جلدها يلمع بسواده وأسنانها تبرق في الظلام. كانت هذه الفتاة أول امرأة أضاجعها بمثل هذه اللذة التي لم أنسها، وقد تمكنت معها من فعل الحبّ

كما يجب، وولجتها كرجل واستجابت واستجبت وأخذتنا النشوة ورَمَت بنا وراء تخوم الليل. رسمت تلك الفتاة بجسدها المشتعل خطـاً يفصـل بيـن الفتـى وماضيـه، ماضي الاسـتمناء الذي طالما تخبّط في أوهامه، تلك التي من غبطة ونشوة عابرتين. هناك على أطراف هذا الجسـد المعتم، المشـرق مثل زنبقة سـوداء، انطفأت شـعلة الاسـتمناء الذي كان نجمة الماضي، هناك اكتشـفت للمرّة الأولى كيف يختلف لون الرعشـة عندما يصبح الاسـتمناء فعل حـبّ بالجسـد لا بالـرأس. لقـد كبـر الفتى منـذ تلك الليلة وبات ينظر الى نفسه وكأنه أصبح شخصاً آخر.

لـم يكـن مضـى عامـان علـى اندلاع الحرب عندما سـافرتُ الـى أفريقيـا، هـذه البـلاد الجميلة التي اكتشـفت فيها الجنس كما لـو كان غريـزة مشـبعة وأعمـق. هنـاك تعلّمت هـذا الفنّ وتلقنت أصـول المتعـة، وغـدوت مثـل حيوان صغير نهم الى المضاجعة، جائع الى تلك الأجساد الرهيبة، السوداء أو السمراء أحياناً، الندية والصلبة. شعرت فعلاً هناك أنّ الجنس فعل حبّ مثلما هو فعل غريزة، وكنت أمارسـه بحرية وحينما أشـاء ومع أي فتاة عابرة. كانت الفتيات يكتفين بهدايا صغيرة أو بعض المال - كهدية - وكان همّهنّ أن يقضين وقتاً جميلاً مع شاب غريب، ولن أقول أبيض، لأنني كنت أشـعر أنني فتى أسـود، وأن عليّ أن أكتشـف جذوري السوداء هناك، في تلك البلاد التي أحببتها وأحببت كل ما فيها، الشمس والصباح والنهر والغابة... والفتيات اللواتي كنّ يخفيـن فـي عمـق مآقيهـنّ بؤسـاً يشـبه البؤس الخبـيء فيّ. هناك اكتشـفت الجنس وهناك أشـبعت الجوع الذي كثيراً ما عرفته في

فترة المراهقة، ووجدت نفسي رجلاً، رجلاً أسود، رجلاً يتهيّأ له أنه كان أسود في ماضٍ لا يذكره. وما زلت أذكر كيف أنني، قبل شهر من مغادرتي تلك البلاد، التي لم أستطع أن أصبح فيها رجلاً أسود ولا أن أبقى فيها رجلاً أبيض، وقعت في حبّ فتاة صغيرة، في الثانية عشرة. أحببتها بشدّة وتألمت لدى فراقنا، مع أنني خنتها مرّةً. كانت بالغة على رغم صغرها، وجهها لا أنساه ولا صدرها ولا حوضها ولا... أحببتها وتألمت كثيراً لأنني خنتها ولأنها تألمت لأنني خنتها. وأظن أنني لو بقيت هناك، لما تردّدت عن الاقتران بها لأنني أحببتها ولأنها كانت حبّي الأول هناك، حبّي الأسود الأول بعد أن أشبعت غرائزي وخرجت من أسر الحيوان الذي فيّ. كانت تلك الفتاة وجهاً من وجوه الليل الجميل، الليل الراقد في الأعماق التي لا قعر لها، الليل الذي أوقظه أحياناً بالسرّ لأشمّ رائحة جلدها، جلدها الأكثر سطوعاً من شمسنا.

هذا الليل الذي فتنت به وما برحت، ليل الجسد الأسود، لم يكن قطعاً ليل جارنا الأعمى الذي وُلد أعمى وعاش وتزوّج وأنجب وعيناه مغمضتان. وكان يدهشنا أن عينيه كانتا بيضاوين وكنا ننظر اليهما برهبة متحلّقين حوله وهو يسمّينا واحداً واحداً من غير أن يبصرنا. لم نكن نجرؤ أن نسأله عمّا يبصر، أو عمّا لا يبصر وراء عينيه المغمضتين، لكننا كنا نعلم أن ليله طويل، أطول من دهر، وأن نهاره انقلب عتمةً. وكنا نحار كيف أنه ينظر الى مَن يحدّثه وكأنه يبصره. وكان يلتفت الى مَن يناديه حيثما كان، مقتفياً أثره بالسمع. وما كان يدهشنا أيضاً أنه كان يعلم متى يشرق الصباح أو تحلّ الظهيرة ومتى ينزل المساء وكأنّ أمام عينيه ساعة، وحده يبصر عقاربها.

كان ليل جارنا من المعالم الأولى لليل التي رحت أكتشفها سنةً تلو سنة. ليله الرهيب الذي لا تنسحب ظلمته، الليل الذي يغمره كما يغمر الماء غريقاً. ليل الأعمى، لا أحد يستطيع أن يتصوّر كيف، لا أحد يقدر على سبر أغواره.

عندما توفي جارنا الأعمى ساءلت نفسي طويلاً إن كان قد انتقل من ظلام الى ظلام، أم الى ضوء، هو ضوء الأبد. وكان يُهيّأ لي أن ظلمة القبر لن يكون لها أثر فيه ما دام عاش هذه الظلمة حياً. وقد تكون ظلمة مثواه الأخير أقل ظلامةً من ليل

حياته، عندما كان حياً وميتاً أو شبه حي وشبه ميت في الحين عينه. وكم كنت أودّ أن أسأله إن كان يبصر أخيلة كما يقال عن العميان، وإن كان يحلم وكيف، هل يبصر صوراً ذات ألوان هو الذي لم يعرف سوى السواد الذي من حوله أم أن أحلامه كانت بالأسود والأبيض مثل شاشة التلفزيون حينذاك. لا أذكر أنني جرؤت على طرح مثل هذه الأسئلة عليه خوفاً من أن نجرحه أو من أن يستغرب فكرة الحلم، هو الذي لم يبصر العالم يوماً. وخشيت أيضاً أن أسأله كيف يحب الأعمى، وكيف يهتاج وكيف يحس المرأة بين يديه. وكنت أتخيله يبصرها بحواسه الأخرى، يشمّها ويلمسها ويحترقان معاً في عتمة نشوتهما البارقة. وكنت كلما أبصره يخفي عينيه وراء نظّارتين سوداوين أتذكّر صورة طه حسين وأسأل نفسي: ألا يكفي الأعمى سواد واحد حتى يلجأ إلى سواد نظّارتيه؟ إلاّ أنني عندما أبصرته مرةً يغسل وجهه، خفتُ من منظر عينيه المطفأتين اللتين بدتا كأنهما مشوّهتان. وفهمت حينذاك لماذا يُخفي العميان عيونهم بالزجاج الأسود.

أتذكر ليل جارنا وأتذكّر كيف أنني شعرت في إحدى حالات الكآبة الشديدة والصمّاء أنني أغرق في ليل لا قرار له ولا نهاية ولا حتى نافذة صغيرة. كان الليل يحلّ بي أو كان يصعد من الداخل بالأحرى، من حفرة خفية في الداخل. كانت تلك الفترة مشوبة بحالٍ من الاضطراب النفسيّ الذي يسمّى "انهياراً عصبياً". أصبح كلّ شيء حالكاً من حولي. حتى الظهيرة كنت أحسّها قاتمة وكذلك ضوء النهار. وكنت إذا نظرت الى الشمس أخالها متوارية خلف ضباب يتصاعد من عينيّ. لا أدري كيف حلّ بي ذاك

الاضطراب أو لأقل ذاك الاكتئاب أو الكآبة الصمّاء. هكذا خلال أيام قليلة أدركت أنني أصبحت على شفا هاوية كنت أبصرها أينما نظرت، أبصرها من غير أن أراها، كانت أمامي كما كانت ورائي، هاوية من غيم وعتمة وظلال. إنها المرّة الأولى يبلغ المزاج هذا الحد من الاعتكار. مزاج سوداوي مثل الماء عندما يأسن. قلق لا سبب له، عجز يضرب في عمق الروح، شلل ورغبة في الامحاء وليس في الموت فحسب. شعور مأسوي بالعالم، بالذات والجسد. أرقٌ أو نوم ليس هو بالنوم، شيخوخة تنقصها التجاعيد ووجه كالح عاجز عن رسم ابتسامة ولو صغيرة. كنت أخال وجهي تملأه الغضون، غضون لا أراها في المرآة عندما أنظر اليها، لأنها أعمق من أن تخرج الى الضوء، وكنت في أحيان أمرّ بيدي على وجهي لأتيقن أن لا غضون فيه.

لم تكن حال هذا الشاب الذي تخطى الثلاثين حينذاك، تنبئ بمثل هذا الاكتئاب. حياة كانت تبدو كأنها جميلة على رغم خيباتها الصغيرة وأحزانها وكسورها الجارحة والقلق الذي كان ينتابها، حيناً تلو حين. حبٌّ وحبّ وإقبالٌ نهم على العيش... ثمّ وجدت نفسي أمام تلك الهاوية. وراحت الهاوية تتسع جارفة الحياة كلّها. كان يهيأ إليّ أنني أحيا كجثة، كجثة حية، تتألم وتنزف. كنت أتخيل نفسي كالحشرة في قصة كافكا، شخصاً ضئيلاً متضائلاً مثل قشة في الريح. حتى الرغبة في الكلام فقدتها وفقدت في أحيان القدرة على الكلام. وقعت في شباك الصمت الذي راح يمسي خرساً. لم يكن صمتاً هذا الانقطاع عن الكلام ولم يحمل معنى الصمت أو ضوضاءه الخافتة بل كان خرساً،

خرساً أبكم وأصمّ... رحت أشـكّ في كلّ ما من حولي: الله، التاريخ، العالم... رحت أشكّ في نفسي، أنا الكائن الذي كان ولم يبق. فقدت معناي، معنى الذات الكامنة فيّ وأصبحت كتلة من ظلام وألم. كنت الحداد نفسه ومَن يعلن الحداد على نفسه قبل أن يعلنه على العالم. لم أبلغ مرّةً ذروة اليأس التي بلغتها حينذاك والتي منها أطللت على الناحية الأخرى من الحياة التي كانت هي الموت نفسه. الجحيم أنا، وظلام الجحيم. أدركت حينذاك أن جهنم ليست من نار بل من ظلمة، ظلمة خاوية وحارقة، ظلمة دبقة ونتنة. كنت أظنني أبكي وأنّ العينين تبتلعان الدموع عوض أن تلفظاها. كنت أبتلع الدموع التي لم تكن تسقط من شدّة ثقلها. لم أكن أعيش هذه الحياة التي أسمّيها حياتي، كنت أعيش غيابها، أعيش موتها، أعيش حياة لا تعاش، "حياة تتعب روحي" كما قال فرناندو بيسوا، الصديق الذي لا أعرفه. لم أكن أرغب في النهوض من السرير مع أنني لم أكن قادراً على النوم. أرقٌ ثم أرقٌ الى أن يشرق أول الضوء، في الخارج، خارج النافذة. أرقٌ لم تكن تكسره سوى الحبّات المنوّمة التي من كثرة ما أدمنتها لم تعد تفعل بي فعلها. لم أعد أذكر أنواع تلك الحبوب ولا ألوانها. كانت في السابق تمنحني نوماً أحتاجه ولو مصطنعاً. فالأرق أصعب ما يمكن أن يمتحنه الشخص. الأرق محنة لا يسهل الخروج منها. كنت في تلك الساعات أصبح شخصاً آخر، شخصاً عاجزاً عن إغماض عينيه، عاجزاً عن فعل أي شيء، حتى عن السهر أو الوقوف أو البقاء في السرير. كنت أشعر أنني أشبه بذئب يعوي في صحراء مقفرة. فهمت حينذاك ما كان يكتبه الفيلسوف الروماني

سيوران الذي عاش وحيداً في باريس، عن الأرق الذي يقضي على الليل والنهار معاً. فهمت أيضاً ما كتبه فرناندو بيسوا عن النوم الذي فرّ منه سارقاً معه الإنسان الذي فيه.

عندما قالت لي الطبيبة أنني مصاب بما يُسمّى "انهياراً عصبياً" شعرت بحال من الاضطراب، وعندما لاحظت اضطرابي ابتسمت وقالت لا تخف. كانت تظن قبلاً أن حالتي عارضة ولا تحتاج إلا الى دواء خفيف يهدئ من أحوال التوتر والأسى. وكانت سألتني إن كنت أصاب في الصغر أو اليفاع بحالات من الكآبة أو إن كنت أنطوي على نفسي. وأجبتها: نعم. واستعدت في تلك اللحظات صورة الفتى الذي كان أنا، الذي كان يضطرب من غير أن يعلم لماذا، الذي كانت تغيم عيناه، الذي كان يأخذه الخوف مما لا يعلم، الذي كان يتألم عندما تنتابه الهواجس... لكنّ هذه المخاوف لم تكن تحول دون أن يعيش هذا الفتى حياته طفلاً ومراهقاً، بحريّة وحبور. وعندما أخبرت الطبيبة بعد شهر من العلاج اللامجدي أنني أفقد الرغبة في الحياة أكثر فأكثر، وفي الأكل والمتعة أو لأقل الجنس، وأنني بتّ شديد الأرق، قرّرت أن ما أعانيه هو "الانهيار العصبي". لكنها كانت متفائلة، فهذا "الانهيار" المزعوم كان في بدايته، وكان راقداً في الداخل طوال أعوام. وفي نظرها أن الدواء الذي ستصفه لي يخلّصني من هذا "الانهيار" خلال أسابيع قليلة. وفعلاً لم يمضِ شهر حتى انقشعت عن عينيّ تلك الغشاوة وغربت تلك "الشمس السوداء" ورحت أستعيد أنفاسي عائداً الى الحياة التي هجرتها، من غير أن أتوقف عن تناول تلك الحبوب التي تقاوم الاكتئاب والتي

ما فتئت أتناولها كلّما عاودتني الكآبة ولو خفيفة. تصبح هذه الحبوب قَدَر مَن تنقذه. وهذا كان أيضاً قَدَر أصدقاء عبروا التجربة نفسها. لقد اختفى الألم الذي لا يوصف، الذي يفوق الوصف، الألم الغامض الذي لا حدود له، الألم الذي في الروح كما في الجسد أو اللاجسد. لقد اختفى هذا الألم الذي يفوق الألم، الألم الذي كان يسري في الجهات كلها، الذي كان يخفق مثل القلب ويرفّ مثل الجفن ويجرح كالشوك من غير أن يُسيل قطرة دم. لقد تلاشى هذا الألم الغامض، لكنّ أثره لم يفارق تلك الجهة اللامرئية من الكائن الذي هو أنا. إنها ندبته، تلك التي أحملها في العينين أو الروح ولا أحد يبصرها.

كنت أكره عبارة "الانهيار العصبي"، لم أقتنع بها حتى بعدما نهضت منه. كنت أتخيّل الشخص الذي هو أنا قد انهار أو تداعى مثل بناء قديم. كنت أشعر أنني أشبه بخرائب مهجورة تنتهب الغربان سكينتها في الليل. سألت الطبيبة عن سرّ هذه التسمية، فقالت لي إن الكلمة بالفرنسية أو الانكليزية مطابقة تماماً للحالة التي تعبّر عنها، أما بالعربية فلا. وراحت تشرح لي. إنها العبارة العربية إذاً بقسوتها، وقد أثارت من الخوف ما أثارت في نفوس "المنهارين" أنفسهم، لا سيّما الفتيات اللواتي كن يخجلن أصلاً من زيارة طبيب نفسي خوفاً من أي إشاعة. وهذه الزيارة ما زالت تثير حفيظة الفتاة "المنهارة" وأهلها، فتتم غالباً بالسرّ. وهذا ما حصل مع صديقة لي ظلّت تصرّ مع أهلها على عدم الذهاب الى الطبيب النفسي، حتى انهارت كلياً ولم تعد قادرة على النهوض من السرير. إنها العبارة العربية نفسها التي قد تكون ببلاغتها القبيحة أقوى من أي مفردة أخرى،

حتى أن الكثر من "المنهارين" ما كانوا يستخدمونها مؤثرين التعبير الفرنسي (ديبرسيون) أو الانكليزي (ديبرشين). لا أدري لماذا لم ترج كلمة "اكتئاب" بدلاً من "الانهيار" أو كلمة كآبة أو إنحطاط أو إعياء. إنها أشد لطافة وأسهل لفظاً وذات بعد وجداني. أما أنا فكنت أفضل كلمة "سويداء" التي استعرتها من شاعر "أزهار الشرّ" الذي خبرها جيداً وجمع بينها وبين السأم، "سأم باريس" الذي لم يكن سوى سأمه هو، سأمه الذي لا حدّ له. أما المصادفة الغريبة التي فاجأتني عندما رحت أبحث عن معنى "السويداء" فهي تماثلها مع كلمة "السوداء" ولو تصغيراً. والسوداء أو السويداء في العربية نوع من الأخلاط، مقرّه في الطحال وهو أخبث الأخلاط وأعصاها للعلاج. وهي أيضاً مرض "الماليخوليا" الذي كان يوصف عربياً بـ "فساد الفكر". أما السوداء أو "المُرّة السوداء" بالفرنسية مثلاً فهي مادة يفرزها الكبد في لحظة الاضطراب، وكان أرسطو جعلها مجازاً يفصح عن طبيعة الفيلسوف، صاحب "العقل الكبير"، ولم يجد فيها مرضاً بل الروح الحقة الكامنة داخل هذا "العقل". أما الطبيبة فسمّت لي مادّة في الرأس تدعى "سيروتونين" قائلة إنها أصل العلّة.

وأذكر أنني عندما كانت تفتك بي السويداء، تفتك بي، أجل، تحلّ ستارة سوداء أمام عينيّ تفصل بيني وبين العالم. يا لهذا الظلام، من أين يسقط؟ حتى الظهيرة في أوجها تمسي كالحة، أما الصباح فلم يكن يشرق. الضوء في الخارج فقط، إنه ضوء العالم الذي لم أعد أنتمي اليه، مع أنني هنا، في الغرفة حائراً، أو على الطريق أمشي الى حيث لا أدري، أمشي فقط، هرباً من

نفسي المترامية كالظل، التي تتبعني منهكة. هذا الظلام الروحي قرأت عنه، أجمل وربما أقسى ما قرأت، في الكتاب الذي وضعه الروائي وليم ستايرون عن انهياره النفسي وعنوانه "في مواجهة الظلمات". في هذا الكتاب القاسي برقّته وجدت ما يطابق الأحوال التي عشتها، طوال تلك الأيام، فقداً أو خسراناً، حداداً وصمتاً ومواجهةً لما لا يُسمّى، لما لا يوصف. كان ستايرون يناهز الستين عندما حلّ به هذا الاكتئاب أما أنا ففي الثلاثين. ولو لم يكتب هذا الكتاب لكان انتهى منتحراً بعدما غرق في الإدمان، إدمان الكحول والحبوب المنوّمة.

ولطالما سألت نفسي لماذا أصبت بهذا المرض الروحي، الاكتئاب، في الثلاثين من العمر وليس في الأربعين، العام الذي، كما يقال، يفصل بين ضفّتَي الحياة. وأذكر كم أخافتني محنة الأربعين عندما يبدأ المرء يكتشف وحدته فصلاً تلو فصل، شاعراً أن مركبه المتوهّم بدأ يعبر من مشرق الحياة الى مغربها، من حديقة الربيع الى غابة الخريف الصفراء. ويروح يبدأ في محاسبة نفسه، ماذا فعل وماذا لم يفعل، نادماً ومتحسّراً على فقدانه الحلم بحياة أجمل. بماذا يحلم رجل في الأربعين؟ بماذا يأمل؟ الحياة أصبحت وراءه وليس أمامه إلا نهايتها، بداية نهايتها. لكنّ الرجل في الأربعين يظل قادراً على أن يصنع أحلامه اليقِظة أو أحلام يقظته، يركّبها كما يحلو له. الرجل في الأربعين لا يبقى له أصلاً سوى حلم يقظته الذي يبصره وعيناه مفتوحتان. كتب صديقي الشاعر قصيدة رهيبة عن الأربعين، وبدا كأنه يرثي نفسه فيها، بأسى ميتافيزيقي. وما كاد يجتاز الخمسين حتى رحل مثل "الرجل الذي كان يحب

الكناري"، الرجل الذي كان أباه وربما كان هو نفسه.

كنت قد اجتزت الثلاثين للتوّ لكنني كنت أشعر أنني في الأربعين وربّما في الخمسين. كنت كأنني أستبق الزمن ولكن في انحداره نحو المجهول. يقال اليوم إن الأربعين ما عادت توصف بالسنّ المتقدّمة وأن فترة الشباب طالت وتكاد تبلغ عتبة الخمسين. لم آخذ بهذا القول إلا لاحقاً بعدما خرجت من تلك المحنة التي لم يغب أثرها بسهولة. وقد يكون أثرها أشدّ إيلاماً منها، لأنه يظل محفوراً في ناحية ما من الروح.

كنت في الثلاثين ولكن بمزاج شخص في الأربعين أو الخمسين، وبصورته وقلقه وعجزه عن الحياة. لم يكن الزمن حاضراً أصلاً، لم أكن أشعر به. ساعة الحائط ما كنت أنظر إليها، كأنها محطمة أو معطلة على جدار وهميّ. أوراق الروزنامة كانت تتكدّس ولم أكن أمدّ يدي لأنزعها. كنت لا أبالي بالأيام، تمرّ أو لا تمرّ، تسقط أو تتكدّس. كان الزمن جامداً مثل حجر من جليد، بارداً وخاوياً. زمن كأن لا علاقة له بالزمن الذي يحدث في الخارج، ليس خارج الغرفة أو النافذة، بل خارج هذه الذات الكامنة فيّ، التي هي أنا، الأنا الصرفة أو البحتة، التي غدت بلا ماضٍ.

كانت الثلاثون إحدى مراحل عمري الأشدّ إبهاماً. كنت فعلاً أشعر أنني شخص في رواية كتبها مجهول أو ربّما في رواية لم يكتبها أحد، رواية لم تجد مَن يكتبها. عندما قرأت "المحاكمة" شعرت بالخوف. لا أعلم لماذا هالني أن يكون بطلها جوزف. ك في الثلاثين وأن يكون كافكا في الثلاثين عندما كتبها. وكما تصوّرت هذا البطل الذي ليس ببطل والذي سيق في صباح

يـوم ميـلاده الثلاثيـن الـى المتاهـة تخيّلت أيضاً أنطـوان روكنتان في "الغثيان" وميرسـو في "الغريب". هذان البطلان المكسـوران كانا في الثلاثين. ومثلهما شعرت بالغثيان ولا جدوى الحياة أو عبثيتها. لكنني أخذت على ميرسو إصراره على عدم إلقاء نظرة علـى جثمـان أمـه، نظـرة هـي الأخيرة في هـذه الحياة التي كانت أخيرة في حسـبان هذا الشـاب الذي قُتل بالصدفة، الذي ارتكب بالصدفـة جريمـة مجانيـة. إنني شـخص عاطفـيّ، ولو كنت محلّ ميرسـو لمـا تـردّدت عـن إلقـاء نظـرة الـوداع الأخيـرة على الأم، بصمتها وجثمانها البارد.

فـي الثلاثيـن أخـذ الشـاب فـي روايـة "رجـل بـلا صفـات" "إجـازة" مـن الحيـاة، باكـرة جـداً. هـل يمكـن أن يأخذ شـخص "إجازة" من الحياة في الثلاثين كما فعل؟ أما شـخص مثلي في الثلاثيـن فـلا بـدّ لـه أن ينتبـه أنه صار في عمر المسـيح، المسـيح الذي عُلّق على خشبة وضُفر رأسه بإكليل من شوك وصرخ لحظة تسليمه الروح: "إلهي، إلهي، لماذا تركتني؟"، المسيح الذي قام من القبر بجسد من نور وظهر على مريم المجدلية. شخص مثلي يتذكر في هذا العمر يسوع الناصريّ الذي أنهى رسالته في الثالثة والثلاثين، في مقتبل ربيعه. ثم يتذكر لاحقاً، على عتبة الأربعين أنه أصبح أكبر من المسيح الذي سمّي "المعلّم" ورسم الطريق الـى الأبديـة. إلا أن صرخـة المسـيح لحظـة تسـليمه الروح على الصليب، لا يمكن تناسيها: "إلهي، إلهي لماذا تركتني؟". هل كان يعاتب أباه السماويّ على تركه إياه يتعذّب في لحظات احتضاره العظيم أم كان يستغيث مخاطباً الأب بصفته إبناً له؟ أتذكّر كيف

انحاز دوستويفسكي الى الابن في تلك اللحظات القاسية وكيف تأثر له حيال صمت الأب.

كانت هذه الصرخة تبعث فينا الحيرة، ولم نكن نجد أجوبة عن الأسئلة التي حفرتها فينا. هل كان يسوع إنساناً متألهاً أم إلهاً متجسّداً؟ هل كان نبياً أم متصوّفاً رفعه الله الى مرتبة البنوّة فتمّت عبره المصالحة بين الأرض والسماء؟ هل كان يسوع هو الله أم نوراً من أنواره؟ هل تألم على الصليب كإنسان أم كإله؟

كانت الأسئلة كثيرة وما برحت. وقد يكون السؤال جوهر الدين نفسه. هل من دين بلا سؤال؟ ماذا عن قبلة يهوذا التي أوقعت المسيح في أيدي الجنود وقادته الى الجلجلة؟ لماذا سمح المسيح المخلّص أن يقع تلميذه في هذه التجربة المريرة وينتهي به ندمه الى شنق نفسه؟ هل كان يحتاج فعلاً إلى مَن يسلّمه بثلاثين من الفضة كي يتمّ ما جاء في الكتب؟

لم تغادر صورة يهوذا الاسخريوطي مخيّلتنا! إنه التلميذ الأشدّ غموضاً بين التلامذة الإثني عشر، جاهره المسيح في العشاء السرّي بحقيقته ولم يثنه عن الاثم. تركه يقع في الاثم. ليست هذه من خصال المسيح الذي لم يكن من زاوية في قلبه للكراهية، هو الذي غفر لصالبيه في لحظة الألم الشديد ولم يحقد عليهم.

هل يمكن أيضاً تناسي مشهد حصد الأطفال بالمناجل غداة مولد يسوع؟ هذا المشهد من أقسى ما يمكن أن يتخيّله امرؤ يقرأ الأناجيل. هل كان يجب أن يُقتل هؤلاء الانقياء كي يتمّ أيضاً ما جاء في الكتب؟ لا اعتقد أن المسيح كان ليسمح بهذه المقتلة التي قام بها جنود الملك هيرودوس ليقضي على الطفل

يسوع الذي قالت الكتب إنه سيكون الملك. هرب يوسف ومريم بالطفل يسوع الى مصر وقتل الجنود كلّ الأطفال الذكور من أبناء السنتين وما دون... وما أقسى تلك النبوءة التي قالت: "صوت سُمع في الرامة، بكاء وعويل كثير. راحيل تبكي على بنيها وقد أبت أن تتعزّى لأنهم ليسوا في الوجود". هل كان يمكن أن تتم ولادة يسوع مخضّبةً بالدم النقي؟ ما كان يسوع ليقبل بما حصل، لكنها الكتب، كتب العهد القديم. وأذكر كم كان قاسياً مشهد هذه المقتلة في فيلم بازوليني "الانجيل بحسب مرقس" وكيف راح يسقط الأطفال تحت سيوف الجنود كالسنابل في الحصاد. لا أنسى هذا الفيلم البتة ولا أنسى فيه صورة مريم العجوز قرب الصليب، بوجهٍ تملأه الغضون وقامة تنوء بثقل السنين. كانت والدة بازوليني هي التي تؤدي دور مريم عند الجلجلة. شاءها هذا المخرج المهرطق أمّاً للمسيح المصلوب وكأنه ابنها المصلوب. كانت تلك المرّة الأولى أشاهد فيها صورة مريم أمّاً من لحم ودم، أمّاً عجوزاً تتألم وتبكي وتفوح من جسدها رائحة الأسى.

أذكر جيداً تلك الأوقات القاتمة عندما كانت تغرقني ظلمة ليست بظلمة الموت، أبصرها بخيوطها تنتشر من حولي، تنبثق من حفرة في الروح ثم تتسع. وكنت إذا بلغت لحظة الاختناق أقف أمام النافذة لأرنو الى البعيد أقصى ما أمكنني، أو أفتح الباب وأخرج من غير أن أقصد مكاناً. كان المشي وحده يكفي، المشي بلا وجهة ولا غاية. وكنت أجدني في أحيان وقد اجتزت مسافة طويلة لا أعرف كيف. كان المشي في تلك اللحظة قادراً على إنقاذي من الوقوع في هاوية أبصرها، هاوية الموت أو العدم،

كما يقال، وأمامها كنت أشعر بأن سقوطي حان مثل ثمرة أصابها العفن قبل أن تنضج.

كنت أعيش في تلك اللحظات فكرة الانتحار، لم أكن أفكر فيه، كنت أعيشه وربما كنت انتحره حيّاً، بالحياة نفسها. وكان هذا الانتحار أشدّ إيلاماً من الانتحار الحقيقي، رمياً بالرصاص أو ارتماءً من شرفة عالية أو قطعاً للأوردة أو... وكنت كلّ مرّة أشعر أنني عاجز عن قتل نفسي. كنت وما زلت جباناً أمام هذا الفعل، حتى عندما أتمنى الموت في أشدّ أحوالي اضطراباً أو انسحاقاً. كنت أشعر دوماً أنني عشت الانتحار وعيناي مفتوحتان، وأن قتل النفس لم يعد يجدي. لقد سبقت الانتحار في عيشي إياه وفي بلوغي ذروته. كنت حينذاك أكتشف لا جدواه أو عبثيته. لقد أصبح ورائي، أنا المتهوّر الجبان، المؤمن حتى اللحظة الأخيرة، ولو كان هذا الإيمان ثمرة مكابدة شخصية. لقد كنت روحاً بمقدار ما كان جسدي جسداً، ولطالما لمست ضوء تلك الروح في صميم الظلمة التي تلفّني. ليس الجسد الذي يتألم بل الروح، والجسد ليس إلا مرآة مغبّشة لها، مرآة لا تصفو إلا في أحايين قليلة يتخطى الجسد فيها جسديّته ليصبح نشيداً أو غيمة.

كنت أفتح الباب وأمشي، لم أكن قادراً على فعل شيء آخر. لم أكن قادراً حتى على القراءة، وكنت إذا نظرت الى كتاب تتلبّد عيناي، وإذا استمعت الى معزوفة موسيقية تضطرب دخيلائي. كان المشي أشبه بالهروب الى الأمام الذي لا وراء له، الأمام الذي لا يمكن الوصول اليه مهما طال المشي. كان المشي أشبه بالعزاء، أمشي ولا أفكر، الأفكار هي التي تفكّرني أو تفكّر عني،

وكنت أدعها تجوب رأسي لتحلّق من ثمّ كسرب من النوارس، سوداً وبيضاً. أنظر من حولي بعينين غائمتين ولا أبصر، لا انتبه لما أنظر إليه. إنه المشي فقط، إنها الحياة تختصرها قدمان لا يحلّ بهما تعب، وعينان بنظرات مكسورة كمرآة سقطت للحين. وعندما كانت تهدأ العاصفة في الداخل وتنسحب من حيث هبّت فتحلّ سكينة عميقة، كنت أعود خطاي، أحدّق من حولي وكأنني أمشي هنا للمرة الأولى، كأنني لم اجتز هذه الطريق التي تتلوها طريق... وأمام الباب الذي أفتحه كنت أقول في نفسي إن عاصفة عبرت. كان المشي عملاً من أعمال الروح، ضرباً من الهيام أو التشراد ولم تكن له من غاية سوى المشي، سوى قتل الوحشة التي في القلب. لم أكن أتنزّه، كنت أمشي، أمشي لا لأكتشف الشوارع أو الأحياء بل لأكتشف نفسي. كأنني كنت أمشي في نفسي، في هذه الردهة التي تفضي الى أخرى فإلى أخرى... وكم كنت أحسّ نفسي غريباً في الأماكن التي أجوبها والتي يخيل إليّ أنني مشيتهاَ مسرنماً أو حالماً، لا أدري. كان يمكن أن أسمّى مشّاءً، لكنّ المشي لم يكن هواية آنذاك، مثلما أصبح لاحقاً، كان مشياً بذاته، مشياً لذاته، منغلقاً على نفسه أو مكتفياً بها. كنت أمشي فقط، قدماي تمشيان بي الى الجهات كلّها وإلى لا جهة. وأذكر كم أتاح لي المشي أن أكتشف وجهاً آخر للعالم. فالعالم الذي تجوبه على قدميك ليس العالم الذي تراه من وراء النافذة. المشي يمنح العالم فسحة أخرى، لا واقعية هي ولا متوهّمة. ربّما العالم نفسه يتغيّر عندما تنظر إليه ماشياً على قدميك، على القدمين اللتين تصنعان طريقهما إلى لا مكان. يصبح المشّاء شخصاً هائماً،

يسعى الى ما لا يعلم، يمشي فقط، يمشي ثم يمشي ثم... المشّاء شخص تائه، شخص أراد أن يكون تائهاً، شخص هارب من ظله، وظله وراءه دوماً حتى وإن تضاءل تحت شمس الأسى.

كنت أفتح الباب وأمشي، أمشي لئلا أختنق في الغرفة، أمام الطاولة أو وراء النافذة، أمشي لئلا أنتحر، أنا الجبان، لئلا أتخيّل نفسي منتحراً، لأنتحر وعيناي تنظران أقصى ما أمكنهما وقدماي ترسمان لي طريقاً إلى حيث لا أدري.

إلا أن فكرة الانتحار لم تكن تفارقني حتى عندما أضحت فيما بعد فكرة فلسفية، إن أمكنني القول، أنا الذي لم يكن يوماً بفيلسوف. أصبحت فكرة تشغل الرأس وليس القلب أو الوجدان والذات فحسب. وكان أكثر ما جعلني أتبناها كفكرة صاحب "الغريب"، هذا الكاتب الذي أحببته منذ أن كنت تلميذاً. وكان هو وجان بول سارتر شبه محظورين في المدرسة، والسبب الوحيد، على ما أذكر، أنهما يدفعان الجيل الفتي الى تبنّي فكرة الانتحار. هذا السبب الذي لم يحل بيننا وبين قراءتهما يوماً، لم أفهمه حتى الآن. ولا أنسى كم توقفت عند مستهل كتاب ألبير كامو "أسطورة سيزيف" والكلام الذي قاله عن الانتحار: "ليس إلا من مسألة فلسفية واحدة جادّة تماماً. الانتحار: الحكم على الحياة إن كانت أهلاً أو غير أهل لأن تعاش هو الجواب على السؤال الأساس للفلسفة". هذه المقولة لا أنساها، وقد جعلتني الصدفة يوماً أجد ما يماثلها لدى شاعر "أناشيد الليل"، الفيلسوف الألماني نوفاليس الذي غاب باكراً جداً، وهو يقول: "الفعل الفلسفي الحقيقي هو الانتحار، هكذا تكون البداية الحقيقية لكلّ فلسفة". وسألت

نفسي أهو صاحب "الغريب" اقتبسها عنه أم أنه مجرّد توارد في الخواطر؟ ولم أسع الى أيّ جواب ولم يكن يهمّني، ما دمت أحبّ الاثنين، وقد علّماني فعلاً كيف أفهم الانتحار بعد تجربة مريرة لم استوعبها ما يكفي.

ثم تبدّت لي فكرة الانتحار، أجمل ما تبدّت، أقولها بلا تردد، في صورة أوفيليا التي انتحرت غرقاً في النهر. لقد هزّني انتحارها مثلما هزّتني مأساة هاملت نفسه، وكنت أعيد قراءة هذا النص الرهيب، مرّة تلو مرّة، رغبة في تلمّس اللحظات الأليمة التي اختبرتها أوفيليا. وكنت أتخيلها تطفو على الماء بوجهها الملائكي وثوبها الأبيض الفضفاض وضفائرها المسدلة. هذه الصورة رسّختها في ذاكرتي قصيدة "أوفيليا" التي كتبها في ريعان الفتوة، رامبو، شاعر "فصل في الجحيم". كنت أتخيل كل فتاة تنتحر، أوفيليا أخرى، وكان الارتماء في النهر أجمل طريقة يمكن أن يُنتحَر بها. يضحي الماء سريراً وعلى صفحته يتمدد شخص، فاتحاً ذراعيه، ناظراً الى السماء بعينين مفتوحتين. تلك النظرة المكسورة الى السماء كانت أكثر ما يؤلمني. إنها الصرخة التي لم تسمعها السماء، وقد استحالت نظرة.

كنت في الثامنة عشرة عندما عشت عن كثب حادثة انتحار لا أنساها، ليس لأن الفتاة التي انتحرت كانت ابنة جيران لنا تربطنا بهم قرابة بعيدة، بل لأنها انتحرت لهواً أو خطأً. لم نعرف تماماً إن كانت شربت سمّاً أو دواء، كل ما نعرفه أن جسمها لم يحتمل ما شربته لتوهم أهلها بأنها حاولت الانتحار. كانت على ما أذكر، على خلافٍ مع أهلها، لم نعرف لماذا، وكانت الحرب في عامها الثاني، البطالة

في أوْجها والأمان مفقود والخوف يرين على الأفق، الخوف من الأيام المقبلة، من المجهول الذي هو الموت أو الهجرة... شربت الفتاة ابنة السابعة عشرة ذاك السمّ مهدِّدةً أهلها، لكنّ السمّ كان أقوى من تلك الحيلة، فماتت، ماتت للحين، في السيارة التي كانت تقلها الى المستشفى. كانت الحادثة أشبه بالصدمة في حياتنا، وكان لها أثر نافذٌ فيّ. وجدت نفسي أمام سؤال قاس، وكنت حينذاك بدأت الكتابة مقلّداً ما كنت أقرأ من شعراء وكتّاب... وكنت أخطّ قصائدي على دفاتر صغيرة آملاً يوماً في أن أنشرها في كتاب. كانت التجربة قاسية. لقد وضعتني وجهاً لوجه أمام الانتحار الذي حصل بالخطأ، لكنه كان أشد عنفاً من الانتحار الحقيقي. وظلت صورة الفتاة مسدلة على عينيّ مثل ستارة من غمام شفيف. لم تمت الفتاة، انتحرت، لم تنتحر الفتاة بل قتلت نفسها سهواً.

بعد بضعة أعوام خلال الحرب، بلغني خبر انتحار صديق لي كان من أجمل أصدقاء الماضي. كنا خير رفيقين على مقاعد المدرسة، وكان هو أشدّ مني اجتهاداً وكنت أتعلّم منه، وأعود إليه في بعض الفروض والدروس. لكننا كنا نتنافس على القراءة لا سيّما بالفرنسية، وكان يميل كثيراً الى قراءة روايات سارتر، مخالفاً وصيّة معلّم الفرنسية، الأب الإيطالي الذي كان حذراً من صاحب "الغثيان" وسائر الوجوديين الملحدين والعدميين والعبثيين. عندما بلغني الخبر تذكرت تلك الوصية التي كنا نسخر منها، ورحت أسأل نفسي: هل كان سارتر وراء انتحار صديقي؟ تألمت كثيراً وأحسست أنّ وجهاً من وجوه ماضيّ انكسر. كان مضى وقت لم اتصل به بعدما فرّقتنا الحرب، لكنني علمت من صديق آخر

أنه كان يبحث عني ولم يجدني. حتى الآن لا يزال سرّ انتحاره يشغلني، وكم أشعر بألم عندما أمرّ بالصدفة أمام المنزل الذي كان يقطنه، فأنظر الى الشرفة وأجدها مثلما كانت قبل أعوام، لكن الأصفر الذي طُلي به بابها ونافذتها حلّ به شحوب. كان هذا الانتحار من أقسى ما عشت من أفعال انتحار أقدم عليها أناس أعرفهم. ولا أدري إن كان صديقي ترك نصوصاً كتبها بلغته الفرنسية الجميلة أو مذكرات هو الذي كان يدمن القراءة، مفتتناً بها. لا أدري أيضاً إن كان ترك رسالة قبيل انتحاره يوضح فيها بعضاً من شجونه في تلك الفترة العصيبة. لقد هزّني انتحاره مثلما هزّني من قبل مقتل رفيقين لنا في مطلع الحرب وأحدهما قُتل ذبحاً في قريته على يد جيرانه الذين ينتمون إلى طائفة أخرى. وكان فقدان رفيقي الدراسة هذين إيذاناً بالأيام القاتمة التي ستحملها الحرب إلينا، نحن الذين لم أعرف مَن نكون.

في مطلع الحرب كنت بدأت أكتب، وأذكر أنني بعد بضعة أعوام أنهيت ديواناً اخترت له عنواناً قاسياً: "الله وحده يموت". ولا أدري حتى الآن لماذا اخترت هذا العنوان. لكنّ الديوان لم يصدر وظلّ بخطّ يدي إلى أن فقدته مثلما فقدت القصائد الأولى التي دأبت على كتابتها. لم يغب العنوان عني يوماً، وكلّما تذكّرته عادت إليّ - لا أعلم لماذا - صورة الفتاة المنتحرة وصور الأشخاص الذين كنا نبصرهم مقتولين، وبعضهم كان يُرمى بهم عن الجسور. كان هؤلاء يُخطفون على الحواجز أو يُقبض عليهم في ساحات المعارك ويُقتادون الى المناطق ويُعذّبون على مرأى الجميع أو يُسحلون مقيّدين بأيديهم أو بأقدامهم الى السيارات.

ولا أنسى مشهد ذلك الرجل الذي كان يُسحل حياً، عيناه مفتوحتان، وبهما ينظر بألم ممزوج بالاستغاثة. كنا على الرصيف عندما مرّت السيارة والرجل مقيّد اليها بيديه وقد اهترأت قميصه وتمزّق سرواله وبان جلده المجرّح النازف والشديد الحمرة. لم أستطع أن أطيل النظر إليه ولا أن أحدّق في عينيه. لقد أخافتني نظراته الأخيرة. كان بعض المارة يصفّقون ويهتفون، فهذا السحل كان عملاً بطولياً أيامذاك.

حتى الآن لم أفهم لماذا اخترت لديواني الذي لم يصدر، ذلك العنوان القاسي. هل لأنني كنت أرى الله يموت مع أولئك الأبرياء؟ أم لأنني كنت أتخيله ينتحر مع المنتحرين؟ "الله وحده يموت"، هذه الجملة كان يمكن أن يكتبها أشخاص ملحدون لم أكن منهم، مع أنني أكنّ لهم كلّ المودّة وأحسدهم على جرأتهم، على خلاف ما كانوا يعلّموننا في المدرسة. كنت حينذاك مؤمناً مثلما أنا الآن، لكنني طبعاً مؤمن على طريقتي كما أقول دائماً للأصدقاء الذين لم يعد الإيمان يعنيهم، مؤمن في المعنى الميتافيزيقي الصرف. وأذكر كيف أنني قرّرت أن أصبح ملحداً ذات يوم تشبّهاً ببعض الأصدقاء أو الكتّاب الذين أقرأهم لا سيّما نيتشه في كتابه "هكذا تكلم زارادشت" الذي جعلني اضطراب طوال أسابيع بعد ما قرأته للمرّة الأولى. كنت في العشرين على ما أظن. أصبحت ملحداً ورحت أبشّر بهذا الإلحاد الذي اكتشفته في الوجودية - كما قرأتها حينذاك - وفي الماركسية التي لم أستوعبها جيداً، ولم أمل إليها البتة، لكنني لم أستطع أن أنام يوماً من غير أن أرسم إشارة الصليب التي اعتدت على رسمها

قبل النوم منذ الصغر. كنت ملحداً ولكن مع إشارة الصليب. غير أنني ما لبثت أن اكتشفت أنني عاجز عن أن أكون ملحداً. الإيمان شعور كامن فيّ، منذ أن ولدت. إنه يسكنني، ينتابني، يملأني، يعتملني، إنه الظل الخفيّ الذي يرافقني. الإيمان الذي كان قبل أن يكون دين. الإيمان الذي اكتشفته لاحقاً لدى المتصوّفة على اختلاف معتقداتهم. ولعله هو الذي جعلني جباناً أمام فكرة الانتحار، جباناً وقوياً في آن واحد. وأذكر كيف أن صديقة لي كانت تضحك عندما كنت أخبرها عن إلحادي المؤمن. كانت تهزأ منّي بلطافة. لم تكن هي تؤمن، ولم تكن تدرك جيداً ما معنى أن تكون ملحدة. كان والدها ماركسياً لكنه لم يلتحق بالحزب الشيوعي، فهم كانوا يقطنون المنطقة المسيحية. كان ماركسياً فقط بحسب ما كنت أسمعه يقول. وكان يصرّ على فتياته الثلاث ألاّ يؤمنّ وألا يذهبن الى الكنيسة. والمستغرب أنّ زوجته كانت على قناعة بما يؤمن به. ولم تكن تعارض فكرة الإلحاد التي لم تكن مستحبّة في المنطقة، لا سيما أيام الحرب.

ثمَّ ما لبثت أن تعرّفت على أشخاص من عمري، هذا العمر الشقي، الذي تزول فيه التخوم بين آخر المراهقة ومقتبل الشباب، كانوا قرّروا أن يصبحوا ملحدين. تأثرت بهؤلاء، أعترف، وكنت أدهش دوماً بجرأتهم، مع أنني لم أستطع أن أصبح ملحداً. كان يخيل إليّ أن الملحدين، بعدما رحت أبحث في الكتب عن معنى الإلحاد، هم أشدّ طمأنينة منا نحن الذين لم نقدر أن نتخلى عن فكرة الله أو الماوراء أو الحياة الأخرى، الحقيقية، "الغائبة" كما وصفها رامبو. لقد شكّ هؤلاء مرّة واحدة وحسموا أمرهم: الله

غير موجود. حتى حياتهم أصبحت أشدّ رخاءً. أما نحن، أقصد أنا، فكنت دوماً كمن يقف على حافة، يشكّ حيناً ويؤمن حيناً، ولم يكن الشكّ لديّ إلا طرحاً لأسئلة شائكة وعسيرة. وكنت أحبّ الملحدين كثيراً وأجد فيهم صورة الشخص الذي لم أستطع أن أكونه. كنت أتحمس لأفكارهم حتى وإن غالوا فيها في أحيان، وكنت أحسّ أنّ الله لا يكرههم، الله الذي يشرق شمسه على الجميع، كما قيل لنا، صغاراً. كانت أفكارهم تضعني وجهاً لوجه مع نفسي، أنا المهرطق المؤمن على طريقته، الذي لم يعنِ الدين له سوى الحرية، أقصى الحرية. لو شاء الله أن يفرض نفسه على البشر لفعل بلا تردّد. لو شاء أن يفرض صورة واحدة لنفسه لفرضها أيضاً. لم يعنِ الله إلا الحرية. لقد منحنا الحرية التامة في أن نتخيّله، كما يحسن لنا أن نتخيّله. حتى الذين أنكروه لم يعترضهم ولم ينكرهم ولن. كان الله في حسباني بمثابة الأب، وأعتقد أن أمثولة المسيح إنّما تكمن هنا، في هذه الأبوة. الأب لا يكره أبناءه مهما أنكروه أو تجاهلوه. أتذكّر كم سررت عندما قرأت للشاعر بودلير جملة مفادها أن الأديان عندما تنتهي يجب البحث عنها في قلوب الملحدين. هزّتني هذه الجملة منذ أن كنت في الصفّ الثانوي. وظللت أتذكّرها.

كنت أؤمن - وما زلت - أن الدين محفور في قلب الإنسان وأن الإنسان يتوارثه من دون أن يدري. وفعلاً كنت أشعر أنّ لديّ وجداناً دينياً لا أعرف من أين أتى ولا كيف تنامى. ويحلو لي في أحيان أن أسمّيه غريزة دينية، غريزة تكمن في زاوية من الزوايا المجهولة في الداخل. في الداخل أيضاً شوق إلهي أجهل

مصدره، حنين الى الألوهة الغائبة، الى النبع الأول. وكنت اعتقد دوماً أن هذا الوجدان أو الشوق أو الغريزة وُجِدت قبل وجود الدين نفسه، وأن الدين لم يكن إلاّ تجليّاً أو استجابة لها. عندما كنت أحدّث رفاقي الملحدين بهذه الأمور كانوا يضحكون بلطف، يضحكون فقط ولا يلفظون كلمة. كان أحدهم يردّد دوماً جملة ماركس الشهيرة "الدين أفيون الشعوب" ساعياً الى المزاح. وكان يزداد المزاح عندما كنت أجيبه: نعم، الدين أفيون الشعوب. إننا نحتاج الى هذا الأفيون لنبصر بعين أخرى، لننسى مآسي الحياة ونحلّق في سماء بيضاء. وكنت أعتقد أن الشعوب لو جعلت من الدين أفيوناً لتخطّت كلّ المآسي التي صنعتها الأديان منذ أن اكتشفتها البشرية. لو كان الدين أفيوناً لأراحت الشعوب الله من التاريخ المأسوي ومن أنهر الدم التي سالت، ومن الحروب التي أحرقت الحياة. البشر يتقاتلون لامتلاك الله والله في سمائه، وحيد وحزين، ينظر إليهم دامعاً، يحدّثهم فلا يسمعون. هكذا كنت أتخيّل الله الذي زجّوا به في حروبهم ومعتقلاتهم... ولم يكن أحد يُعجب بهذه الفكرة، حتى أصدقائي الذين ما كانوا يؤمنون لم يأخذوا بها.

كان الانتحار أشبه بالطيف الذي يرافقني بالسرّ، يؤثّر فيّ ويهزّني. وكنت كلما علمت أن شخصاً انتحر ينتابني شعور بالألم وكأنني أنا المنتحر ولكن العائد عن انتحاره. كنت دوماً أتذكر أن الانتحار مسألة فلسفية قبل أن يكون قتلاً متعمَّداً أو غير متعمَّد للنفس. وكنت على يقين أن الانتحار يحصل متأخراً دوماً وكأن لا جدوى له. فما يعيشه المنتحر أو يكابده أقسى من فعل الانتحار

نفسه. هذا الاحتضار الذي يسبق قتل النفس أشدّ وطأة من اللحظة المأسوية الأخيرة التي ترسم خطاً بين الشخص وحياته. الانتحار الحقيقي يحصل قبل قتل النفس، ولا يكون هذا القتل إلا ردّ فعل حياله. إنه الانتحار الصامت الذي يرتسم في حمرة العينين، في الكدر الذي يحتل عمقهما، في القلق الذي لا حدّ له، في الكآبة، العجز، الخرس، الكمود والألم المجهول. يقال دوماً إن المنتحر قتل نفسه، لا يقال إنه قتل جسده. كأن الانتحار يتم في ناحية النفس. كأنه شأن من شؤون الروح. وليس مستغرباً أن تحرّمه الأديان وأن تعدّ المنتحرين أشخاصاً حلّت بهم اللعنة ولا تجوز الصلاة عليهم. وأذكر كيف أن كاهن الرعية رفض مرّة أن يصلّي على أحد المنتحرين وان يقيم له جنازة. ولولا تدخل الأقارب لكان رُمي في القبر بلا صلاة. هذه الظاهرة التي كانت رائجة طوال أعوام، ما لبثت أن انحسرت بعد الحرب. وكان الكهنة يتغاضون عن هذا النوع من القتل أو يتجاهلونه من غير ان يعترفوا به. فالانتحار في نظرهم خطيئة مميتة ليس لأنه قتل فقط بل لأنه عصيان للأمر الإلهي. الله أعطى والله يأخذ كانوا يردّدون. الانتحار فعل عصيان للمشيئة الإلهية، فعل تحدٍّ للإله. فالمنتحر يبدو كأنه هو الذي قرر أن يُنهي حياته، حالاًّ محلّ الإله. لكنني كنت - شخصياً في الأقل - أعتقد أن المنتحرين هم أقرب الناس الى الله، بألمهم الشديد وكآبتهم وسأمهم والعذاب الذي يقاسونه... ولم يكن اختيارهم الانتحار إلا تحرّراً من عبء الحياة التي تشبه الجحيم، أو بحثاً عن حياة أخرى لا ألم فيها ولا سأم أو كآبة. ولطالما ظننت أن المنتحرين يحملون في ثنايا روحهم قبساً

من القداسـة، لأنهم متألمون... والمتألمون هم أكثر الناس قرباً من الله. ألم يتألم المسيح، ابن الله - مجازاً أو بالروح - على الصليب قبل أن يُقتل؟ ألم يدعُ الحلاج جلاّديه الى قتله؟

كان صديقي يخجل كلّما تحدّث أحد عن انتحار والده. هو نفسه لم يخبرنا مرة أن والده أطلق النار على نفسه. كانت عيناه تبرقان بدمع خفي كلّما تحدث أحد عن الانتحار. وعندما انتحر أحد أبناء الحيّ اختفى طوال يوم الدفن. حتى أمّه كانت تقول إن زوجها مات ولم ينتحر. أما جارنا الذي انتحر ابنه مطلقاً النار على نفسه من بندقية صيد فكان يصرّ على أن ابنه قضى خطأ، وأنه كان يحشو البندقية بالخرطوش عندما انطلقت منها النار. ولم يصدّق يوماً التقرير الذي رفعته الشرطة مؤكدة حادثة الانتحار.

كان الانتحـار أشـبه بالعـار الـذي يحلّ علـى عائلة المنتحر، لا سـيما إذا كان المنتحر فتاة. حينذاك تُحاك القصص وتسـري الإشاعات التي تمسّ في أحيان كثيرة الحياة الخاصة للفتاة، حتى ليتهمها البعض بفقد عذريّتها أو وقوعها في حبّ رجل متزوج. وكان يحلـو للبعـض أن يقـول بقـدر مـن التهذيب إن الفتاة "لُعِب بها"، وهذه عبارة تعني فضّ بكارتها دون زواج.

كان إطلاق الرصاص على النفس هو الانتحار الأكثر رواجاً. نادراً ما كان المنتحرون يقطعون شرايين أيديهم بالشفرة، أو يلقون بأنفسـهم من أماكن عالية أو يخنقون أنفسـهم بالغاز أو يرتمون أمام السيارات المسرعة لتدهسهم... ولم يكن لدينا قطار يصلح لأن يرتمي المنتحر على سكته فيقطعه إرباً. فالقطار على ما بدا توقـف فـي "محطـة" الحـرب ولـم يتحرّك منـذ ذاك الحين. وقد

حرمنا منه، ومن صفيره الجميل ومنظره يتهادى على السكة الحديد. كان إطلاق النار على الصدغ أو العنق أو القلب هو الأسهل والأشدّ توافراً لا سيما خلال الأعوام المأسوية. فالأسلحة كانت مثل الخبز ولم يكن من بيت يخلو منها. وكم من شاب قتل نفسه ببندقية أبيه، وكم من فتاة أطلقت النار على نفسها من مسدس أخيها.

أما أكثر ما كان يربكني فهي عودة بعض الأشخاص سالمين من الانتحار، أولئك الذين يحاولون الانتحار ويفشلون أو يُنقَذون في اللحظة الأخيرة. كأن الانتحار يرفضهم ربما لأنهم لم ينضجوا كفاية ولم يصبحوا أهلاً لهذا الفعل القاسي. وكم كان يحلو لي أن أسأل أحد هؤلاء عن تلك اللحظة الرهيبة وماذا أحسّ عندما أقدم على الانتحار وبعد أن تمّ إنقاذه. لم أجرؤ مرّة على طرح هذا السؤال على شخص فشل في الانتحار. هذا سؤال شائك لا يستطيع من حاول الانتحار أن يجيب عنه.

تُرى ماذا يحسّ المنتحر عندما يرمي بنفسه من شرفة عالية ليترامى في الهواء مثل حجر وقبل أن يسقط على الأرض ويتحطّم؟ هذا الإحساس قد يكون هو السرّ الذي يجعل من الانتحار فعلاً فلسفياً.

لا أدري لماذا يشغلني الانتحار الآن، لماذا أفكر فيه، أنا الممتلئ بحياة حزتُها بأعجوبة، الناهض للتوّ من هاوية كادت تودي بي، أنا الذي لم تُغرِه يوماً فكرة الانتحار، الذي عاشه قسراً لأسباب مجهولة، لأسباب كامنة في القعر، في تلك البئر التي أسمّيها الروح. عشت الانتحار من غير أن أختاره، ولو

أنّني أقدمت عليه لما كنت أنا مَن أقدم عليه. لعله الآخر الذي فيَّ، الأنا الآخر أو الـ "هو" الراقد في الظلّ، من أقدم على الانتحار وعجز، مع أن الألم لم يكن يُحتمل، الألم الذي يسري في الروح كما يسري في اليدين والصدر والقدمين...؟ لم آلف فكرة الانتحار يوماً لأنني لم أفقد معنى العالم يوماً، هذا العالم الذي كرهته، الذي اعتزلته بعدما عجزت عن العيش فيه، عالم الحروب، عالم القتل، عالم اللاطمأنينة، عالم اللاإنسان، العالم الذي هجر الله من دون أن يجد بديلاً له، الذي هجره الله، العالم الذي يمضي نحو خرابه القدري والذي يعجز عن العودة عنه... لم أفقد يوماً ذلك المعنى الخفيّ لهذا العالم، المعنى الميتافيزيقي، المعنى الذي كنت أحدسه، بحواسّي كما بالروح، المعنى الذي لا يُدرَك، المعنى الذي سرّه أنّه لا يُدرَك.

عجزت عن الانتحار، لأنني جبنت أمامه ثمّ لأنني أدركت لا جدواه، ثمّ لأنني لم أظن أنه النهاية المرتقبة، ثمّ لأنّه أزهر داخلي وتفتح، ثمّ لأنني غرقت فيه، في مائه العكر من دون أن أقدم عليه. الألم الأشدّ سطوعاً من الانتحار يجعل الانتحار فعلاً باهتاً، يخترقه ويتقدّمه الى الحياة نفسها. والقلق الأعمق من الانتحار يُسقط الانتحار في شباكه. الكآبة الشديدة النقاء تضيء ليل الانتحار.

لم آلف الانتحار لكنني من فرط ما عشته أضحى صديقي، أنا الذي لم يهوَ يوماً إلا الحياة، الحياة بذاتها.

تحضرني أوفيليا مرّة أخرى، إنها من الفتيات اللواتي يستحيل نسيانهنّ. كلما سمعت أحداً يتحدث عن الانتحار أو كلما قرأت

عنـه، أتذكـر أوفيليـا، أتذكرهـا كمـا لو أنها فتـاة أحببتها في ماضٍ مـا. كان غرقهـا فـي النهـر أحد أسـرارها، كأنهـا ارتمت في الماء باحثةً عن أصداف خفية. لكنّ الماء الذي لا يتوانى عن الجريان حملها على وجهه. بدا وجهها النقي أشدَّ نقاء في الماء، والصورة، صورتها الأخرى، التي كثيراً ما شَغَلَتْها، وجَدَتْها هناك في الأسفل، عندما غرقت. إنها الصورة التي بحثت عنها طويلاً، صورتها عن نفسها، صورتها الضائعة التي استطاعت أخيراً أن تتحد بها. أوفيليا العذبة التي لم تعرف الشهوة، النقية التي لم تدرك ذاك الإحساس المأسـوي الكامن في ذاتها، إحساسـها المأسـوي بالحياة، بالحبّ والقدر.

تحضرني أوفيليا مرة تلو أخرى. لا أحتاج أن اقرأ "هاملت" لأبصرها تطفو على وجه الكلمات، إنها هنا، في المخيلة والقلب، تنهض في الليل لتغنّي بصوتها المجروح دائماً، مثلما غنّت وحيدة في لحظات الانخطاف التي سمّيت جنوناً، قبل أن ترمي بنفسها في النهر انتقاماً لبراءتها.

إلا أننـي كلمـا تذكـرت أوفيليـا أو تخيّلتهـا أتذكر أيضاً تلك المـرأة الفتيـة التـي لـم يطلـق عليهـا دوستويفسـكي اسـماً وكأنه شـاءها بلا اسـم لأنها المرأة الغريبة التي لم يكن لها أحد. لكنه أطلـق عليهـا صفـة "العذبـة" وهي عنوان تلك القصة التي وقعت عليها صدفة فهزّتني وسـألت نفسـي كيف لـم أنتبه لها من قبل. عندمـا قرأتهـا تخيّلـت هـذه "العذبـة" صـورة لأوفيليـا، أو لعلّني تخيّلت أوفيليا وقد تقمّصت شـخص هذه الروسـية الغريبة التي انتحـرت أيضـاً ولكـن بعـد زواج لم يـدم طويلاً. إنها أوفيليا ولو

أنها رمت بنفسها من النافذة حاملة بين ذراعيها أيقونة "العذراء مريم والطفل". هذه الأيقونة التي ضمّتها الى صدرها كانت أيقونة طفولتها، على ما أخبر زوجها الذي فُجع بانتحارها ولم يدرِ ماذا يفعل حين حملوا المنتحرة الى المنزل ومدّدوها على الطاولة ورحلوا، تاركين الرجل وحيداً مع الزوجة - الفتاة، مفتوحة العينين وصامتة صمتها الأبدي. كان انتحارها والأيقونة بين ذراعيها أكثر ما هزّني. هذا انتحار مقدّس كما تهيأ لها، هي المرأة العذبة، الرقيقة والبائسة التي جاءت من لا مكان، من ماضٍ ملؤه القهر والألم... وما فاجأني أنها قبيل انتحارها راحت تغنّي مثل أوفيليا، ولكن لم يكن يلمع في عينيها بريق ماء النهر. الأيقونة وحدها كانت تلتمع في عينيها. ومثلما بدت مريم تضمّ طفلها ضمّت الفتاة الأيقونة وكأنها الأم العذراء التي لم تنجب طفلاً.

لم تترك المرأة - الفتاة هذه رسالة وراءها، تركت ظلّها وكآبتها. انتحرت قبل خمس دقائق من وصول زوجها. ولكن لو وصل قبل انتحارها هل كان ليحول دون إقدامها على هذا الفعل الذي عاشته في الصميم، لا سيما عندما كانت تصمت ساعات طوالاً وأياماً؟

لا أدري لماذا تسكن أوفيليا و "العذبة" عالمي الداخلي، أو سريرتي - كما يقال - وكأنهما فتاتان عبرتا حياتي، كأنني عرفتهما عن كثب وأحببتهما وحزنت لهما حزن العاشق على حبيبة له غدرت به وماتت. كانتا فتاتين من لحم ودم، نقيّتين مثل ملاكين، حالمتين وخائبتين، لم تكتمل رغبتهما يوماً، ربّما لأنها لم تشتعل يوماً.

إلا أنني أعترف بأنني فتنت أيضاً بشخص إيمّا بوفاري، المرأة الحالمة والقارئة، التي لم تكن خيانتها لزوجها إلا فعل حب، ولم يكن انتحارها إلا تحقيقاً لهذا الحب الهارب والمستحيل. لكنّ إيّما بوفاري لم تؤثر فيّ مثلما فعلت أوفيليا و "العذبة". وأتذكر أيضاً تلك المرأة التي انتحرت وتركت رسالة تعتذر فيها لنفسها والآخرين الذين لا تعرفهم، وتقول إنها لو وجدت أحداً تتحدث إليه في تلك اللحظات العصيبة لما انتحرت. كان الانتحار حوارها الوحيد الذي تحدثت فيه ولكن الى نفسها. أتذكر هذه المرأة ولا أنسى رسالتها، لكنني لا أذكر اسم الرواية ولا مؤلفها. إنها شخصية من الشخصيات التي تتوه في مخيلتنا بلا أسماء. شخصيات نخطفها من الروايات فتصبح حقيقية من شدّة توهّمنا إياها.

هكذا كانت أوفيليا و "العذبة" فتاتين من حلم، حلم ممزوج بالرغبة، الرغبة في الحب، الحب المستحيل، بصفائه المطلق. وهكذا كان الانتحار زهرة حياتهما القصيرة التي انتهت قبل أن يحين قطافها. ولا أدري لماذا جعلتني صورة أوفيليا طافية على وجه الماء، أشعر أن الانتحار فعل أنثوي. لا أعرف كيف أتتني هذه الفكرة التي كنت على يقين منها ولم أفصح عنها مرّة. لا أعرف لماذا اتخذ الانتحار في مخيلتي هذا البعد الانثوي، مع أنه يبلغ في أحيان ذروة القسوة، عندما يدمّر المنتحر نفسه تدميراً وحشياً أو لاإنسانياً، مشوِّهاً جسده أو وجهه، وصورته كإنسان. لم أكن أبالغ في هذا الأمر كثيراً، فقتل الذات هو أرقّ أنواع القتل. يصبح المنتحر هو القاتل والمقتول، هو اليد التي تطعن والجسد

الذي تنفغر جروحه. قد يكون مستغرباً فعلاً أن أجد في الانتحار ملمحاً انثوياً، وقد أقول حالاً من الأمومة. يصبح المنتحر، عندما ينحني على نفسه، كأنه ضحية نفسه، كأنه القاتل والقتيل الذي ينحني عليه. أما القاتل فهو الآخر، الآخر الذي فيه، الذي هو القرين، قرين المنتحر. ربّما لأنني أميل الى صورة الانتحار في الروايات، تجلّى فيَّ هذا الإحساس بأنثوية هذا الفعل. أجل، الانتحار في الروايات أجمل منه في الواقع، هذا الواقع القاسي، المأسويّ والمدمّر. والمنتحرون في الروايات أجمل من المنتحرين في العالم، وكذلك فعل الانتحار نفسه حين يبدو مغرقاً في جماليته المتخيلة. لو أن شكسبير انتحر لما كان انتحاره جميلاً مثل انتحار روميو أو جولييت أو حتى عطيل الذي طعن نفسه بالخنجر في لحظة جنون. ولو أنّ تولستوي أقدم على الانتحار لما كان انتحاره في جمال بطلته آنا كارنينا التي رمت بنفسها أمام عجلات القطار. كأنّ الانتحار في الواقع ينقصه دوماً شيء ما، لمسة أو نظرة أو وهم... أما في الرواية فهو غاية في الفتنة. ترافق المنتحر لحظة فلحظة وتعيش معه تلك الدقائق الحاسمة، تنحاز إليه، تنسلّ الى روحه، تندمج فيه، لكنه هو الذي يموت عنك، هو الذي يفتديك. أنت تظل حيّاً، تنظر إليه يتخبّط في احتضاره، تبكيه ذارفاً دموعك على الصفحات.

وقد لا أبالغ إن قلت إن أجمل أفعال الانتحار تلك التي تقع في قصص الحبّ. لا انتحار بلا حبّ، هذا ما كان يتهيّأ لي أو بالأحرى هذا ما كنت أقنع نفسي به. يصبح العاشقان، الفتى والفتاة، أنثيين عندما يقبلان على الانتحار. وقد أقول يصبحان

لا فتـى ولا فتـاة بـل كائنـاً واحـداً، كائنـاً مـن حنين وألم وأسـى، كائنـاً بـروح لا بجسـد. لا أظـن جوليـت كانـت أرقّ مـن روميو عندمـا اسـتيقظت ونظـرت اليـه ميتـاً ثمّ قتلت نفسـها. كانا روحاً واحدة بجسدين فصارا بلا جسد. هكذا أيضاً أتخيّل فرتر الشاب عندما راح يتضاءل ليصبح شارلوت التي أحبّها وغاب في ضوئها منتحراً. كنت أتخيّل فرتر فتى بحنين فتاة...

لا أدري لمـاذا أتخيّـل المنتحريـن أبطـالاً فـي روايات كتبها القدر، روايات هي الأيام نفسها وقد سقطت عنها هالتها. أبطال صنعوا حكاياتهم بنفسهم، بدمهم وجروحهم، بأوهامهم الأعذب من حياتهم. أشعر كأنني انتحرت مع فان غوغ في ذلك الصباح، ناظراً الى السـماء بعينين دامعتين، حالماً بحياة أبدية لا ألم فيها ولا عذاب يفترس الروح كالنار تفترس الهشيم. أشعر أيضاً أنني انتحـرت مـع صديقـي الشـاعر جيـرار دو نيرفال فـي ذلك الفجر البـارد، مشـنوقاً فـي الشـارع الـذي يغطيه الثلـج. انتحر هذان في أول الفجر، لم ينتظرا أن ينتشر الضوء في السماء. كانت الظلمة التي تسكن عيونهما أشدّ وطأةً من ضوء الفجر، فارتميا في حفرة الليل الأبدي.

أشعر أيضاً أنني أقدمت على الانتحار مع شاعر "أزهار الشر" ولـم أنتحـر، جبنـاً أو تحدّيـاً للانتحـار نفسـه أو إدراكاً لعبثية هذا الفعل الذي عشته يوماً تلو يوم حتى روّضته كلبوءة برّية أو حتى روّضنـي فخضعـت. ولعلّنـي انتمـي فعلاً الى فئة من الأشـخاص يُسمَّون "المنتحرين - الأحياء" الذي ينتحرون كلّ يوم وينهضون كلّ يوم، حبّاً بالحياة نفسها وخوفاً من الانتحار نفسه.

لو كنت أؤمن بالتقمص لقلت إن حياة سابقة كانت لي وقد انتحرت فيها ثم عدت لأعيش هذه الحياة على شفا انتحار لا يتحقق. لكنّ التقمص فكرة جميلة جداً وجمالها هو ما يجعلها مستحيلة.

لماذا أصرّ على التحدث عن الانتحار مع أنه عبر تلك الحياة التي أسمّيها حياتي؟ هل لأنه ترك فيها أثراً لا يمّحي، أثراً يشبه الندبة التي يخلّفها الجرح بعد أن يلتئم؟ ألأنه السرّ الذي يخفي في قلبه سراً لا يمكن فهمه؟ أم لأنّه تحدّ سافر للفكرة الإلهية تلك التي ما برحت تشغل شخصاً مثلي وتضنيه بحبور داخلي؟

كنت أتصوّر دوماً أن لا أحد يمكنه أن يفهم الانتحار إلا المنتحر نفسه. مهما حاول الآخرون أن يلمّوا بهذا الفعل الرهيب، فهم يظلّون عاجزين عن إدراكه ما لم يعيشوه عن كثب. المنتحر وحده هو الذي يفهم سرّه، لكنه يحمله معه دوماً. حتى الذين يتراجعون عن قتل نفسهم في اللحظة الأخيرة، لا يدركون هذا السرّ تماماً كما يدركه المنتحرون. ومهما قرأنا في الرسائل واليوميات التي يتركها المنتحرون فإننا نظل عاجزين عن إدراك مأسوية تلك اللحظة التي تفصل بين حياة وموت، بين حياة وأخرى. الانتحار فعل شخصي، فعل شخص يرى نفسه وحيداً في مرآة نفسه، شخص لم تبق له سوى هذه المرآة، بعدما تحطّمت المرايا الأخرى التي كان يرى فيها الله او الحبيبة أو الفردوس... عندما يغيب الله يصبح الإنسان شخصاً يواجه نفسه بنفسه، وحيداً، متروكاً لقدره. وعندما تغيب الحبيبة يرى العاشق نفسه مهجوراً، متجهّماً، تعتمل في داخله لوعة الفراق... هكذا كان يخيّل إليَّ.

يصبح الشخص أسير نفسه، لم يبقَ له من مكان في هذا العالم الصامت سوى زاوية صغيرة لا تتسع له. ينظر الشخص الى المرآة فيرى نفسه قريناً لنفسه، إنه الآخر الذي هو. عندما ينتحر هو، ينتحر قرينه في اللحظة نفسها. كأن كلّ انتحار إنما هو انتحار مزدوج: ينتحر الشخص عن نفسه أي عن قرينه.

يسأل منتحر نفسه: "ماذا أفعل أنا نفسي، في هذا العالم؟ وبما أنني في الختام سأرحل، أليس من الأجدى أن أرحل في أول الصباح؟". ويسأل منتحر: "مَن أنا؟ لا أحد يمكنه أن يجيب. ماذا أنا؟ فقاعة صابون معلّقة على قصبة". ويسأل آخر: "لماذا لا نبحث عن الموت بإرادتنا عوض أن ندع أنفسنا نموت؟ لماذا؟". ويقول آخر: "الحياة كما تتجلى فيّ الآن، لا معنى لها. إنها كأن لم تكن. إنها إذاً لا تملك أيّ حق لكي تكون". ويقول منتحر أيضاً: "في أحد الأيام، سأكون ميتاً، أبيض كالثلج، رقيقاً كالمنامات، في مغيب ممطر". ويقول آخر: "لقد انتحرتُ، أي أنني انتُحرت".

ترى هل ينتحر المرء أم يُنتحر؟ من هو ضمير الغائب هذا الذي يدفع المنتحر الى إنهاء حياته؟ أليس هو المنتحر نفسه وقد استحال ضميراً للغائب المجهول؟

الانتحار عمل شخصيّ، عمل يقوم به شخص أمام شخص آخر هو نفسه. الانتحار الجماعي ليس بانتحار جماعي، فالمنتحرون إنما ينتحرون كأفراد، كلّ واحد وحده. والشخص هو الذي ينتحر، وإذا انتحر مع آخرين فإنما ليخفف من وطأة هذا الفعل التراجيدي. هذا ما كان يُهيّأ إليّ عندما كنت أقرأ عن انتحار جماعي في اليابان أو سواها. وأعترف أنني لم أقدر يوماً

على فهم ما يسمّونه "عملية انتحارية". هذا ضرب من التعميم الخاطئ. المنتحر لا يقتل إلا نفسه. المنتحر لا يهمّه الآخرون، أياً كانوا. المنتحر يتخبّط في نفسه، العالم ليس موجوداً في نظره، ولا التاريخ. ليسمّوا تلك "العملية" استشهادية أو بطولية، أو... وشخصياً لطالما أسفت على الفتيات اللواتي كن يفجّرن أنفسهن بالأعداء. الحياة تليق بهنّ أكثر من هذا القتل الرهيب. وكنت أعجب كيف تستحيل الرقة المتجلّية في وجوههنّ عنفاً مستعراً، فيقتلن بلا تردّد أو خوف. الانتحار البطولي أبشع أنواع الانتحار، هذا انتحار أبعد ما يكون عن معنى الانتحار أو سرّه.

عندما نجرّد الانتحار من بعده الفلسفي أو الوجودي أو التراجيدي لا يظلّ انتحاراً، يصبح ضرباً من ضروب الموت الذي يرسم الآخرون غايته، الآخرون أو القضية أو... هذا انتحار شكلاً أما في الجوهر فلا. وهنا يصدق فعلاً الذين قالوا إن الانتحار دعوة أو هبة يكتشفها المرء في نفسه وتصبح قدره الذي يعجز عن مواجهته. وكم أصاب ذاك الذي شبّه الانتحار بـ "الحاسة السادسة" الكامنة في الروح كمون العزيزة في اللاوعي.

أكتب عن الانتحار ولا تغيب عن ذاكرتي صورة ذلك الشاعر الذي قطع شرايين يده وكتب قصيدته الأخيرة بدمه ثم شنق نفسه. لقد عمّد انتحاره بالدم قبل أن يستحيل قصيدة لا نهاية لها. أكتب عن الانتحار، كمن عاش الانتحار عن كثب، كمن قهر الانتحار بانتحار أقوى، هو الانتحار بالحياة، داخل الحياة، والانتحار باللغة، داخل اللغة.

أكتب عن الانتحار، إذاً أنا أحيا.

كلّما أستيقظ أشعر أنني من حلم أستيقظ. هذا الشعور لا يفارقني عندما أفتح عيني في الصبح. أظلّ للحظات معلّقاً بين عالمين تفصل بينهما بوّابة لامرئية، بوّابة بلا عتبة لأقف عندها. ثم أستفيق وكأنني انتقلت الى عالم آخر. في أحيان كان يختلط عليّ العالمان فأتوه لهنيهة حائراً إن كنت ما زلت أحلم، مبصراً ما أبصره عادة هناك، في المنقلب الآخر، أم أنني عبرت الباب الخفي. هذه الهنيهة كانت تخيفني وتجعلني في حال من الاضطراب الخفيف. خلالها تحس أنّك لست هنا ولا هناك، أنك حاضر وغائب في اللحظة نفسها. ولطالما أخذني خوف شبه طفوليّ من ألاّ أعود يوماً من هناك، أن أقع في وهدة النوم وأغرق فلا أرجع أو أختفي بجسدي فيشرق الصباح والسرير فارغ. كنت أخشى هذه الفكرة البيضاء التي طالما خطرت لي، أن أبصر نفسي هناك وأعجز عن العودة، أن أبصر نفسي ابتعد ولا قدرة لي على النهوض. ومرّات كنت أشعر أنني مستيقظ لكنّ عينيّ مغمضتان، أسمع ولكن لا أبصر، فأرتجف وأروح أذكّر نفسي ببعض ما جرى خلال النهار لأتيقّن من أنني ما زلت حياً، أو أتذكّر ما أمكنني تذكّره لأقضي على تلك اللحظات الخاطفة. ثم أفتح عينيّ وأنظر من حولي ملياً. مرّة قال لي صديقي الشاعر. إنه يعجز عن النوم إن لم تكن الغرفة مضاءة. فهمت جيداً أمره، الضوء يقضي على

كائنات الليل ويطردها من المخيلة. شـاعر صديق آخر اعتاد أن ينام على مشارف الصبح عندما يبزغ ضوء الفجر، لم يكن قادراً علـى النـوم قبـل أن ينيـم الليـل ثم يغفـو من بعده. وكان صديقي الشاعر على ثقة أن الليل عندما ينام تنام كائناته أيضاً.

لـم يخطـر فـي بالـي يوماً أن أروي أحلامي لأحد، أياً تكن، جميلة أو بشـعة أو مرعبة. كنت أخشـى أن تُفسَّـر تلك الأحلام تفسـيراً قدريـاً. كنـت أواجهها وحـدي ولا أخافها مهما أخافتني. ولطالمـا صلّيـت، لا سـيّما عندمـا كنـت طفلاً، فـي الصباح على جـري عادتـي، لتسـقط الأحـلام البشـعة في البحـر. هذا ما كانت الأم توصينا به. ولم يكن أحد يبصرني أصلّي.

كنـت أصـرّ علـى عـدم إطـلاع أحد على تلـك الأحلام، مع أنني كنت أستمع في أحيان الى جارات أمي يروين أحلامهنّ في جلسة صباحية، متظاهراً بأنني غير مبالٍ بأحلامهنّ وكيف يفسّرنها. مرّة روى أحد أبناء الحيّ أنّه شـاهد والده ميتاً في الحلم طوال ليالٍ ثلاث. في الليلة الرابعة مات والده. كان ذاك الحلم بمثابة الصدمة في حياة الفتى الذي كنته. سـألت نفسـي مراراً لماذا لم أبصر والدي يموت في الحلم لأنذره. وكنت أخاف فعلاً أن أحلم بأحد يموت، مع أنني كنت أسمع أمي تقول إنّ الموت في الحلم حيـاة جديـدة. هـذا ما كانت النسـوة يردّدنـه وكأنهنّ يُطمئنَّ جارة حلمت بموت أحد ما. كنت أؤثر أن يظلّ الحلم حلماً وأن ندعه يحلّق في ليلنا الشاسـع فلا نفسـره ولا نضيء ألغازه، أن نكتفي برؤيتنا إياه، وبصوره المتوالية مثل شـريط بالألوان، لا نهاية له. وكنت أعتقد دوماً أن الشريط السينمائي ليس إلا محاكاة للحلم

وأن فكرته سُرِقت من الحلم نفسه. كأن الحالم يشاهد فيلماً قد يكون في أحيان أحد أبطاله أو إحدى ضحاياه. وتأكدت أكثر من هذه الفكرة التي كانت تردني دوماً عندما شاهدت للمرّة الأولى على الشاشة الصغيرة فيلما بالألوان ودهشت كما لو أنني أرى صوراً تتوالى في حلم أبصره أنا أو سواي. كان التلفزيون "الملوّن" حدثاً رهيباً في حياتنا حينذاك.

لا أنسى البتة أحلاماً شاهدتها لا يمكن تفسيرها ولا سبر معانيها، وكأنني حلمتها لتظلّ أحلاماً، تماماً مثلما الحياة هي الحياة والسماء هي السماء ... أوليس الحلم كائناً بذاته؟ أليس هو الضوء الذي تلقيه الروح في الليل على نفسها؟ "الحلم حياة نفس الحالم"، أتذكر هذا القول الذي لم أعد أعلم مَن قاله. أرسطو؟ ربما.

كم من أشياء أبصرها في ضوء النهار يخيّل إليّ أنني أبصرتها في أحلام قديمة لم أعد أذكرها. أشياء أفاجأ بأنني رأيتها سابقاً ولكن لا أذكر متى وكيف. بيت أو بوّابة، بيت غالباً ما يكون منفرداً بجدران مطلية بالجبس الأصفر. أشعر أنني أعرف هذا البيت الذي أراه للمرة الأولى، لا سيّما شرفته المحاذية للطريق. لا أعلم من أين يأتي هذا الإحساس الغامض حيال بضعة أماكن أشاهدها للمرة الأولى وكأنني أعرفها ولا أعرفها. كنت أحياناً أفسّره بما يُسمّى اللاوعي الجماعي الذي قال به يونغ، ولكن على طريقتي أو كما يحلو لي، متخيلاً أنّ اللاوعي يرثه الإنسان من الذين سبقوه ويورثه للذين يعقبونه. لكنني كنت على قناعة ولو ضئيلة، أنّ الحلم هو الذي يجعلني أحسّ هذه الأحاسيس الغامضة أمام بعض الأمكنة، فالحلم قادر على أن يسبق المشهد

حتى ليصبح المشهد رجعاً له.

أفكار، مجرد أفكار، أوهام وأخيلة، حطام صور، حطام كلمات كأنها سقطت من حوار يُجرى في الداخل، بين أحد ما ولا أحد.

قرأت مرّة عن بلاد أسطورية لم يكن أهلها يحلمون وسمّيت بلاد الأحلام الميتة لأن أهلها عُرِفوا بعجزهم عن أن يحلموا. أيّ بلاد هذه؟ ليست حيّة هذه البلاد ولا ميتة! وأهلها أيضاً لا هم بأحياء ولا بأموات. إنهم رجع أناس، ظلال هائمة فقدت وجوهها.

قرأت مرّة أيضاً أنّ كلمة "حلم" تعني في اللغة السنسكريتية القديمة "ظهور الموتى". قد يمثّل هذا المعنى جوهر الحلم، الجوهر الغائب أو الخفيّ. فالموتى ينهضون في الحلم من رقادهم ويعودون الى الحياة، لكنّ وجوههم تبدو غريبة، يتكلّمون أو لا يتكلّمون، يصغرون في السنّ أو يتقدّمون. إنهم هم الذين كانوا ذات يوم وليسوا هم. حتى الأحياء الذين يظهرون في الحلم يبدون غرباء أيضاً. إنهم هم وليسوا هم. كأن الحلم عالم البين بين، فضاء يلتقي فيه الأحياء والموتى، الأحياء الذين ليسوا هم أنفسهم في حياتهم والموتى الذين ليسوا هم قبل موتهم. كأنّ الحلم عالم موازٍ لهذا العالم وللعالم الآخر الذي ما برح البشر يجهلونه. إنه العالم الذي هنا وهناك، عالم الوهم والسرّ، عالم الليل ممزوجاً بضوء النهار.

كان يُهيّأ لي دوماً أن الأحلام، على خلاف ما يقول علماء النفس، تعبر ببطء وليس بسرعة فائقة. كنت أتخيّل الحلم طويلاً، يتقطع ويتوالى، مشهداً تلو مشهد. لم أكن أشعر أن الحلم يتخطى

الثواني وأنصاف الدقائق وأن الأحلام يعقب بعضها بعضاً. كأن الأحلام كلها حلم واحد، يستمر حتى بعد أن يفتح المرء عينيه. وفي النهار يستمر الحلم وحده من غير أن يبصره أحد. فالنهار لا يعني موت الحلم بتاتاً. في النهار يختفي الحلم ليظهر في الليل ويواصل عبوره. ومهما كان الحلم كثيفاً فهو يشبه الأبد في كثافته. وما الأحلام التي أتذكرها سوى لقطات من حلم لا ينتهي، حلم يجتاز تخوم الموت وما وراءه.

هل يحلم العصفور ليلاً بالسماء الزرقاء؟ هل تحلم الوردة بعطرها؟ والشجرة، هل تحلم بثمارها؟ كنت أسأل نفسي، مع أنني كنت أعلم أن الحلم وقف على الإنسان. ولكن ماذا عن الإنسان الأول، الإنسان الذي كان يدبّ على يديه والقدمين؟ هل بدأ الإنسان يحلم عندما بدأ يتكلّم أم قبل أن يكتشف الكلام؟ تتردّد هذه الأسئلة دوماً في الرأس ولا أسعى للإجابة عنها. ربما لا يهمّني أن أجد لها أجوبة. إنني أسأل، أسأل فقط. أما أكثر ما كان يخيفني فهو كلام العائدين من الموت، عن نفق اجتازوه ثم عادوا. العائدون هؤلاء هم أناس كادوا أن يموتوا أو ماتوا للحظات ثم نهضوا. يتحدّث هؤلاء دوماً عن ذلك النفق الأسود وعن مشاعر غامضة اختطفتهم، ثم عن عودتهم. صورة هذا "النفق" أبصرتها في فيلم الياباني كوروساوا "أحلام". لم تُخِفْني الصورة كثيراً، الفكرة هي التي تخيف. كان صديقي يتصوّر نفسه منزلقاً في ذلك النفق الذي لا أحد يعلم أين ينتهي، ويضحك. لكنّه انزلق مرة ولم يعد ليخبر عن ذلك النفق. مات وحمل معه سرّ ذاك النفق.

لا أعلم كيف مضت تلك الليالي التي لم أحلم بها، التي

لا أذكر إن كنت حلمت فيها أم لا، إن كنت أصبحت فيها حلماً تائهاً لِا يحلمه أحد. أتذكر ما كان يعتقد به القدامى من أن الإنسان الـذي لا يحلـم لا حظـوة لديـه لـدى اللـه. كأنّ الحلم أعطية إلهية وكأن الله هو الذي يمنح الإنسان هذه القدرة الخارقة على اجتياز الحياة والإبحار الى الضفة الأخرى ثم العودة. مَن لا يحلم ليس محظياً، من لا يحلم لا يعرف معنى المعجزة... كان التأويل الديني للأحـلام يجذبنـي كثيـراً وإن كنـت أفهمـه على طريقتي. فأنا أؤمن بما أسمّيه الغريزة الدينية الكامنة في الداخل، الداخل الذي يسمّيه بعضهـم اللاوعـي وبعضهـم الحيـاة الباطنة أو اللاشـعور... وكنت أشعر باستمرار أنني كائن ديني بالغريزة قبل أن أكونه بالعقل. كم كنـت أحـبّ أن أكـرّر هـذه الفكـرة، مـع أن بعـض أصدقائي كانوا يعتبرونهـا فكـرة متوهّمـة. هـذه الغريـزة هي الجهة الأشـدّ نقاء فيّ ككائن، أستسلم لها وأدعها تسيطر عليّ، مدركاً تماماً أنّها من جذور هذا الكيان الذي هو أنا. هذه الغريزة السماوية تسبق الدين نفسه، الديـن الـذي يأتـي لاحقـاً ليوقظهـا. إنها الأثـر الذي تركه الله فينا، الجرح الإلهي الذي نحمله في الروح. كم أصاب ذلك الفيلسوف عندما قال إننا كائنات تتذكر. لعلّني كائن في حال من التذكّر الدائم. أليس الحلم هو الطريق الى التذكّر؟ إنني أحلم إذاً أنا أتذكّر، لكنّ الذكرى تظلّ مهتزة مثل صورة ارتجفت يدا مصوّرها. وعلى رغم اضطراب الحلم في أحيان كنت أرغب في عدم النهوض من ذلك العالم الأرقّ من الهواء، العالم الذي لا ساعة على جداره، الذي يتشابه فيه المسنّون والأطفال، العالم الذي من ضوء وليل، الذي من عطر وزبد، من غيوم وملائكة.

كان صعباً عليّ أن أحيا تلك الليالي بلا أحلام. حتى في النهارات عندما كنت أغمض عينيّ لم أكن قادراً على أن أحلم. أحلام النهار أو اليقظة مثلما يقال، غادرت أيضاً ولا أعلم الى أين. هل تحلّق الأحلام بأجنحة مثل الملائكة أم أنها صور تعبر العينين المغمضتين؟ أين تذهب الأحلام عندما تشرق الشمس؟ أليست أحلام النهار بقايا أحلام الليل، يستعيدها المرء كما يحسن له وينسجها كما تنسج امرأة شالاً أمام نافذتها؟ كائن بلا أحلام كائن ليس حيّاً وإن تهيّأ له أنه حي. وقد يكون اختفاء الأحلام ضرباً من الموت الذي لا ينتبه له المرء. كم ساءلت نفسي: أأنا من يحلم حلمه أم أن الحلم هو الذي يحلمني؟ تركت هذا السؤال يعتمل فيّ لأنني أعتقد أن الحلم هو الهدية الأجمل التي مُنحت للكائن الذي يسمّى الإنسان. وطالما اعتقدت أن الإنسان سمّي هكذا لأنّه نسي ما عُهد إليه عندما أخذه الحلم فحلم وأَنس ونسي... الإنسان هو الكائن الذي لا يأنس إلا لأنّه يحلم. وغالباً ما كنت أسأل مرّة تلو مرّة: هل كان الإنسان الأول يحلم؟ بماذا كان يحلم؟ متى بدأ يحلم؟ عندما فتح عينيه للمرّة الأولى أم عندما استطاع أن يقف على قدميه؟ هل حلم بالنار قبل أن يكتشفها؟ هل حلم بالبحر قبل أن يراه؟ والسماء؟ والنجوم؟ ثم آدم، الأب الأول هل كان يحلم عندما كان في الجنة؟ بماذا حلم؟ هل حلم بحواء التي

خُلقت من ضلعه، كما تقول الأسطورة؟ وبعدما فقد الجنة هل ظلّ يحلم بها؟ كأننا وجدنا لنحلم بها تلك الجنة التي أفقدنا إياها ذلك الأب الأول، آدم، الذي لا أحد يدري إن كان وجد أم لا. شخصياً كنت أتخيّل آدم كالشجرة التي خلقها الله، مثلها نبت ونظر وأبصر من حوله أشخاصاً يشبهونه ويحملون أيضاً اسم آدم. وجواء مثله كذلك. كان يخطر لي دوماً أن الإنسان لم يكتشف إنسانيته إلا عندما بدأ يحلم. كان الحلم طريقه الى تخطي صورة الحيوان الذي ما برح قابعاً في زاوية معتمة من روحه. والحلم هو الذي سيحمله يوماً الى نسيان ذاك الحيوان نهائياً. الحلم هو منتهى التجلّي، هو الماوراء والطريق الى الماوراء، هو الأمام الذي لا شيء قبله، هو الوراء الذي لا شيء بعده، إقامة في المكان وانقطاع عنه، حضور في الزمن وانفصال عن الزمن.

كنت أميل دوماً إلى اعتبار الحلم علامة أو علامات تتوالى آتية من العالم الآخر الذي يسمّى المجهول. لم يكن يهمّني أن أحدّد هذا العالم الذي سُمّي "الآخر" مقدار ما كان يهمّني الحلم بذاته، الذي كان يبرق في الليل مثل حجر الصوّان بين يدي الإنسان الأول. اكتشفت كلمة "علامات" في الانجيل وبهرتني: "علامات الأزمنة". ما أفتن هذه العبارة. وبدت هذه الكلمة خير ما يعبّر عن الأثر الذي يتركه الحلم في الرأس. إنها العلامة التي تخترق ظلام الكون منبثقة من قلب هذا الكون. العلامة التي تضيء بنورها الخفي ونارها غير الحارقة.

إنني كائن حالم وربّما كائن من أحلام. لا أذكر مَن قال "الحياة حلم". مَن سبق مَن في قولها. هذه الجملة طالما كانت

لي بمثابة ذريعة لأفهم سطوة الحلم عليّ، لأفهم لماذا أنتمي الى فئة من البشر كأنما لا وجود لها. كنت في أحيان أفيق من النوم من غير أن أفيق تماماً، أفتح عينيّ وكأنني ما زلت هناك أحلم، كأنني لم أعبر تلك البوّابة التي أجتاز عتبتها كل ليلة عندما يحلّ عليّ ملاك النعاس. ويختلط عليَّ الأمر للحظات: هل استيقظت أم أنني ما زلت غافياً؟ كأنني أصحو من نوم الفصول، أتذكر أضغاث ما رأيت، وما أكثره بحسب ما أظن. ثم عندما أفيق جيداً أغمض عينيَّ لأستعيد ما رأيت، فتأخذني رغبة في النوم مرّة أخرى. كم أحبّ النوم عندما يتاح لي. أنام وأنا غير نادم على إضاعة تلك الأوقات. النوم هو الحياة في نظري وليست اليقظة. كنت أسخر من أولئك الذين يتغنّون بالسهر ويهجون النوم وكأنه إضاعة للعمر. النوم هو السر الكامن في صميم الحياة، من خلاله تكشف الحياة نفسها ووجهها الحقيقي. "ما أطال النوم عمراً"، كانت تغنّي أم كلثوم، لكنني كنت على قناعة أن الأحلام تطيل الحياة، أنها تمنحها أفقاً رحيباً، وان الحالم يجوب عالماً لا ينتهي هناك او هنالك. لم يعنِ النوم يوماً إلا الحلم، الحلم وحده، ونوم بلا أحلام هو رقاد بلا جدوى. النوم هو الحلم، أتذكّرت ما حلمت به أم لم أتذكّر.

كانت تسحرني كلمة "رؤيا" عندما تجعلها الكتب من مترادفات الحلم أو تفسّرها به. لا أعلم إن كانت لغة أخرى غير العربية عرفت هذا المترادف مثلما ورد في لغتنا. الرؤيا أي الحلم. الحُلْم أو الحُلُم، سكِّن اللام أو ضمَّها، سيعني الرؤيا. وإنْ قيل لغةً إنّ الرؤيا غلبت على ما يراه المرء من الخير والشيء

الحسن، وإن الحلم غلب على ما يراه من الشر والقبيح، فإنني لم أكـن لأفصـل بينهمـا، فالحلـم هو الرؤيا والرؤيا هي الحلم، إنهما وجهان لحالة واحدة، قد تغور هنا وقد تطفو هناك، أو قد تفيض وقد تتضاءل. لا يهّمني ان تكون نظرتي هذه صحيحة. فالرؤيا التي تسمّى رؤيا يوحنا هي حلم في أعمق تجلّياته، ومثلها الرؤى التي نقلهـا لنـا الأنبيـاء. أمـا الأحلام التي قرأنا عنها على سـبيل المثل في التوراة فهي رؤى لطيفة تطفو على وجه الروح.

الرؤيـا. تبهرنـي هـذه الكلمـة عندما تكـون في معنى الحلم، وهي أصلاً الحلم عينه لا سيما عندما يحمل علامات ماروائية. هـذه الكلمـة تتيـح أيضـاً للنائـم أن يكـون رائياً، حالمـاً ورائياً في الحيـن عينـه. أليـس الرائـي هـو الـذي يرى مـا لا يراه الآخرون؟ أليس الرائي هو الذي يرى بعينه الداخلية التي تبصر لا كما تبصر العيون، تبصر عبر الخدر الذي يصيب الحواس فيرتفع حجابها؟ وكم أحبّ كلمة منام كمترادف للحلم أيضاً، ما أجمل هذه المفردة فـي لغتنـا ومـا أجمـل أقـوالاً مثـل: "كان أن رأى في المنام"، أو: "أخذته سنة من النوم فرأى" وكذلك: "رأى في ما يرى النائم...". وفُسّر المنام بـ "النوم" وبـ "العين أيضاً لأن النوم هنالك يكون". العيـن منـام، إذاً فيهـا يقـع النـوم، مثلما فيها تقع اليقظة. لا أعتقد أن العين سُمّيت مناماً في لغة أخرى. عندما يغمض المرء عينيه يحصـل النـوم فيهمـا، ومنهمـا وهما مغمضتـان، تنطلق الأحلام. العين هي بوّابة الحلم، العين التي تبصر وهي مغمضة.

أذكـر، قـرأت مـرّة أن المـرء إذا شـمّ رائحـة عطـرة قبـل أن يستسـلم للنوم، يحلم أحلاماً جميلة. وعمدت أكثر من مرّة الى

رش المخدّة بالعطر ممنّياً نفسي بأحلام جميلة، ولكن أذكر أنني حلمت أحلاماً لا شيء يختلف فيها عن الأحلام السابقة. هل يحتاج الحلم الى العطر كي يصبح جميلاً؟ أليس الحلم عطراً ينتشر في ليل الروح؟ كان الاغريق يتحدّثون عن "السبات المعسول" وكأن الاحلام بطعم عسلٍ تصنعه نحلات لامرئية. وقد لا أستغرب أن تقدّس الشعوب القديمة الحلم، وأن تخلق له آلهة، وأن يتحدث أفلاطون عن الاصل الديني للحلم، والصوفيون عن "الرؤيا المؤيَّدة بالنور الإلهي". وكلما قرأت ما قال النبي في الحديث: "الناس نيام فإذا ماتوا انتبهوا" أشعر بحبور عظيم. كأننا نائمون وحياتنا ليست إلا حلماً نحلمه نحن أو يحلمنا هو. إننا نائمون لكننا نتذكر، نائمون لكننا نتألم، إننا نائمون ما لم نمت. هكذا قال ابن عربي أيضاً، بحسب ما أذكر. ولكن هل يمكن تفسير هذا الحلم الذي هو حياتنا؟ هل يمكن تفسير تلك اليقظة أو ذاك الانتباه الذي هو موتنا؟

أفكار كأنها تخرج من عتمة الروح، تحلّق قليلاً وتختفي. ما الذي يجعلني أتذكّر هذه الأمور؟ عزلتي الشديدة أم ذاك الاضطراب الذي يخالجني كلّما تأملّتُني، كلّما تألّمت ووخزتني الجروح؟ هل يمكن هذا الألم أن يكون حلماً؟ أتراني أحلم هذه الحياة التي أسمّيها حياتي أم أنّ شخصاً آخر هو أنا يحلم حياتي التي هي حياته؟ أفكار تتلوها أفكار مثل حبّات سبحة لا نهاية لها. هل تكون الحياة كلها لمحة أقصر من لحظة البرق؟ ربما الموت أو لأقل "الانتباه" هو خير جواب. ولكن مَن سيكون هناك حينئذ ليعرف، وكيف سيعرف؟ الأبدية نفسها قد لا تكون

سوى لحظة يمتلئ الكائن بها أو يمّحي على أطرافها.

أستعيد الآن صورة امرأة عبرت حياتي بسرعة. كانت نصف عربية ونصف ألمانية، تعرّفت إليها مصادفة خلال أحد أسفاري. لم أعد أذكر اسمها لكنني لا أنسى وجهها ولا قامتها ولن أقول جسدها لأنني لم أرها عارية، مع اننا أضحينا خلال أسبوع صديقين حقيقيين، لا أنفصل عنها إلا عند النوم. فُتنت بها من غير أن أقع في حبّها. كانت امرأة مختلفة، بمزاجها وهواجسها. تحدّثنا عن الايدز الذي كان في أول ذيوعه، وكيف كانت تخشاه وتجري فحصاً طبياً دورياً بعد كل علاقة تقيمها مع رجل عابر. كانت بلا رجل أو حبيب كما يقال. ولم أفهم هذا السرّ لديها، هي التي لا تقدر على العيش دون رجل. ليست غرابتها تكمن هنا بل في حياتها الليلية، وأقصد حياتها عندما تغمض عينيها وتغرق في عالم آخر هو، كما روت لي، مزيج من أحلام وحقائق. وأكثر ما جعلني أضطرب من حكاياتها هو سردها قصة موتها في الليل مرّة تلو مرّة وعودتها الى الحياة في الليل نفسه وليس في الصباح. قالت لي إنها في الليل تفارق جسدها وتصبح روحاً فقط، ولكنْ روحاً تبصر نفسها منفصلة عن الجسد، أو تبصر جسدها منفصلاً عنها. وكانت، كما أخبرت، حيّة بالروح تنظر الى جسدها في السرير فيما الروح تحلّق فوقه. وعندما تستيقظ كانت تجد نفسها مثلما هي، روحاً وجسداً.

لم أستطع أن أفهم هذه الحقيقة لديها. أسمّيها الحقيقة، لأنها لم تكن تكذب أو تتوهّم. قالت لي إنها لا تحتاج الى أي دين لتعرف حياة الماوراء. فروحها كانت تجوب الفضاء في أحيان

وتصادف أرواحاً أخرى. وكانت في فترة من حياتها تدمن ما يُسمّى "تحضير الأرواح"، ووقعت مرّة في صداقة روح طيّار ألماني قضى في الحرب الثانية، وراحت الروح تخبرها عن أمور حصلت بالفعل. سألتها مرّة ألا تخشين أن تفارق روحك الجسد فلا تعود، فلم تجب. ربما رفضت أن تتكلم عن الموت، هي المملوءة حياة وموتاً في آن واحد. كانت فتاة غريبة أو امرأة غريبة، في الرابعة والعشرين على ما ظننت لأنني لم أسألها عن عمرها. تقول إنها ورثت قدرات خارقة عن جدّتها الألمانية التي ماتت انتحاراً. وقد أقنعها أهلها منذ سنيّ المراهقة في الابتعاد عن "تحضير الأرواح" خوفاً من أن تنتهي مثلما انتهت جدّتها. ولكن أبعد من هذا، كانت فتاة من حلم، فتاة في حلم، فتاة حلمية، سواء في نظر نفسها أم في نظر "الآخر" عندما تطلعه على سرّها. فتاة غريبة كانت، لا أدري الآن أين أصبحت، هل حلمت مرة ولم تعد من حلمها، أم انها تغلّبت على غربتها الغريبة وتزوّجت؟ علاقتنا انتهت لحظة غادرت ولم يكن مرّ أسبوع على صداقتنا التي توطّدت فجأة خلال تلك الإقامة في إحدى العواصم العربية. تركت لي عنوانها لكنني عجزت عن التواصل معها بعد ذلك الفراق، أما هي فلم تبادر الى الاتصال بي. لقد كنت طيفاً عابراً في حياتها، مثل أطياف الرجال العابرين. كانت لديّ بضع صور لها التقطها صديق على شاطئ البحر، وكنت كلّما عدت الى الصور أستعيد تلك الأيام القليلة التي جمعتنا، وتلك الساعات التي أمضيناها وحيدين في غرفتها أو غرفتي نتحدث ونتحدث بلا ملل، وكانت تؤثر كتابة بضع جمل على دفتر تحمله في حقيبتها.

ومـا لبـث أن مضـى زمـن حتـى نسـيت الصور من غير أن أنسـى وجهها، بل كأنني شئت أن أتناسـى الصور فلا أقلّبها بين يديّ ولا أنظر اليها، تاركاً إياها تسقط في عتمة الذكريات.

تـرى هـل يكـون المـوت هـو الغرق في الحلم وعدم العودة منـه؟ كثيـراً مـا أخذنـي الخـوف من الغرق في الحلم، في أسـفل الحلـم، هنـاك حيـث لا تمكـن العـودة. كنت فـي فترة ما، أتخيّل المـوت ضربـاً مـن الحلـم العميـق الذي لا عـودة منه. كنت أنظر الى الحلم كما لو كان بحراً، بأصدافه وكائناته وأعماقه الغامضة. وأتخيّـل المـوت حـالاً مـن النوم العميـق، النوم الذي يبلغ منتهاه حتى ليستحيل النهوض منه، وبينهما يقوم برزخ الحلم وكأنه جسر يعبره النائمون ليصلوا الى حيث يصلون.

لـم يأخذنـي يومـاً التأويـل "العلمـي" أو "العلـم – نفسـي" للحلـم، مـع أننـي قـرأت من قبيل الفضـول معظم النظريات التي دارت حول الحلم، فهمت بعضها وتغاضيت عن بعضها مكرهاً. قرأت نظريات فرويد وأدلر ويونغ ووجدتني منجذباً الى الأخير. وإن كان الحلم رغبة في حال التحقق كما قال فرويد، أو إحياءً لمـا قُمِـع مـن رغبـات المـرء أو لمـا عجز المرء عـن تحقيقه من رغبات، فهو يظلّ عندي بعدما حلمت بما لا يحصى من أحلام، يظل، كما قال ابن عربي "بشـرى حصلت" و "أسـراراً أرسـلها الحـق". ولكـن ليسـت كل الأحـلام علـى هـذا الوجـه. فالرغبـة تتصاعد في أحيان وتنبلج في حلم شهويّ، أو في "حلم رطب" كما يقال في اللغة الانكليزية، وهو الحلم الذي يبلغ فيه الرجل لحظة الرعشة القصوى فيدفق منه المني وكأنّه يجامع امرأة، امرأة

غائبة، امرأة هي في المخيّلة لا في السرير. كان هذا التعبير (حلم رطب) أشبه باللقيا، ويرادفه بالعربية تعبير "استنوام" وكلاهما في منتهى الاستيهام. لكني لم أكن اعتبر الأحلام الشهوية من الأحلام الحقيقية، إنّها شبه أحلام، أحلام تطفو على وجه ماء النوم. إنها أحلام يقظة للأحرى، فانتسمات أو هوامات أو أحلام مستيقظة يبصرها المرء بحسب رغبته وكما يحلو له.

في مقتبل المراهقة كنت أتخيّل، وأنا على حافة النوم، أنني أضمّ فتاة أحبّها، وكانت هذه اللحظات المتوهّمة تستحيل حلماً "رطباً" سرعان ما يتلاشى عندما أستيقظ وأذهب الى الحمّام لأغتسل. ربّما من هنا كان إطلاق صفة الشرّ في الأديان على مثل هذه الأحلام التي تشبه الأحلام وتختلف عنها. وكنّا نتباهى، نحن الصبية في ذلك العمر، بهذا الاستنوام الذي كان يحقق رغباتنا غير الدفينة ويجعلنا نتذوق فعل الحب ولم نكن بعد لمسنا فتاة. وكان الكاهن ينبّهنا أن مثل هذه الأحلام ضرب من الخطيئة التي تستحق فعل الاعتراف. والاعتراف يعني أن تركع داخل ما يسمّى "كرسيّ الاعتراف" وهو أشبه بخزانة ذات بابين يفضيان الى جدار واحد يملأه ما يشبه الثقوب المربّعة، الكاهن يجلس في ناحية والمعترف يركع في ناحية أخرى. وكان الجدار يتيح للكاهن أن يسمع صوت المعترف يدلي بخطاياه من غير أن يبصر وجهه جيداً، لا سيما عندما تزاح الستارة ويحلّ ما يشبه العتمة الخفيفة. كانت هذه العتمة تخيفنا قليلاً ولكن سرعان ما كانت تتلاشى في اللحظة التي ننهض فيها لنصلّي ركوعاً ما فرض علينا الكاهن من صلوات، تكفيراً عن خطايانا. وكان الكاهن مؤتمناً

على هذه الخطايا مهما عظمت، ولم يكن يخبر بها أهلنا. وكان يقال إن الزوجة إذا اعترفت بخيانة زوجها كان على الكاهن أن ينام على السرّ ويعاقب الزوجة بما لا يحصى من الصلوات والفروض الدينية، ويعظها بعدم الوقوع مرّة أخرى في الزنى.

تعبر الذكريات عينيّ كغيوم في سماء زرقاء. ما الذي يجعل هذه الذكريات تستفيق من نوم الأعوام البعيدة. الذكريات لا تنطفئ مهما عصفت بها رياح العمر. وذاكرة الماضي البعيد تظلّ هي الأقوى. إنني أتذكر ماضيّ أكثر مما أتذكر الأيام الأخيرة التي برحت. إنني أتذكر الأمس ولا أذكر ما حصل أمس . الأمس الذي هو الماضي، وأمس الذي هو البارحة. إنها "أل" التعريف القادرة على هدم الزمن بلحظة وعلى جعل المجهول معلوماً.

لم أكن أبالي كثيراً بأحلام اليقظة أو الأحلام المستيقظة. كنت ألجأ الى هذه الأحلام في أوقات الصباح أو في أحايين القيلولة بعد الظهر حين يحلو النوم ولو انخطافاً لدقائق. أغمض عينيّ وأحلم، أفرض على نفسي الحلم وأرسم له ما يشبه السيناريو، وكأنه شريط بالأبيض والأسود حيناً وبالألوان حيناً. أحلام ليست بالغريبة، أجعل من نفسي فيها البطل والحالم في آن واحد، وأسفح رغباتي مثل قارورة عطر، متخيّلاً ما أشاء بحرية تامة. وفي أحيان كانت بضع رغبات تفرض عليّ أحلاماً كنت أستسلم لها، مدركاً أنها ليست سوى أضغاثٍ، لن تتحقق حتى وإن توهّمت أنها تحققت. المخيّلة هي التي تمنحني في مثل هذه الأوقات القدرة على صنع أحلام لا ترقد فيها العين بل تظلّ مفتوحة ولو أغمضت الجفون. مخيّلة رهيبة لا يعرف

المرء ماذا يمكنها أن تمنحه إن أدرك سرّها. يصبح المرء خالقاً بدوره، سيداً، بطلاً أسطورياً، عاشقاً من طراز شهريار، سفّاحاً أو قاتلاً، نبياً أو قديساً... ولكن بالوهم والتوهّم. كم حملت نفسي على الحلم بأنني قاتل، مرات ومرات، أنا الجبان الذي يعجز عن قتل نملة، كم قتلت بالوهم خلال الحرب عندما انفجرت في النفوس الرغبة في القتل، كم تخيّلت نفسي قاتلاً، أطلق النار على الأعداء. ولكن أيّ أعداء؟ لم أكن أعلم جيداً مَن هم. المهمّ هو القتل الذي كان يسمح لنا في الانتقام، دون أن نعرف لمن ننتقم وممّن ولماذا. لكنني لم أكن أنهي الحلم اليقظ الذي أبصر نفسي فيه قاتلاً حتى يخامرني شعور بالخوف من نفسي. أنا شخص جبان غير صالح لأن أكون قاتلاً، أو مقاتلاً أو عسكرياً. وأذكر كيف وبّخني الضابط مرّة أيام الدراسة في الساعة الأولى لنا في التدريب العسكري، عندما سألته إن كان يمكن اعفائي من هذا التدريب الذي كانت تفرضه الدولة قبل الحرب، على الطلاب الثانويين. نظر اليّ شزراً وأهانني وعاقبني متهماً إياي بالجبن والخيانة. كنت أكره البندقية الصغيرة التي كانوا يجبروننا على حملها وعلى تنظيفها وعلى التدرّب عليها رمياً بالرصاص. كنت أكره الجزمة السوداء والثياب الخضر والقبعة. كنت أكره فكرة العسكر. وأذكر - يا للمفارقة - أنني كنت في سيارة الأجرة عندما أوقفنا حاجز حزبيّ (لئلا أقول: طائفي)، غداة اندلاع الحرب الأهلية، وإذ نظرت وجدت الضابط الذي وبّخني في المدرسة يقف قرب المقاتلين وكأنّه رئيس الحاجز، خفضت ناظريّ ولم أرفعهما إلا بعدما أكمل السائق سيره. ضحكت من ثمّ وتذكّرت

جيداً العقاب الذي حلّ بي ولم يكن مضى عليه أكثر من بضعة أشهر. ولكن لا أخفي أن منظر المقاتلين بأسلحتهم ولحاهم كان يغرينا، نحن فتية الحيّ، الذين تخطّوا بالكاد سنيّ المراهقة، شبه متأخرين. كنا نجد في المقاتل صورة الشاب الذي تحرّر من سلطة الأب وأصبح رجلاً. والمستغرب أنني لم يكن لديّ أب لأتحرّر من سلطته، ومع ذلك كنت أعجب في أحيان بهؤلاء المقاتلين. وعندما كانت تُعهد إلى الرجال مهمة حراسة الحيّ من الأغراب كنا نحن الفتيان نرافقهم، ونحرس معهم، حاملين سلاحهم لأوقات قصيرة، وكنت أؤثر أن أحرس بلا بندقية على رغم أنني كنت أحبّ شكلها. وبلغ بي جبني شأوه حتى أنني لم أجرؤ خلال أعوام الحرب الطويلة، على إطلاق رصاصة واحدة ولو في الهواء. أجل، انتهت الحرب الطويلة ولم أطلق رصاصة. كنت أخاف صوت الرصاص أكثر مما أخاف الرصاص. كنت أخاف الرصاص مثلما أخاف صوته، مثلما أخاف دوي القذائف التي كانت تتساقط علينا. وأذكر كيف أصبحت مدمناً ما يُسمى كرات "كييس" الفرنسية التي لولاها لأصبت بجنون القصف. إنها كرات من شمع كنت أضعها في أذنيّ فتحول دون سمعي دويّ القصف وأزيز الرصاص. كانت هذه الكرات ترافقني في الحرب ولم أكن أستطيع النوم من دونها حتى في الملاجئ التي كنا نتنقل بينها. وعندما انتهت الحرب وخرست المدافع ظلّت هذه الكرات ترافقني بعدما أصبحت كأنها عضو مجهول مني. وكنت كلّما كبرت ازداد جبناً. وأذكر كيف كنت في الأعوام الأخيرة للحرب، من أوائل المختبئين عندما يبدأ القصف الذي

لم يكن يرحم البشر ولا البيوت ولا الأشجار... وكنّا نتسلّى في أحيان في عدّ القذائف، لا سيّما قذائف "الراجمات" التي كانت تُسمّى بالفرنسية "أورغ ستالين". ويا لهذا "الأورغ" الذي حمل إسم هذا الرجل الرهيب. لا أريد أن أتذكر الحرب والأعوام التي حذفتها من عمرنا. كانت حربنا حروباً وعمرنا كان أعماراً ومراحل حياتنا كانت أشبه بمراحل الجلجلة التي مشى المسيح على دربها حاملاً الصليب على كتفيه.

لا أريد أن أتذكر الحرب، إنني أكرهها. لكنّ طعمها المرّ لا يفارق شفتيّ، أجل شفتيّ، ولا سوادها عينيّ. كنت في العامين الأولين، عامَي الحرب اللذين صنعا مرحلتها الأولى، أشعر أن "شيئاً" ما انكسر فيّ. لم أكن أعلم ما هو هذا "الشيء"، لكنني كنت على يقين أننا فقدنا الأمان أو الطمأنينة. هل تقوم حياة دون طمأنينة؟ فقدنا أيضاً الهناءة التي كنا نحتاج إليها كثيراً في أعوام الفتوّة. قضت الحرب على آمالنا، وبتنا نعيش كما لو أننا أمام جدار لا نعلم ما وراءه. بتنا نعيش في حال من الانتظار دون أن ندرك تماماً ماذا ننتظر. نهاية الحرب؟ كيف ستنتهي؟ مَن سينتصر فيها، نحن أم هم؟ ومَن نحن ومَن هم؟ ومع أننا كنا نتحمس أحياناً لهذه "النحن" متابعين أخبار المعارك وما توافر من مشاهد أو صور لها، لم تكن المرارة تفارقنا. لقد فقدنا الطمأنينة، نحن الذين لا يمكننا العيش من دونها. وأعتقد أنّ هذا الجرح الذي أحدثته الحرب فيّ لم أقدر على أن أشفى منه. جرح لم يندمل البتة حتى بعدما انتهت الحرب أو بالأحرى المعارك. فحربنا هي من الحروب التي لا تنتهي ولو سكتت مدافعها.

والسلم الذي نعيشه ليس بسلمٍ حقيقي لأنّه يخفي في ثناياه جمر الكراهية والخوف والحقد الدفين. لست متشائماً ولم أكن يوماً من المتشائمين. لكنّ جرح الحرب صبغ عينيّ بحمرة كامدة ما برحت ترنّقهما، حمرة لم يقدر أن يزيلها ضوء أو بهجة. إذا لم يكن هذا الوطن لنا نحن أبناءه الغرباء، فلمن تراه يكون؟ لبنان ليس لنا، ولو لم يكن هو وطناً لنا، لما اخترته وطناً. لست بخائن لكنّني لست بوطني. لقد سئمنا. هذا وطن يدعو الى السأم. هذا ليس وطناً، بل فكرة جميلة عن وطن تظل فكرة لشدّة جمالها. كأنّ لبنان لم يكن يوماً، بل كان ظلاً لوطنٍ مفقود. الحرب زرعت فينا شعلة الشك هذه. أيكون وطن هو دوماً على حافة لا أحد يعرف ما وراءها وما أمامها؟ لم تفارقني هذه النظرة المنكسرة الى هذا الوطن الذي هو منفى ووطن وليس هو منفى ولا وطناً. لو كان لبنان منفى لارتحنا فعلاً وقلنا ها نحن لا وطن لنا. لكنه وطن بصورة منفى أو منفى بطموح وطن. لقد تعبنا. لقد تعبت.

لا أنسى كيف كنت حائراً عشية الحرب. كان لي من العمر ستة عشر عاماً، وكنت في السنة الثانوية الأولى. كنت حائراً في أمري أو عاجزاً عن تحديد انتمائي الحزبي. كانت الحزبية ظاهرة رائجة جداً ما قبل الحرب وقلّما نجد شاباً لا ينتمي الى حزب. اللاحزبيون أنفسهم كانوا يميلون الى حزب دون آخر. كنت متأرجحاً بين اليمين واليسار ولم أحسم أمري يوماً، حتى في أعوام الحرب عندما انتشرت خطوط التماس، كنت يمينياً ويسارياً في الحين نفسه، الأهل والأقارب وأبناء البلدة من جهة، والرفاق أو الأصدقاء من جهة. ظللت حائراً بين هاتين الجهتين،

بين الطائفة التي نشأت فيها والحرية التي كنت أصبو إليها، بين العائلة التي لم أكن قادراً على الخروج منها واليسار الذي كنت أرى فيه المثال الذي لا بدّ من اعتناقه. لم أحسم أمري يوماً، يمينيّ بهاجسٍ يساريّ ويساريّ بجذور يمينية. ولو أن الحرب تأخرت سنتين أو ثلاثاً لكنت حتماً في صفوف اليسار. وما كنت لأمكث طويلاً في صفوفه بعد أن حصل ما حصل. لعلّ شخصاً مثلي كان مهيّأ فعلاً ليحلم ويسعى الى تحقيق حلمه، منتقماً من ماضيه ومن الحياة نفسها والعالم. لم أكن كائناً سياسياً ولم أمل يوماً الى قراءة الكتب العقائدية التي كانت توزّع علينا، لا سيّما تلك التي تضمّ نظريات أيديولوجية واقتصادية، لكنني كنت أشعر أنني يساري بالسليقة، يساري هو يميني بالنشأة. وأعترف أنني كنت أضجر خلال الندوات واللقاءات الحزبية التي كانوا يدعوننا إليها، وأسأل نفسي ماذا أفعل هنا، أنا الكائن الديني الذي لا يمكنه أن يتصور الإنسان دون روح، والعالم دون خالق والحياة دون رحمة. أحببت الشيوعية لكنني لم أستطع أن أكون شيوعياً. نشأت يمينياً لكنني لم أستطع أن أمكث تحت سقف اليمين. كنت مسيحياً وعلمانياً إلى أن أصبحت بعد أعوام كائناً دينياً تمتزج فيه الأديان على طريقة الحلاّج، كائناً مقتلعاً لا ينكر ماضيه ولا يعترف به. إنني كائن البين بين، الكائن الذي يحب مثلما يكره، المؤمن والمشكِّك، اللاأدْريّ الذي عينه الى السماء، المسيحيّ بحرية تامة، وعلى طريقته التي لم يكن ليرضى عنها أحد، لاسيّما صديقي الكاهن الذي كان رفيقي في المدرسة. وكان كلّما عرضت له أفكاري يتحسّر ويأسف على حال الضياع الذي أعيشه. لكنّه لم يكن

قادراً على بغضي. كنّا صديقين حقيقيين منذ أيام المدرسة. إنني الكائن الخائب الذي أدرك أنّ تغيير العالم ليس إلاّ فكرة جميلة، فكرة يستحيل تحقيقها من فرط جمالها. ولم يكن أمامي إلاّ أن أدع العالم يغيّر نفسه كما يحلو له. لا أحد يغيّر العالم، لا أحد يغيّر الحياة. كلّ ما أستطيع أن أفعله هو أن أغيّر نفسي، إن كان لي أن أغيّرها.

لم أستطع أن أصبح كائناً سياسياً مع أنّني كنت أشعر دوماً بحاجة للانضمام الى جماعة أو حزب. كنت أحتاج إلى الآخرين لكنّني لم اكن أعرف من هم هؤلاء الأخرون. أحتاج إليهم يحمونني من غير أن أعلم ممّا عليهم أن يحموني. لم نكن نعرف في بيتنا ما هي السياسة. حتى والدي أشك في انّه انتمى الى حزب أو جماعة. لم يكن أبي، بحسب ما فهمت من أمّي، يهوى السياسة ولم ينحز يوماً الى زعيم. لم يكن يهمّه إلاّ شأن العائلة. كان طيّب القلب، سموحاً، لا يعرف الحقد ولا البغضاء. هكذا كان يقول عنه أصدقاؤه وهم قلّة. ولا أدري إن كان والدي تعلّم، مع أنّه كان يجيد القراءة. ولكن لا أذكر أنّني أبصرته يوماً يحمل جريدة. وبيتنا كان دائماً خلواً من الصحف والكتب، ما عدا الكتاب المقدّس.

لو سئلت مَن هو أبي لقلت: لا أعرف. أعرف فقط أن شخصاً يُدعى قيصر كان والدي. ولا أدري ماذا أخذت عنه. الجيران يقولون إنّني على شبه به، وكلما نظرت إلى صورته أجد نفسي عاجزاً عن إدراك هذا الشبه.

في مثل هذا الجوّ الذي تخيّم عليه حال من الأسى الشفيف،

هذا الجوّ الأمومي المائل الى الرقّة، كان يستحيل عليّ أن أتحمّس لحزب أو زعيم مثلما كان يتحمّس رفاقي متأثّرين بآبائهم. وكنت أماشيهم أحياناً في حماستهم هذه، من غير أن نفقه جميعاً معناها. وكنت أردّد بعض ما كانوا يتفوّهون به نقلاً عن أهلهم. وأذكر كيف كانوا يصفّقون للطائرات الإسرائيلية عندما كانت تجتاز سماء وطننا، وكيف كانوا يسخرون من جمال عبد الناصر، الذي لم نكن نعلم مَن هو تماماً، وكنا نسمع إسمه على شفاه أهل الحي الذين كانوا يكرهونه. وأذكر جيداً، عندما توفّي عبد الناصر، كيف تدفّق سيلٌ من البشر في تظاهرة رهيبة ومرّوا أمام بيتنا. وكنا نحن الصغار نقف وراء النافذة ننظر إليهم بخوف، زرعه فينا أهل الحيّ. وما زلت أحفظ تلك الجملة التي كانوا يردّدونها: "قومي ذيعي يا بيروت، عبد الناصر ما بيموت". كان المسيحيون أو الموارنة في الحيّ يحبّون إسرائيل ويكرهون العرب. وكلمة عرب كانت تعني لهم الإسلام. هذا ما أذكره جيداً. كانوا يقولون إن إسرائيل هي التي ستدافع عنا إذا أحدقت بنا الأخطار. وكنت أسمع جاراً لنا، مارونياً يقول: "إن كان اليهود صلبوا مسيحكم فكيف سيُحبّونكم؟ أنتم رجعيّون وطائفيّون". ولم أعلم إلاّ لاحقاً أن هذا الجار المسيحي كان قومياً سورياً.

في تلك الأعوام لم أكن أستوعب جيداً ما يدور من حولنا. وما زلت أذكر ما كان يفعل صبية آخرون في الحيّ لم يكونوا من رفاقنا. كانوا يمزّقون العلم اللبناني ويطأونه بأقدامهم. كان هذا المنظر يحيّرني كثيراً، فالعلم كان رفيقنا في المدرسة والحفلات الوطنية، وكنّا كلّ يوم نقف أمامه ونؤدي النشيد الوطني. لكنّ

أحـد أقاربهـم، وهـو رجـل عجـوز، كان يؤنبهـم بصوتٍ عالٍ، ثم ينهال عليهم ضرباً بقضيب من خيزران.

أذكر أيضاً أنّنا خفنا كثيراً عندما راح أهل الحيّ يطلون زجاج نوافذهم بمادّة نيلية اللون، خوفاً من الغارات الاسرائيلية. وأذكر كم كان جميلاً منظر الزجاج بهذا اللون لا سيّما في الليل عندما تضاء المنازل. ولم نعلم حينذاك أنّ النوافذ طليت بهذه المادّة لئلا يهتدي به الطيّارون الإسـرائيليون في الليل ويقصفوا بيوتنا. ولم أكن أدري لماذا كانت الطائرات تُغير في الليل، وسـط السـكون التام. أتذكّر هذا المشهد وكأنّه لمحة سريعة في حلم. وكنت كلّما شاهدت جدّتي لأمّي تغسل الثياب في اللكن بماء نيليّ أتذكّر ذلك المشهد. ففي القرية، قريتها، كانت النسوة يستخدمن هذه المادّة النيلية في غسل الثياب كي تنقّيها. وكنت أسمع جدّتي تتحدّث مع جاراتها عن أمر ما زال يحيّرني. كنّ يقلن إن رائحة المسيحيين تختلف عن رائحة المسـلمين. فالمسـيحيّون حين يُعمّدون بالماء المقدس والميرون تصبح لهم رائحة لا تفوح من الآخرين، الذين هـم المسـلمون طبعـاً. وكان الكثيـرون يصدّقـون هذا الأمر ببراءة أو سـذاجة تامّـة. هـذه الجملـة لـم تفارق ذاكرتي، وكلّما تذكّرتها أضحـك. وأذكـر كيـف أنّنـي اقتربـت مرّة من ابـن جيراننا محمد ورحت أشمه ووجدت أن رائحته مثل رائحتي تماماً. لم يكن من اختلاف بين رائحتينا مع أنّه لم يُعمَّد. وعندما فوجئ بي أشمه لم أقل له لماذا، ولم أخبره عن المعمودية التي كانت من أسرارنا. لا أدري أين أصبح محمد الآن ولا أين أصبح والده أبو محمد الذي كان يملك دكّاناً يبيع فيه الصحف والمجلات علاوة على

المواد الأخرى. وكنّا نقضي ساعات في الدكان، محمد يساعد والده في البيع وأنا أقرأ الجرائد والمجلات. وهناك، في هذا الدكّان اكتشفت زاوية "بريد" القراء التي رحت فيما بعد أنشر فيها مقطوعات وجدانية تشبه "مواضيع" الإنشاء التي كنّا نكتبها في المدرسة. وكانت هذه الزاوية، زاوية "البريد" منطلقي الأول في عالم الكتابة.

كنت أحبّ جدّتي لأمي كثيراً. كانت تحنو علينا وكأنّها أمّنا. ولا أنسى كيف كانت "تشرب" العرق كأساً تلو كأس. وكانت تخبرنا كيف كانت في صباها تتحدّى الرجال في "شرب" العرق، فتنهي قنينة منه دون أن تسكر، بل كانت تنهض عن كرسيّها وتمشي وتخدم الزبائن في المطعم الشعبي الذي كان جدّي - زوجها - يملكه في قرية دوما، وهي إحدى أجمل القرى في البترون، بيوتها الحجر يعلوها القرميد الأحمر، وأزقتها تتعرّج وعلى جانبيها دكاكين قديمة ومحالّ يقصدها أهل القرى المجاورة للتزوّد بما يكفيهم طوال الشتاء الذي غالباً ما يكون قاسياً، بعواصفه وثلوجه. لم يكن جدّي كما روت لنا أمي يُحسن مهنته، وكان يقضي معظم النهار مع أصدقائه في المطعم، يحتسون العرق البلدي ويلعبون "الورق" ويتحدّثون في السياسة ويستمعون الى الراديو يبث الأخبار والأغاني. لم تخبرنا أمي عن الأغاني التي كانوا يستمعون إليها، فهي كانت صغيرة جداً. أما جدّتي فكانت تعمل في سجن النساء في القرية، فهي كانت قوية، فارهة وصلبة العود. وقد أوكلت إليها مهمة الإشراف على النسوة السجينات، وكانت المهمّة هذه تقتضي منها تأديبهنّ في أحيان، عندما يعصين أمراً

أو يتعاركن ويتضاربن. كانت أمي تشاهد أمها تنقضّ على هؤلاء النسوة، تُمسك شعورهنّ وتضربهنّ بيديها صارخة بقسوة. وكانت النسـوة يخشـينها كثيراً لأنها لم تكن تهادنهنّ. روت جدّتي مرّة إلى إحدى الإذاعات أخبار سجن النساء في تلك الأعوام، وكان من بينها طرائف فريدة. وقد أضعت الشريط الذي كان بمثابة كنز يفيض بالحكايات البديعة. وأذكر شخصياً عن جدّتي، كيف أنها قبضت مرّة على سارق دخل منزلها المجاور للبستان. كانت نائمة في سريرها قرب النافذة، فأيقظتها جلبة في الخارج، فانسلّت من الفراش وخرجت من باب خلفيّ صغير يطل على البستان، ومشت بهدوء نحو النافذة الكبيرة التي كان يدخل السارق منها وانهالت عليه ضرباً بحجر التقطته عن الأرض، فراح يصرخ بصوت عالٍ وسـرعان ما فرّ. كنّا نحن ننام في غرف أخرى واسـتيقظنا على صراخه وصوت جدّتي تشـتمه. وأذكر أنني رحت أرتجف خوفاً عندما علمت أنّ "الحرامي" كاد يدخل البيت. خرج أبناء خالتي الى الباحة في الخارج وتجمع الجيران وارتفعت الضحكات في قلب الليل. كان القمر في وسـط السـماء، ضوؤه الفضي يعكس ظلال الأشجار والقامات. كانت جدّتي تخبر كيف ضربته بالحجر وقالت إنها "فدغته" ربّما، لأنّه صرخ بشدّة.

هذه الحادثة جعلتني أُعجب بجدّتي كثيراً علاوة على حبي الكبير لها الذي ازداد بُعيد وفاة والدي. لكنني منذ تلك الليلة لم أعـد أجـرؤ علـى النـوم في بيت جدّتـي الذي كانت تقطنه خالتي وأبناؤهـا، مـع أنّنـي كنـت أحب هـذا البيت الحجر الجميل بغرفه الواسعة وقرميده.

هـذا البيـت، بيـت جدّتـي لأمي، كان أحـبّ بيت إليّ. منزل قديم، مبني بالحجر، سقفه من قرميد وحوله بستان تحتلّه أشجار البرتقال، وفي وسطه بركة ماء كبيرة. كان هذا البيت مرتع طفولتنا، بباحته الخارجية الفسـيحة وقنطرته. وكنا نسـرح في جوانبه، بين الأشـجار، نقطـف البرتقـال، ونفتـح مسـرب البركـة فيتدفّق الماء بقوّة.

كان عندنا بيت في الدكوانة، بلدتنا، يشبه بيت جدّتي، ورثناه عن شقيق جدّي. كان هذا البيت بفنائه وقنطرته وحديقته الواسعة فردوسـاً صغيـراً، أمضينـا فيـه ردحـاً من طفولتنا شـبه الريفية. لم يكـن البيـت بعيـداً مـن منزلنـا، لكننا لم نقطنـه، فحلّ به الإهمال حتى أصبح "خربة" كما يقال بالعامية. لكنّ غرفته العلوية ظلّت سليمة، بشبابيكها الخشب وبابها القديم. ولم تمضِ بضعة أعوام حتـى حرمنـا مـن اللعـب في هذا البيـت، بعدما وافقت أمي على تأجيره لرجل يعمل في النجارة، كان يسكن البلدة. كان يبغي أن يجعل منه مستودعاً للخشب، نظراً الى رحابته. ومنذ ذاك الحين بتنا نكتفي بالحديقة وأشجارها وبركتها.

أصبح البيت مسـتودعاً وأُقفلت شـبابيكه جيداً وأُصلح بابه خوفـاً مـن أيّ سـرقة قـد تحصـل. وكنـا نظنّ جميعاً أن في داخله أخشـاباً يسـتخدمها هـذا النجـار. لكـنّ المفاجأة كانـت كبيرة في بداية الحرب، عندما اخترقت بابه قذيفة وأشعلت فيه النار. كان بيتنـا هـذا يقـع علـى خطّ التماسّ بين مقاتلي الكتائب والمقاتلين الفلسطينيين. وكان أقرب الى الفلسطينيين منه الى أعدائهم. فهم كانـوا يطلقـون النـار مـن ورائه ويحتمون بجدرانـه المتينة. كانت

مضت أشهر على اندلاع الحرب، وكنا نحن ما زلنا نسكن بيتنا في المنطقة التي "يحكمها" الفلسطينيون. وعندما اندلعت النار في البيت دخله المسلّحون بغية إطفاء الحريق، لكنّهم فوجئوا بصناديق تحتوي في داخلها على أكياس من الحشيشة، حشيشة الكيف. كانت الغرف مملوءة بالصناديق، وراح المسلحون الفلسطينيون يُخرجونها وكأنها غنيمة حرب. وعندما سألوا أمّي عن الأمر قالت لهم إنها أجّرت البيت لفلان وهو من أهل دير الأحمر، البلدة البقاعية المعروفة بزراعة الحشيشة وصناعتها. لم يستطع المسلحون القبض على هذا "النجّار" الذي فرّ سريعاً، لكنهم استولوا على "البضاعة" كما كانوا يسمّونها. وأذكر كيف أننا قصدنا البيت، عندما أعلن وقف لإطلاق النار نمّ عن انسحاب المسلّحين الى مراكزهم، ورحنا نلمّ بقايا قطع الحشيشة المحترقة التي تركها المسلّحون. لم تكن هذه البقايا صالحة للاستخدام، بعدما احترقت ويبست.

ولم يمضِ أسبوع حتى صدرت، على ما أذكر، مجلّة "الحوادث" وعلى غلافها صورة لمسلّحين أمام صناديق وعنوان بالأسود العريض: "هل الحشيشة وراء حرب لبنان؟" عندما شاهدت هذا العدد ضحكت كثيراً. فأنا، ابن السادسة عشرة، كنت أعلم سرّ هذه الحشيشة التي لولا الحرب لما كان انكشف البتة.

كانت المرّة الأولى أشاهد فيها الحشيشة وألمسها بيديّ وأشمّها برائحتها الكريهة التي سبّبها الحريق. ولم تمضِ أيام حتى غادرنا بلدتنا مهجّرين الى جونيه. وهناك رحنا نعيش الحرب، من

بعيد، وكأنّها فيلم نشاهده، بألم وحسرة.

كنت أتحدث عن حلم اليقظة فما الذي قادني الى متاهة الذكريات، ذكريات الماضي الجريح؟ إنها الذكريات التي تكتبني، التي تحلّ عليّ وتنتهبني. ذكريات كأنها لم تكن، ذكريات كأنها ستكون.

كان حلم اليقظة فسحة حرّة أملأها كما أشاء. أحلم عندما يحسن لي أن أحلم وكيفما كان لي. الحلم اليقظ هو فعل رغبة تنبثق من الداخل أو من الضوء، ضوء الخارج الذي هو العالم. كان في إمكاني عبر تلك الأحلام العابرة دوماً مثل ماء النهر، أن أخلق عالماً على هامش العالم، عالماً في غاية الرقة، عالماً لا يمكنني أن أصفه، عالماً يمكنني فقط أن أعيشه. وكان يُهيّأ لي في أحيان أن الكتابة هي أقرب الى حلم اليقظة منها الى أي شأن آخر. يكتب المرء في أحيان ليحلم أنه يحلم، ليصنع عالماً لا يمكن أن ينهض إلا في مثل تلك اللحظة المتوهّمة التي يعيشها بحواسه كافة. عندما أبصر أنّ للأحرف ألواناً أو عندما أسمع الضوء ينبثق والظلمة تنحدر، عندما أتنسّم موسيقى الطبيعة الصامتة، ألستُ أكون فريسة حلم يقظة لا تخوم له؟ أليست الخرافات وحكايات الجن والأساطير من طينة أحلام اليقظة، تصنعها المخيلة وتنسجها ثمّ تصدّقها؟ كنت خلال أحلام اليقظة أشعر أنني منقطع عن العالم، انقطاعاً عابراً، أنني على شفا الهذيان أو الغيبوبة، هائماً، غير خاضع إلا لرغبات أو ملذات لم أكن أعلم كيف تدفق من الداخل، الداخل الذي هو القلب، الذي هو الرأس، الذي هو المخيلة أو الروح أو العالم السحيق... وعلى

رغـم ذلـك، أؤثـر الحلـم الذي أشـكّ دوماً إن كنت أنا أحلمه أو هو يحلمني. الحلم الذي لا يمكن أسره، الذي يهبّ كالريح في سماء زرقاء، الذي يشرق مثل شمس وسط الغمام، الذي يصعد مـن البحـر مثـل قمـر، الحلم الـذي هو الحياة، الذي هو الموت، الذي هو الحياة والموت ممتزجين امتزاج الضوء والماء.

حتى الأحلام التي كانت تعبر نافذة العين في لحظات الغفوة خـلال النهـار لـم أكـن أعدّها أحلاماً حقيقية. الأحلام تحتاج الى الليل لتكون أحلاماً، تحتاج الى عتمته لتسطع في غورها كنجوم، تحتـاج الـى فضائـه الـذي بلا غيـوم لتهيم في المطلق الأبدي. لا أذكر من سمّى الليل "قصر الرقاد" الذي تقطنه الأحلام. أتخيّله قصراً مفتوحاً، قصراً داخل قصر، قصراً يطل على قصر ثم على آخر فآخر... الى لا انتهاء. فالأحلام التي دأب البشر على الحلم بها منذ أن بدأوا يحلمون تحلّق في السماوات التي تعقب سماءنا. الأحـلام التـي نظنّهـا انتهـت عندما نفتـح عيوننا، تظل هائمة مثل مخلوقات أو صور لأناس هم أطياف بأطياف. كنت هكذا أتخيل الأحلام، أشباحاً تجوب الليل الذي كان منذ الأزل والذي يكون ملء الأبد، الليل الذي يندلع خلف الليل.

ما زلت أذكر كيف كنا في مطلع تشرين الثاني من كلّ عام، نقصد مقابر البلدة لنحتفي بـ "عيد الموتى" الذي كان يصادف "عيد جميع القديسين". ولم أستطع يوماً أن أفهم العلاقة بين العيدين وأيّ وشائج تربط بين الموتى والقديسين الذين ما كانوا في عداد الموتى، كما تعلّمنا في الصغر، والذين يحضرون في حياتنا، في الصباح كما في المساء، نخاطبهم ونصلّي لهم، سائلين إياهم الشفاعة.

كان ذلك اليوم من تشرين الثاني بمثابة ذكرى حزينة، لم تفتنا مرّة بعد وفاة والدي. كنّا نذهب الى المقابر حاملين الشموع والأزهار، وكان كاهن الرعية يقيم هناك قداساً عن راحة أنفس الموتى. كان يحلّ الصمت كما لو أنّ الباحة خالية تماماً، وكان يكسره حيناً تلو آخر بكاء يصعد من هنا أو نشيج من هناك، وكانت النسوة هنّ اللواتي يرفعن تأوهاتهنّ مرفقة بالصلوات وكأنّ اليوم يومهنّ. الرجال والأطفال ما كانوا ليبكوا.

كان يوم "تذكار الموتى" كما يسمّى أيضاً، يوماً كئيباً، شاحباً كشمس الغروب. كانت أوراق شجر الصفصاف تميل الى الصفرة وتتساقط لتفرش الأرض بغطاء كان يخشّ تحت أقدامنا. وكنا نمشي برهبة وربّما ببعض من الخشية، فعن يميننا واليسار، صور وشواهد وتماثيل لم نكن نجرؤ على النظر إليها

كثيـراً، مـع أنّ الزيـارة كانـت تتكرّر كلّ عام. كان الهواء يهبّ من وراء السـور الذي تنتصب أمامه أشـجار سـرو تتمايل بهدوء في حمرة الشفق. هذه السروات تظلّ على حالها عاماً تلو عام، تشقّ السـماء بقاماتها الرفيعة، ورؤوسـها المسـنّنة. كان منظرها جميلاً ولو باتت تمثّل في ذاكرتنا صورة الموت. كنت أتخيّلها كائنات تحـرس الموتـى الراقديـن الذين كانـت تهبّ أرواحهم كالأطياف عندما يحلّ بهم السأم داخل حجراتهم الضيقة. هذا ما كنا نعتقد به وما جعلنا نخاف شـجر السـرو، الفائح برائحة الموت. كانت رهبة الجوّ أقسى من أن نعتاد عليها، ولم نكن نصدّق أن القدّاس انتهى وصلاة الجنازة التي تليه، لنخرج سـراعاً الى العالم الذي ينتظرنا خارج السور. كان الهواء يهبّ محرّكاً الأوراق والأغصان ولافحـاً شـعلات الشـموع التـي يزرعهـا الزائـرون أمـام الأبواب الحديد السوداء وتحت الصور. لم تكن كلّ المقابر مزيّنة بالصور والتماثيل. والصور غالباً ما كانت لشبّان قضوا باكراً. ونادرة كانت صـور الفتيـات. وبعـض الصـور كانت مضـاءة بمصابيح كهربائية ولـم أعلـم إن كانـت تضـاء طـوال العـام، وفي الليالـي الماطرة. كانت النسوة يركعن أمام المذبح ويغرقن في الصلاة، مغمضات أعينهـنّ. وعندمـا ينتهـي القـدّاس المقام في الباحة كن ينتقلن الى قبور أمواتهنّ. كانت الأم الثكلى تُعرف للحين، فهي سـرعان ما تركع أمام صورة ابنها الذي لم يكبر، وتستسلم للبكاء الغزير وكأن ابنها الوحيد توفّي البارحة. أما الأرامل فكان لهنّ مظهرهنّ وكنّ غالباً يصطحبن أولادهنّ الذين أصبحوا أيتاماً. وكنت واحداً منهم، أحمـل الشـموع وأصفّهـا ثم أشـعلها. وكلمـا أطفأ هواء الخريف

شـمعة أشـعلها مرة أخرى. وفي أحيان كانت السـماء تمطر، ولم يكن أحد يبالي ولو بلّله الماء. كان أكثر ما يشغلني أن أرى صور الفتيـان الراحليـن المعلّقـة على واجهـات المقابر، وبعضها موزّع كما على مذبح صغير. كانت أمهات هؤلاء يشخن بسرعة، بينما الشبّان الراحلون لا يزالون على يفاعهم في الصور، نظراتهم هي نفسـها، ابتسـاماتهم، والحيرة التي تسـكن عيونهم. أولئك الذين كانوا ذات يوم، ما برحوا ما كانوه ولكن في الصور. كنا نخاف أن نحـدّق طويـلاً فـي تلـك الصـور ولا أدري حتـى الآن لمـاذا، مثلما كنا نخاف التحديق في وجوه الموتى الذين كانوا يمدّدون على الأسرّة، مع أن النسوة كنّ دوماً من حولهم. كم تتغيّر وجوه البشر عندما يموتون. ليس لأنهم، بعيونهم المغمضة والقطن الذي في أفواههم يغفلون عمّا حولهم، بل لأن وجوههم نفسها تتغير، تصبح وجوهاً لأشخاص آخرين، أشخاص كانوا، أشخاص كأننا لا نعرفهـم. أمـا صورهـم فكانـت تحفـظ وجوههـم، وجوهاً لهم نتذكّرها أو تذكّرنا بها الصور نفسها وكأنهم لم يغيبوا. كأن الموتى لا يصبحون موتى حقيقيين إلا عندما ترتفع صورهم. وكم كنت أتألم عندما أنظر الى صور أصدقاء أحبّهم، فأتخيّلهم عنوة كأنهم راحلون. كم كنت أخاف من تلك الهواجس أوالكوابيس، كوابيس اليقظة التي طالما انتهبت رأسـي. إنها النفس الأمّارة بالسـوء. أو لعلّها الصورة نفسـها وقد ارتبطت في مخيّلتي بالموت، منذ أن استـيقظت علـى صـورة أبـي الميـت، معلّقة علـى الجدار. وكنت أشـعر أنّ صـور الأشـخاص تتبـدّل عندمـا يمـوت هؤلاء. ملامح وجوههم تتبدّل، نظراتهم، ابتساماتهم والكلام الذي لم يسقط عن

شفاههم. وكنت أتخيّل الرفاق البعيدين الذين في الصور كأنهم موتى، أنظر اليهم صامتين في صور التقطت لهم وهم في مقتبل الحياة. لا أعلم من أين كانت تأتيني هذه الانطباعات الغريبة عندما أنظر الى صور أناس أعرفهم، رفاقاً أو أصدقاء هاجروا أو ابتعدوا. كأن الشخص في الصورة ظلّ شخص مات للحين ولو لم يمت، ولو عاش طويلاً. وأعترف أنني كنت أخاف عندما أنظر الى صور الرفاق، فأتخيّلهم عنوة أشخاصاً رحلوا. الصورة تخيف مهما حملت من ذكريات جميلة. الصورة تصبح ذكرى منذ لحظة التقاطها.

كان "يوم الموتى" شبه مقدّس. فالموتى، كما كان يتهيّأ إليّ، ينتظرون هذا اليوم ليستيقظوا من رقادهم وينهضوا ويستقبلوا أحبّاءهم من غير أن يخرجوا عن صمتهم الأبديّ. لكنني كنت أنظر ولم أكن أرى إلا صوراً أظنّها تتكلم بلا صوت، ووجوهاً ترفّ عيونها. كان الزائرون يتحيّنون الفرصة ليتكلموا مع موتاهم بصوت عالٍ أو خفيض. وكانت بضع نسوة يطلن الكلام تبعاً للشوق الذي يعتمل في قلوبهنّ وهنّ مدركات تماماً أن موتاهنّ يسمعونهنّ. وكان يحلو لجارة لنا مات ابنها غرقاً أن تروي له في هذا اليوم ما حصل لها خلال عام وكأنّه آتٍ من سفر.

في ذلك اليوم الخريفي الحزين كانت المقابر تتزيّن بالورود والزنابق والشموع وكأن عيد الموتى يعني أن تزهر القبور وأن تضاء وتخرج من صمتها الثقيل. كان ذاك اليوم هو يوم الأحياء أكثر مما كان يوم الموتى. فالزائرون هم الذين يتذكّرون ويواسون أنفسهم ويفون وعوداً قطعوها على أنفسهم بعدم نسيان موتاهم.

إنــه وفاؤهــم للراحليــن الذيــن يتمنّــون بالسـرّ أن يحصلوا على ما يماثله يوماً، بعد أن يغمضوا عيونهم الى الأبد.

كانت بعض العائلات تتباهى بمقابرها، تسخى عليها، وتعمل على تزيينها، وتعهد الى "خادم" المقابر - لم نسـمّه يوماً حفّار قبـور كمــا فــي القصــص - مهمة تنظيفهــا وكنس أرضها. وكانت مقابـر العائـلات الثريـة تُعرَف للفـور، برخامها اللامع أو تماثيلها أو ضخامتهــا. أمــا مقابـر العائـلات الوديعـة فكانــت عادية وغالباً مـن حجـارة مطليـة بالأبيـض. وكان في إحدى زوايا الباحة مقابر صغيرة غالباً ما تكون مهملة وكانت تسمّى مقابر الغرباء أو مقابر الفقـراء، وكانــت تؤجّـر موسـمياً للذين لا يملكـون مقابر عائلية. وهذه قلّما كانت تضاء أمامها الشموع أو يقصدها زائرون ليصلّوا أمامها. فالموتى المدفونون فيها كانوا "يتبدّلون"، وكلّما امتلأت أُفرغت من بقايا العظام التي كانت ترمى في بئر. وكانت العائلات الفقيـرة فـي البلـدة، العائـلات التـي كان أمواتهـا يُدفنون في هذه المقابر "العمومية" كما تسمّى أيضاً، تخجل من زيارتها أو ربّما تأنف، لعدم يقينها من أن موتاها ما زالوا هناك أو رُموا في البئر. كان هـؤلاء الفقـراء يشـعرون حقـاً بأن موتاهـم غابوا لأنهم كانوا بـلا مقابـر. أمـا الآخـرون الذيـن كانوا يملكون المقابر فيشـعرون أن أمواتهم لم يغيبوا وأنهم ينتظرون هذا الموعد كل سـنة. ولم يكن تزيين المقابر إلا تأكيداً لعدم موت هؤلاء الموتى كما يرجو أقاربهم.

أذكـر كيـف كنـا نعـود بعـد الزيارة، بقلوب يسـكنها الأسـى ونظـرات خفيضـة. فهـذا اليـوم كان يفتـح جروحنـا فنتذكّر رحيل

الأب وكنا نتألم بصمت، وننظر الى السماء بحيرة، مع أن هذا اليوم كان أيضاً عيد القديسين، جميع القديسين الذين يستحيل احصاؤهم، والذين كانوا يرافقوننا دوماً، لا سيما عبر الصلوات التي كانت ترفعها جدّتي أو أمّي. وكانت صور القديسين تضيء سماء البيت، بعضها معلّق على الجدران وبعضها متكئ على ما يشبه المذبح الصغير.

إلا أنّ أمّي لم تكن تنتظر هذا اليوم لتتذكر فقط موتانا، أبي وشقيقتي وجدّي وجدّتي وبعض الأقارب، بل هي كانت تعهد أيضاً الى الكاهن أن يرفع القداديس عن أنفسهم أو لراحة أنفسهم كما يُقال، ويصلّي لهم مقابل مبلغ ضئيل من المال كانت تقدّمه إليه. أما أغرب الصلوات التي كانت أمي تؤديها فهي صلاة الأنفس "المنقطعة". ولم أفهم معنى هذه الصلاة إلا بعد فترة. إنها الصلاة لراحة أنفس الموتى الذين لم يبق لهم أحد يصلّي لهم ويذكرهم، وكانت أمي على قناعة أنّ من يصلي لهذه الأنفس "المنقطعة" والمجهولة يكون له أجر في السماء. وعندما أستمع اليوم الى "جنّاز" موزار أو باخ، أتذكر هذه الأنفس وكأن الموسيقى هي أجمل قداس يُرفع لراحة الأنفس التي لا يذكرها أحد.

أما صلاة الجنازة فلم أنسها يوماً، من كثرة ما كنّا نردّدها صغاراً في الجنازات وفي قداديس الأربعين التي كانت تقام بعد أربعين يوماً على رحيل الموتى. وما زلت أذكر مقطعاً رهيباً في تلك الصلاة التي تُستهلّ باللغة السريانية ثم تُرتّل بالعربية: "ما لم تبصره عين، ما لم تسمعه أذن... يُعطى للأبرار". هذا المقطع

أتذكّره دوماً كلّما قرأت شعراً يوصف صاحبه بـ "الرائي" مثل رامبو. فالشاعر "الرائي" يبصر ما لم تبصره عين، كما تقول الصلاة، وإن لم يكن مؤمناً. لكنني لم أقدر يوماً على نسيان الأسى الذي كانت تحفره فيّ صلاة الجنازة تلك.

أتذكر مشاهد الطفولة هذه، المشاهد الأليمة التي أخبّئها في ثنايا القلب، مرّة تلو مرّة، وأحار، أنا الذي نهض للتوّ بأعجوبة وفتح عينيه على الضوء، ضوء الحياة المنتصرة. هل لأنني قاربت الموت، احتفل بالمعنى الجوهري للحياة، مستعيداً تلك الذكريات التي تمرّ في البال وكأنها أحلام حلمتها بعينين مفتوحتين؟

لعلّ أطرف ما أذكر أنّ هذا الفتى الذي كنته كان هو ورفاقه ينتظرون وفاة أحد الأثرياء في البلدة. كان هذا الموت فرصة نترقبها أيام العطل وخلال الصيف عندما تغلق المدارس أبوابها. كنا نتنافس على حمل الأكاليل التي كانت تأتي بها عربة دفن الموتى، فنصطفّ في مطلع الموكب، كل فتى يحمل إكليلاً من الزهر منمّقاً بالأوراق الخضر التي ما زلت أذكر رائحتها الغريبة. كنا نمشي الهوينى بحسب إشارة رئيس الموكب، وهو يكون إمّا رئيس إحدى الأخويات أو خادماً في "الوقف". نمشي نحن والكاهن وراءنا يرافقه خادمان باللباس الأبيض، واحد يحمل قصعة البخور والآخر المبخرة. ووراء الكاهن يرتفع النعش على الأكتاف إذا كان الميت عجوزاً أو تخطّى الستين، أما إذا كان شاباً فهو يُحمل على الراحات أو الأكفّ ويمضي الشبّان الذين يحملون النعش في "ترقيصه" على وقع موسيقى "النوبة"، تلك الفرقة الموسيقية التي لا تعزف إلا في المآتم. وكنا عندما نصل

الى الكنيسة نضع الأكاليل في الباحة، على أن تنقلها لاحقاً عربة دفن الموتى الى المقبرة. كانت مهمّتنا تنتهي في باحة الكنيسة، ولم نكن نرافق الموكب أو ما تبقّى منه الى المقبرة. وكنا سرعان ما نعود الى منزل المتوفّى لنحصل على "أجرتنا" - كما كنا نقول - وكانت لا تتخطى الليرة على ما أذكر. هذه الليرة كانت كافية لشراء حلويات أو ألعاب صغيرة.

مثل هذه المآتم كانت فرصة أيضاً لنخدم في أوقات العزاء، فكنا نحمل صواني علب السجائر والقهوة وندور بها على المعزّين. ثم نبدّلها بصوانٍ عليها أنواع من السندويشات والمرطّبات. كان أجمل ما نقوم به هو فتح القناني بفتّاحات معدنية، وكان يحلو لنا سماع الطلقة التي تحدثها الفتّاحة، وكنا في أحيان نخضّ القنينة لتفور ولكن بعيداً عن أعين أهل الميت والمعزّين. كان البرّاد من خشب ومعدن وفي داخله كانت توضع ألواح من الثلج مستطيلة. وكان يأتي "رجل" الثلج أو العامل بمخرز ينهال به على الألواح ليفتتها، ونروح من ثم نوزّع القناني بين القطع. وكم كان يحلو لنا شرب المرطبات، قنينة تلو أخرى، حتى تنتفخ بطوننا. هذا العمل كان بالمجان ولم نكن نتقاضى عنه قرشاً. إنه الواجب تجاه الجيران أو أهل البلدة. كانت تلك المرطّبات والسندويشات التي نأكلها هي كل ما نتقاضاه. وأذكر جيداً كيف كنا نفتح السندويشات الملفوفة بالورق الأبيض لنرى ما في داخلها ثم نلفّها من جديد، وكانت سندويشات الدجاج هي التي تروقنا.

عندما كبرنا قليلاً كنا نذهب خلسة الى المقابر مع مَن تبقّى

مـن الموكـب الجنائـزي وبعـض الرجال من الأهـل، وكنّا نتحيّن لحظة وضع الجثمان في القبر لنبصر بفضول كيف كان الشـبّان يفتحـون النعـش ويمزّقـون ثيـاب الراقد. ولـم كن لنسـتوعب هذا الأمر الغريب، مع أننا كنا نسـمعهم يقولون إنهم يمزّقون الثياب تحاشـياً لانتفـاخ الجثمـان. هـذا فعـلاً مـا لـم نفهمه يومـاً. كيف سيدخل الميت الحياة الأبدية بقميص ممزّق؟

كانـت هـذه الجنـازات تحتـل ناحية مـن نواحي الحياة، مثل الأفـراح، كالـزواج والعمـادة والقربانـة الأولـى وسـواها... لكنّها كانـت أليمـة ولـو أننـا تأخرنـا في إدراك سـرّ هذا الألـم. لكننا في تلك الحقبة، الحائرة بين آخر أعوام الطفولة وأول عهد المراهقة، كنا نجد في المآتم ما يسلّي وما يدرّ على جيوبنا قليلاً من القروش التـي كانـت تكفينـا لشـراء حاجاتنا الصغيـرة. ولكن عندما يكون الميت في مقتبل ربيعه، فتى أو فتاة، شـاباً أو شـابة، فكان الأمر يختلف. كانت الأشـرطة البيضاء ترتفع في الحي، وكانت النوبة تصدح بألحان حزينة وعلى وقعها كانت ترقص النسوة والفتيات، حامـلات صـور الفقيـد أو بعضـاً مـن ملابسـه. كنـا ننظر الى هذا المشـهد بصمت ولم نكن نجرؤ على الضحك أو على ارتكاب أيّ هفـوة، فالجـوّ كئيـب وقاتـم، والصـراخ كان يعلو من الداخل حيـث كان يمـدّد الميـت علـى سـرير، في فمه قطـن، ومن حوله نسـوة يندبـن ويولولـن. لـم نكـن لنضحك ولـو وجدنا في أحيان أنّ في الأمر ما يضحك.

كان المـوت فـي بعـض مظاهـره آنذاك حافزاً على اللهو كما كنّـا نفهمـه، علـى رغـم الرهبـة التـي كان يتركها سـرّاً في قلوبنا.

الصدمة الأولى التي حصلت في تلك الطفولة كانت عندما توفّي الوالد. لم تكن وفاة الأب في تلك الأيام بحدث عابر سرعان ما يزول أثره، فالأب كما كنت أسمع هو عمود البيت، فإذا مات سقط البيت. ظلّت هذه المقولة الرهيبة حاضرة في ذاكرتي طوال أعوام، وكنت دوماً أستعيدها معزّياً نفسي، لا سيما في الأوقات الصعبة عندما كنت أفتقد الوالد، كشخص أو كرجل في البيت. كانت وفاة الأب صدمة في حياتنا، في حياة الأسرة ومن خلالها عرفت للمرّة الأولى الوجه الآخر للموت، عرفت أن الموت الذي كنا نحتفل به ونلهو، يمكنه أن يكون أليماً وجارحاً. عندما مات جدّي لم أبالِ كثيراً. عندما أخبرونا بموته كنا نسبح في بركة الماء لدى جيراننا، وتذمّرنا لأننا كان علينا أن نصعد من الماء ونرتدي ملابس يوم الأحد. أما موت أبي فكان بمثابة ضربة موجعة لذاك الطفل الذي كنته. بعده صرت أخشى الموت وعكفت عن المشاركة في الجنازات رغبة في القروش التي نتقاضاها. صار الموت حقيقة ولو لم أستوعبها جيداً أو أذرف لها الدموع. أذكر أنني بكيت لاحقاً. عندما مات أبي لم أبكِ، كنت صغيراً على البكاء، لكنني أصبت بحال من الوجوم، غصة في الحلق ونظرة منكسرة وألم لم أكن أفهمه. وكان منظر الآخرين يبكون هو الذي يشيع الحزن في القلب الصغير. منظر الأم أو الشقيقة أو... وكان أكثر ما يؤلمني نظرة الآخرين إليّ. كنت أشعر بخجل لم أعرف ما ماثله طوال حياتي. عندما لفظ والدي أنفاسه في آخر النهار، على ما أذكر، أضاءوا الغرف، صفّوا الكراسي وغيّروا شكل المنزل. لم يدعوني أدخل إلا في اليوم

الثاني. كان الجيران هم الذين تولّوا أمرنا نحن أبناء الميت. وقبل الجنازة أذكر حملني أحد الأقرباء على كتفيه ودخل بي القاعة حيث كان يرقد الأب، لألقي عليه نظرة الوداع، كما كانت العادة، وأذكر كيف انتفضت النسوة باكيات نائحات عندما شاهدنني. ولم أدر أيّ نظرة ألقيت على ذلك الرجل النائم الذي كان أبي. كانت عيناه مغمضتين وفي الفم قطن ولم أكن لأفهم ما معنى أن يوضع القطن في فم الميت. كانت النسوة يلفظن كلاماً حزيناً على ما أذكر وكانت الندّابة تجلس على طرف السرير. ولا أدري لماذا أبصرتها وحدها. هذه الندّابة طالما شاهدناها في المآتم، يدعونها لتندب الميت وتلقي ما يشبه الجمل المنغّمة بصوت حزين. وقد ندبت معظم الموتى في الحيّ. بعد أن مات أبي صرت أشيح نظري عنها كلما أبصرتها. لم أكن أحبّ أن أبصرها لأنها كانت تذكّرني بتلك اللحظات القاسية.

هذا الموت، موت أبي في ريعان عمره، جعلني أكتشف الموت عن كثب. وضعت يدي على ناره واحترقت يدي. لم أكن أعلم أن الموت يحرق بشدّة. لكنني لم أفهم الموت إلا غياباً للشخص الذي نحب. كان يقال لنا إنه صعد الى السماء ولم أكن أفهم. ما فهمته أنه لم يبق هنا، أنه ذهب، أنّه رقد في النعش وأن النعش أقفل عليه في المقبرة. لم أكن أفهم الموت أكثر من هذا. الكلام الذي كنت أسمعه لم يكن يعنيني وكنت أتغلّب على لحظات الضعف فلا أبكي حين يبكون بل أغضي النظر أو أحدّق في البعيد الذي لم يكن بعيداً. لكنّ المكابرة لم تعنِ أنني لم أفتقد الأب، في الصباح قبل أن أذهب الى المدرسة

وفي الليل عندما كنت أضع رأسي على المخدّة. كنت في الشتاء أشعر ببرد شديد، برد يجعل أسناني تصطكّ وقدميّ ترتجفان. لم يفارقني هذا البرد إلا بعد أعوام. والغريب أنني لم أكن أحسه من قبل، قبل رحيل الأب.

وكان من معاني غياب الأب أيضاً فقدان الطمأنينة أو "الأمان". وهذا الإحساس لم يفارقني يوماً. ربما أصبح نزعة في الروح أو نزقاً داخلياً حاداً. كأنني اعتدت على فقدان الطمأنينة وغدوت شخصاً لا تهنأ له حياة مهما غدت مغرية أو سعيدة. ولا أدري إن كان رحيل الأب باكراً هو الجذوة التي أشعلت فيّ هذا الشعور العميق الذي ما لبث أن أضطرم خلال الحرب، عندما أيقنت أنني لست أكثر من ظلّ ضئيل، من ورقة في الريح. ولا أدري أيضاً إن كنت كائناً غير مطمئن بالفطرة، فالهواجس التي كانت تعتمل فيّ حتى لتكاد تفترسني، كانت أعمق من أن تكون انعكاساً لما هو خارج هذه الروح التي تسكنني أو حصيلة الصراع الصامت مع العالم أو القدر... ولم يكن الإيمان بالماوراء الذي هو الله، الله الغامض، ليخفّف من هذا الفقدان لئلا أقول "اللاطمأنينة" بحسب مقولة فرناندو بيسوا. كان الإيمان حالاً من القلق بذاته أو اللاطمأنينة بذاتها. ولعلها الأمثولة الخفية التي قال بها يسوع الناصري، المسيح، النبي، المتصوّف والابن بالروح الذي كان خير من صالح بين السماء والأرض. لقد تعلّمت من المسيح، ابن الإنسان، كيف أنظر الى السماء وأخاطب الله قائلاً: يا أبي. وأعتقد أن أجمل صفة يمكن أن نطلقها على الله هي صفة الأبوّة التي تتيح لنا أن نطلق على أنفسنا صفة البنوّة، نحن الأبناء

المفقودين الذين ما برحوا يبحثون عن أبيهم. كان والدي أول شخص أراه يحتضر، وكانت المرّة الأولى أرى شخصاً يحتضر، شخصاً ينتظر الموت بعينين مفتوحتين، لا يلفظ كلمة ولا يتأوه. ينظر المحتضر من حوله نظرات غير مألوفة، لا يطيل التحديق، يغمض عينيه بسرعة وكأنّ شمساً تبرق أمامهما، ثم يفتحهما. إذا احتاج الى الماء يشير بيده، أتراه تعب من الكلام أم لم يعد يرغب فيه؟ أم أن الكلام صار من الماضي فيما هو الآن يجتاز حقولاً لامرئية؟ كان المحتضر وحيداً، هكذا بدا. الناس الذين بالقرب منه كأنهم ليسوا موجودين، بل كأن العالم الذي من حوله كان يختفي أمام عينيه رويداً رويداً. هل يدرك المحتضر معنى هذه اللحظة التي يحياها أو يموتها بالأحرى؟ هل يستعيد شريط حياة عاشها وكأن شخصاً آخر عاشها عوضاً عنه؟ هل يسترجع ماضيه كما يقال في لحظات قليلة هي العمر كلّه مختصراً؟ ثم ماذا يشعر عندما يبصر عيون المودّعين تحدّق فيه كما للمرّة الأخيرة؟ يكتشف المحتضر على سريره معنى الحياة ولكن في اللحظة التي تصبح الحياة في عينيه غيمة تحملها الريح الى منحنى الضوء أو الظلام. لم يعد يجديه أن يدرك معنى الحياة في هذه اللحظة التي يلفظ فيها آخر أنفاسه.

لم أفهم يوماً معنى الاحتضار. شاهدت شقيقة لي تحتضر، بعد عشرين عاماً على احتضار والدي، وازداد الاحتضار غموضاً وأسى. كنت أسأل نفسي: أيّ إحساس يخالج الأشخاص المقبلين على الإعدام قبل لحظات من تدلّيهم على المشانق أو من رميهم بالرصاص؟ كنت أتخيّل هؤلاء أشبه بالمحتضرين الأحياء. كنت

ومـا زلــت أعتقـد أن العقوبـة هـي في تلك اللحظات التي تسـبق الإعدام وليســت في الإعدام. يكفي أن يبصر المرء عيون هؤلاء قبـل أن تحـلّ بهـم العقوبـة. نظراتهم تختصر دوماً أسـرار الموت والحيـاة ممتزجيـن معـاً، فـلا يبقى المرء قادراً على الفصل بينهما وعلى التمييز بين الحياة الموت. لماذا يجعلني الاحتضار أفكّر في الإعدام أو بالأحرى في ما قبل الإعدام؟ أليست تلك اللحظات لحظات احتضار أيضاً؟

جارنا العجوز أشار الى أبنائه أن يضعوا سريره قرب الباب في بيته الأرضي، لينظر في لحظات احتضاره الى الطريق والمارّة وكأنّه لا يزال حياً، وربما ليسمع ضوضاء العالم الذي كان يتناءى. هذا أغرب احتضار يمكن أن يحياه رجل على سرير الموت: أن تنطفئ عيناه على مشهد العالم.

لـم أسـتطع أن أرافـق احتضـار والـدي مثـل أمّي وبعض من أقاربنا ومثل الكاهن الذي أتى في اللحظات الأخيرة ليصلّي على المحتضر. كان ممنوعاً على الأطفال أن ينظروا إلى والدهم يلفظ الأنفاس الأخيرة. أما في الأيام الأخيرة، الأيام التي كانت تطول في أحيان، فكان الأطفال يحقّ لهم أن ينظروا الى والدهم على سـرير المـوت، أو المـرض، وكانـت العائلـة كلّهـا فـي حـالٍ من الاضطـراب والحيـرة وكأنهـا تنتظـر الموت رغمـاً عنها، فإذا أتى أغمض المحتضر عينيه أو فتحهما بالأحرى، متخطياً ألمه الذي هو ألم الناس الذين من حوله. لحظات الموت البطيء هذه كانت أقسى من الموت نفسه. وكان الجيران يشاركون العائلة انتظارها، مضطربيـن أيضـاً وحائريـن ومهيّأيـن للحظة الأخيرة التي لا يعلم

أحد متى تطرأ.

حتى الآن لم أفهم سرّ النظرات التي يلقيها المحتضر على من حوله وما حوله. نظرات أليمة، نظرات أكثر من أليمة، نظرات وداع، نظرات ملؤها الخوف وربّما الغبطة وربّما... قد يكمن سرّ الموت كله في تلك النظرات التي لا أحد يعلم ماذا يبصر المحتضر من خلالها. تراه يحدّق في النافذة ثم ماوراء النافذة، ثم ينظر الى الباب ثم الى صورة على الجدار ثم... ثم يغمض عينيه للحين وكأنه تعب من التحديق. ثم يفتحهما لينظر مرّة أخرى. أما الوجوه التي من حوله فكان المحتضر يؤثر أن ينظر اليها بسرعة وكأنها لمحات تبرق في ذاكرته. هل كان يخجل من النظر الى تلك الوجوه ملياً؟ هل كان يخشى أن تلتقي نظرته المكسورة بنظرات أخرى مكسورة؟ هل كان يخاف أن يبصر موته في تلك العيون؟

لم أفهم يوماً كيف كان فرانز كافكا يتوقع أن يكون مسروراً على فراش الاحتضار، كما كتب لصديقه، ولكن شرط ألا يكون الألم شديداً. ولا أدري لماذا أتذكر المسيح مرفوعاً على الخشبة عندما أفكّر في الاحتضار. لا أتذكر ذلك الجسد المصلوب والمطعون والمعذب، بل يخيّل إليّ أنني أراه دوماً وكأنني أبصرته في لحظات موته على الصليب، كأنني كنت هناك، على الرابية، وسمعته يصرخ: "إلهي إلهي، لماذا تركتني؟"... لكنني ساءلت نفسي كثيراً: كيف كان احتضار المسيح؟ هل عاش تلك اللحظات مثل أيّ شخص يُحتضر، أم أنها عبرت بلا أثر لأنّ المحتضر كان ابن الله؟ صرخته التي طالما دوّت في نفوسنا

منذ الصغر، تدلّ على أنه عاش الاحتضار برهبته، عاشه بالروح والجسد. وأذكر دوماً كيف انحاز دوستويفسكي الى الابن في تلك اللحظات معاتباً الأب على تركه إياه. هذا الموقف أثّر فيّ كثيراً وعلّمني ما لم أتعلّمه سابقاً، أيام المدرسة، تلك الأيام التي كانت دينية صرفة. وكان أكثر ما يوقفني هي عبارة "... وأسلم روحه" على الصليب. لم أكن آبه لمعنى هذه العبارة أو هذا المجاز بل للفعل الذي تبوح به وكأن المسيح هو الذي أسلم الروح الى أبيه السماويّ. كأنّه انتزعها من الجسد وسلّمها الى الله. هذه العبارة كانت تفتنني وكنت أجد فيها أجمل تعبير عن فعل الموت. لفظ أنفاسه الأخيرة، قضى نحبه، وافته المنية، جاءه الحِمام... كلّها تعابير فصيحة، فيما تلك العبارة تعبير مجازي ذو بعد طقسي. وكنت مفتوناً أيضاً بعبارة أخرى هي "فاضت روحه". هذا الفيض الذي تمارسه الروح قد يكون أجمل وصف للموت، فالفيض امتلاء وعندما تفيض الروح نفسها فهي كأنها تمتلئ بالموت.

لم يكن يخيفني الاحتضار مقدار ما كان يخيفني ما بعده، ما بعد موت المحتضر داخل الغرفة وعلى السرير الذي يُسمّى سرير الاحتضار. أذكر كم كان الفتى يخشى أن يدخل غرفة أبيه في الليل وأن ينظر الى السرير الذي مات عليه. كان بعض أهل الحيّ، كلما احتضر أحد في العائلة على سريره في البيت، لا يدعون السرير في مكانه، ينقلونه الى ناحية أخرى وكأنهم يغيّرون المشهد، مشهد السرير والغرفة. وهذا ما كان يساعدهم على نسيان تلك اللحظات الأليمة. وأعتقد أيضاً أنهم كانوا يقومون

بهذا لينسوا صورة المحتضر الذي كان ممدّداً على السرير نفسه بفراشه وغطائه، والذي ما كان يمكنهم الاستغناء عنه.

كنت أخشى دخول غرفة والدي في الليل، كنت أتخيّله ما زال ممدداً على السرير. أمّي لم تبدّل مكان السرير العريض، بل كانت تنام عليه وكأن زوجها لم يفارقه. كان السرير على ما أظن يعزّيها ويخفّف من حزنها ولو أضحى سرير الموت، بعدما كان لأعوام طوال سرير زواجهما. أما أنا فكنت أخاف. هذا الخوف لم يفارقني إلا عندما تخلّت أمي عن أثاث هذه الغرفة واستبدلته بآخر جديد. اختلفت الغرفة تماماً، أصبحت غرفة أخرى ذات سريرين، وصرت أنام فيها على سرير لي وأقضي بين جدرانها وقتاً، أدرس وألهو.

لكنّ هاجس السرير ما لبث أن عاودني عندما احتضرت شقيقة لي على سريرها في غرفة أخرى من البيت. كنت في مقتبل الشباب، وكان يفترض بي أن أكون تخطيت هذا الهاجس. لكنني غدوت وكأنني لم أكبر. في أحيان يكون الخوف سبباً لاستعادة الطفولة أو بعض من معالمها، مثله مثل الحبور أو الطمأنينة. هكذا عدت طفلاً، ولكن طفلاً يخاف، بصمت وألم. لم أكن أخاف منظر السرير ولا الغرفة التي احتضرت فيها الأخت. لكنني لم أكن أستطيع النوم على هذا السرير. ظلّت الغرفة كما كانت عندما أسلمت روحها. وما زلت حتى الآن كلما دخلت الغرفة أنظر الى السرير برهبة، وكأنه سرير الاحتضار.

ولا أخفي أن فكرة الاحتضار في السرير خلقت لديّ شعوراً بالرهبة حيال السرير، أي سرير في أي غرفة كان. لم يفارقني

هذا الشعور منذ الصغر، بل ظلّ يلحّ عليّ حتى بعدما اكتشفت أن السرير هذا يمكن أن يكون سرير حبّ أو رغبة، يتعانق ملء بياضه جسدان ويذوبان واحدهما في الآخر. كأن كلّ سرير إنما هو سرير احتضار، وكانت مخيّلتي تحملني الى الظن بأن النائمين هم موتى. لحظة التخيّل هذه كانت جارحة ولم أكن أبوح بها لأحد خوفاً من أن أوصف بالعته. كأن كلّ سرير هو سرير الموت، ولو كان الموت في أحيان موتاً باللذة والشهوة. أليست لحظة الارتعاش لحظة موت وفراق تليها عودة أو عودتان، عودة من وعودة إلى؟

السرير يعني في ما يعني أيضاً الغرفة. لا سرير بلا غرفة، مثلما لا نافذة بلا غرفة ولا عالم أو حياة بلا غرفة ولا موت... كأن الحياة لم تكن إلا لتبدأ في غرفة وتنتهي في غرفة. هنا داخل الجدران تتعاقب فصول هذه الحياة وتتقاطع. حتى المرض لا يُسمّى مرضاً إلا داخل الغرفة. غرفة كأنها مسرح هذا العالم، الذي هو عالمنا. نهرب من الغرفة أو نلجأ إليها، كأنها كلّ ما يبقى عندما لا يبقى شيء.

لم تكن غرفة المستشفى غرفتي أو غرفة لي. كنت طارئاً عليها مثل أي غرفة في فندق... لكنها ليست بغرفة لأن بابها مفتوح وإذا أغلق فهو لا يقفل. إنها عرضة دوماً للاختراق، يدخل من يدخل ويخرج من يخرج، على خلاف غرفة الفندق التي يمكنك أن تقفل بابها وتنزوي بنفسك كيفما شئت. إنها غرفة حميمة على خلاف غرفة المستشفى. أي أنها غرفة حقيقية مثل غرفتك في البيت لأنها غرفة فرد أو شخص. والغرفة لا تكون إلا

غرفة فرد. كم من أشخاص انتحروا في غرفهم، كم من أشخاص ماتوا فيها وحيدين. أتذكر ذلك الشاعر الفرنسي الذي اختار أن ينتحر في غرفته داخل الفندق: إنه جاك فاشيه. أتذكر كيف عاش جان جينه في غرفة فندق رافضاً أن يكون له بيت. أتذكر كيف زرت مرّة ألبير قصيري في فندقه الباريسي الذي لم يغادره طوال أعوام وكيف صعدت الى غرفته الضيقة التي كانت مسقطه الوحيد في هذا العالم وفيها مات، في تلك الأمتار القليلة التي اختصرت سيرته. أذكر كيف مات الشاعر الفلسطيني في غرفته في أحد الفنادق ولم يُكشف موته إلا بعد أيام، وكيف صار صديقه محمود درويش بعد تلك الحادثة، يترك باب الغرفة في أي فندق حلّ فيه، شبه مفتوح، خشية أن يوافيه الموت ولا يعلم أحد به فيمكث في غرفته ميتاً. قد يكون الموت في مثل هذه الغرف أهدأ أحوال الموت: الباب موصد جيداً ولا أحد سيطرق الباب والشخص الذي في الداخل يجد أمامه متسعاً من الوقت كي يحتضر أو يموت موته السري بعيداً عن أعين الآخرين.

لا تأتيني هذه الأفكار إلا عندما أكون وحدي، بجسدي المجروح، أنظر أبعد ما أمكنني، ممدّداً على السرير أو جالساً على الكنبة، كأنني داخل الزمن وخارجه، أحس النهار والليل ولا أعيشهما، كأنهما يعبران أمام عيني دون أن أنتبه لهما. وحدها الذكريات تنبثق من الداخل، صوراً تتلوها صور. وحدها الأفكار التي تطرق نافذة الرأس، تحملني الى حيث لا أعلم.

أتذكر تلك اللوحة التي شاهدت فيها المسيح ممدّداً بعدما أسلم روحه، على سرير طويل وكأن جسده استطال في رقاده

ذاك. أتذكرها هذه اللوحة جيداً ولكن لا أذكر مَن رسمها، ربما رسّام اسمه "لو جون" أتذكره لأنه يعني بالعربية "الشاب". في هذه اللوحة لا يبدو المسيح ميتاً وإن كان أسلم الروح، بل كأنه يحتضر احتضاراً أبدياً، جروحه ندية دائماً ووجهه مرفوع الى السماء ومنحنٍ قليلاً، عيناه جامدتان كما لو أنه يبصر، فمه مفتوح وكأنّه يلقي عظة الموت. أتذكر هذه اللوحة وأتخيّل المسيح راقداً هذا الرقاد الذي يحيط به جوّ من القتامة. صور أخرى تنبثق وتتداعى لا أعرف لها سبباً. من القلب تنبثق وليس من الذاكرة، توقظ فيّ أحاسيس غامضة أعجز عن تفسيرها. أبصرهم يُنزلون جسد المسيح عن الخشبة، يقتلعون المسامير من راحتيه ومن القدمين، يحملونه بين أيديهم بطراوة جسمه الذي ما زال دافئاً، الدم ينزف من جرح الخاصرة الذي فتحته طعنة الرمح، ثم يلفّونه بقطعة كتّان ويحملونه الى المقبرة... أبصر الجسد أيضاً في حضن مريم وهي محنية عليه وعيناها صوب السماء وبالقرب منها سائر المريمات والنسوة اللواتي كنّ هناك، على الجلجلة... أتخيّل هذه الصور وكأنني أبصرها بعينيّ، كأنني أسمع تنهدات مريم الأم وهي تودّع ابنها ضامّة إياه الى صدرها.

أنظر الى النافذة وأسأل نفسي: كيف عاش الحلاّج لحظة موته؟ هل احتضر أم أن قطع رأسه ويديه حال دون أن يحيا تلك اللحظات الطويلة؟ من أنزل الحلاّج عن صليبه؟ هل لُفَّ جسده بخرقة بيضاء؟ "اقتلوني..."، كان يقول في قلبه مدركاً أن قتله هو حياته. تحضر صورة الحلاّج كما أتخيّلها، كما أرسمها بدمه، برماده الذي ألقوه في النهر... كيف احتضر السهرورديّ؟

هل خاف وارتجف أم أن لحظة إعدامه كانت لحظة إشراق؟

أتذكّر ما أتذكّره الآن! أتذكّر ألعازر الذي أقامه المسيح من القبر! لم يخبر ألعازر عمّا أبصر هناك، عندما وافاه الموت ودفنوه في قبر! لم يروِ كيف بقي في كهف الظلمة، ولا كيف احتضر، وماذا أحسّ طوال الأيام التي رقد فيها حتى لأنتن جسده المكفّن. نهض ألعازر عند سماعه صوت المسيح وكأنه من نوم ينهض. لكنّه ظل صامتاً ولم يروِ أيّ فصل من فصول هذا النوم، هذا الحلم الذي غرق فيه ثم قام. اختفى ألعازر، شهد فقط ثم توارى في ثنايا الحياة مثل طيف لرجل كان.

أليس الاحتضار أقسى من الموت؟ أن يعلم الشخص أنّه مشرف على الموت، أصعب من اللحظة التي يموت فيها. الاحتضار هو الموت في قلب الحياة نفسها، هو الموت الطويل ولو كان قصيراً في أحيان، الموت البطيء الذي يعيشه المحتضر قبل أن يغمض عينيه الى الأبد. عندما يقال لأحد المرضى: أمامك سنة تعيشها أو سنتان أو حتى خمس، ألا يصبح هذا المريض محتضراً؟ عندما يُحكَم على رجل بالاعدام، ألا يَشْرعُ هذا الرجل للحين في الاحتضار؟ كان يُهيّأ لي في أحيان أنّ الحياة بذاتها ضرب من الاحتضار حتى وإن تخطى عمر المرء ثمانين عاماً. فكرة الموت تنشأ مع الإنسان وتشبّ معه وتشيخ... كأن الحياة ليست إلا فعل اكتشاف دائم للموت. أليس هذا ما علّمتنا إياه الكتب؟ كأن الإنسان لا يكتشف الحياة إلا في اللحظات التي يخامره فيها الموت، يكتشف في تلك اللحظات أنه عاش الموت طوال حياته وأن الموت هو الذي علّمه كيف يحيا الحياة. هكذا

يكتشف المحتضر أن الموت لم يكن سوى تلك البذرة المطمورة في داخله، البذرة التي أنبتت الحياة بظلالها الوارفة. لم أعد أذكر مَن الذي سمّى الحياة "مكاناً للموت". كان يُخيّل إليّ أيضاً أن المنتحرين هم المحتضرون الحقيقيون الذين يخفون الموت في قلوبهم...

من أين تأتي هذه الأفكار بل هذه الصور؟ أمن رغبتي في الحياة أم من اجتيازي اللحظات القاسية التي دفعتني الى حبّ الحياة؟ أم من هذا الشعور الدفين بأنّ الموت الذي هو مستقبل الإنسان، انتصرت عليه الحياة التي ليست إلا صورة من صوره؟

كأنها رائحة غاردينيا تهبّ، ولكن من أين؟ الفصل شتاء والربيع سيتأخر هذه السنة. هذا ما كنت أشعر به، أنا نزيل الجدران الأربعة، الذي يكره البرد. هل حلمت بتلك الرائحة الزكية في الليل؟ هل يحلم المرء برائحة يحبّها؟ ربّما كانت تهبّ رائحة الغاردينيا من حلم البارحة، حلم ليلة أمس، وعوض أن تتلاشى مع ذلك الحلم بقيت هنا، في هذا الجوّ الأبيض الذي يحيط بي. لقد استعدت قدرتي على الحلم، لكنّ معظم ما حلمته بدا أبيض أو على قدْر من البياض. غير أنني ما لبثت أن تذكّرت أنني شممت عطر الغاردينيا عندما أبصرت في حلمي وجه فتاة كانت رفيقتي في المدرسة. اختلط وجهها برائحة الغاردينيا، حتى أصبح له تلك الرائحة أو أصبح لتلك الرائحة وجه هو وجهها. أذكر الآن جيداً تلك الفتاة التي أحببتها سرّاً، بوجهها الذي سكنني ولم يفارقني منذ ذاك الحين. نسيت مَن تكون لكنني لم أنسَ اسمها ولا وجهها ولا عينيها البارقتين. نسيت صوتها وكيف تتكلّم أو تغنّي، أما وجهها فلا. وقد أبصرتها في المنام مرّات، تحمل أزهار الغاردينيا، توزّعها علينا كعادتها في شهر أيار كلّ عام. هذا الشهر كان شهر الغاردينيا مثلما كان شهر السيدة مريم. وأذكر كيف كنا في المدرسة نصطفّ أمام تمثال العذراء ونصلّي كل صباح طوال هذا الشهر قبل أن نصعد الى صفوفنا. وكان أحد التلامذة يتولى

الترتيل وكنا نردّد وراءه. كنا نسمّي هذا الفتى "فيروز"، لرقة صوته أو عذوبته ولأنثويته البارزة في صوته وحركاته، لكننا لم نعرف إن كان مخنّثاً فقط أو مثّلياً أو شاذاً كما كان يقال. لم أحبّ رائحة زهرة مثلما أحببت رائحة الغاردينيا. هذا سرّ لم أفهمه يوماً. عندما أتنسم هذا العطر تنفتح في رأسي سماء وأشعرني للحظات في منتهى الحبور، شفّافاً مثل بلورة، عذباً وهانئاً هناءة الملائكة. لا أدري من أين كانت تأتيني هذه الأحاسيس المبهمة. كأنّ زهرة الغاردينيا سقطت من فردوس مجهول، خافية في ثناياها عطر الماوراء، نسيم حياة أخرى. لا أبالغ إن قلت إنّ زهرة الغاردينيا لها فعل السحر عليّ. إنها الزهرة الأعمق من الزهرة، وعطرها أعمق من العطر، عطرها الأبيض، الفائح برغبات تظل غامضة.

أتذكر وجه فتاة الغاردينيا مثلما أتذكر يديها تحملان تلك الأزهار البيض. كانت طوال شهر أيار تأتي بها، تقطفها من شجرة في حديقة منزلها. إنها حارسة ذاكرتي العطرة، حارسة العطر الذي أنتظره كلّ ربيع. كانت لديّ صورة لها، كنا معاً في تلك الصورة، خمسة أو ستة تلامذة بالمراويل، وكنا بتلك المراويل نبدو أقرب الى الفتيات. ولا أدري كيف أضعت تلك الصورة مع أنني كنت أخاف عليها وأحفظها في كتاب. هل هو كرهي للمريول في تلك الأعوام، دفعني الى نسيانها مرّة فضاعت؟ كنت أكره المريول ولا أعلم لماذا كان علينا نحن الفتية الصغار أن نرتديه مثل الفتيات. كان يليق بهنّ ويجعل منهنّ سرباً واحداً مثل سرب سنونوات. أما نحن الصبية فكان المريول يحبطنا ويجعلنا نشبه رفيقاتنا الصغيرات على رغم شعرنا القصير.

أتراه هذا البياض الذي يحيط بي هنا في الغرفة هو ما دفعني الى الحلم برائحة الغاردينيا؟ ثم كيف استطاعت هذه الرائحة الزكية أن ترين على روائح المستشفى التي تخرق الأنف؟ أهو البياض الذي من حولي، البياض الذي يحاصرني...؟ السرير أبيض، الشراشف، الباب، حديد النافذة، الخزانة، الجدار... حتى الثوب الذي ألبسوني إياه بعدما عرّوني أبيض، الضمادات... حتى الممرضات اللواتي يدخلن ويغادرن بابتساماتهنّ يرتدين الأبيض، والأطباء. الأبيض هنا سيّد الألوان، سيّد اللالون لأنّه الألوان كلّها وقد أمحت، لكنّ رجعها يتردّد في روحه البيضاء. لم أكن أتخيّل أنني سأجد نفسي وسط هذا البياض الذي يخيّم على الغرفة، أنا الذي لم يستطع يوماً أن يتصالح مع هذا اللون أو هذا اللالون، والذي لا يعلم حتى الآن إن كان يكرهه أم يحبه. لكنني حتماً أكره الثلج الأبيض - لا ثلج إلا أبيض - بل ما زلت أكرهه منذ طفولتي. حتى في الصور لا أحبّه. وأذكر كيف كنت أحسّ نفسي معاقباً عندما كانوا يصطحبوننا في رحلة الى الثلج. كانت هذه الرحلات أسوأ ما كنت أقوم به، مرغماً، مع رفاق المدرسة. نركب الباص وقد ارتدينا أسمك الملابس. كان الطريق طويلاً ومملاً مثل منظر الثلج نفسه. وكنت كلّما نظرت الى صفحته الشاسعة أشعر بالبرد، قبل أن تطأه قدماي. كان منظر الثلج وحده يبعث فيّ برداً، برداً نفسياً قبل أن يكون برداً في الجسد، وهذا أصعب أنواع البرد. كان الملل سرعان ما يأخذني فأهرب الى الباص وأجلس فيه وحيداً أنظر الى رفاقي من وراء الزجاج، قدماي باردتان والثلج الذي نفذ اليهما من الحذاء العالي كان

يذوب ويرطّب أصابعهما.

أتذكر الثلج الذي كان أوّل علاقة لي بهذا اللون الذي ليس هو إلا غياب اللون. أنظر الى الأبيض من حولي وأشعر بالبرد. من أين يأتي هذا البرد والغرفة دافئة؟ أعترف أنني ظللت حائراً أمام هذا اللون. كنت أحبّ كثيراً بياض الملاك الذي كنت أبصره في المنام. هذا بياض على قدْر من الدفء، من العذوبة. إنه البياض الذي يشبه صلواتنا التي كنا نرفعها صغاراً، الذي يشبه بياض الحبّ الأول، بياض الفتاة الأولى التي أحببتها، بياض الجسد النقي الذي لم أرَ منه إلا قبساً ضئيلاً كان كافياً ليضيء قلب ذاك الطفل الذي كنته.

عالم أبيض أعيش وسطه، عالم صامت مهما اخترقه من أصوات. صامت كالبياض نفسه الذي لا ينساب منه همس أو حفيف. صمت فقط، صمت أبيض أشبه بجدار بارد، أشعر به ولا أراه ولا أقدر على اجتيازه. صمت كأنه ببياضه، الصمت المطلق، بل بياض كأنه بصمته، البياض المطلق. في قلب البياض بياض ثم بياض ثم... لا أحد يمكنه سبر هذا الفضاء الذي يترجّع بلا انتهاء، مثل عدم ما قبل العالم، مثل السديم. أينما نظرت أبصر الأبيض أو لا أبصره. إنه الأبيض الذي لا يحدّه أبيضه. كأنني أصبح أبيض بدوري، أنظر نظرة بيضاء، أتألم بالأبيض، أصمت بالأبيض، أفكاري بيضاء وتلك الأحاسيس الرهيفة التي لا أثر لها.

لا أعلم لماذا وصف الأبيض بالنقاء. أليس هو أعمق من أن يكون نقياً؟ أليس هو الموت قبل أن يكون موت؟ أليس هو الانبثاق قبل أن يكون ضوء؟ أمدّ يدي الى هذا البياض من حولي

فتظل يدي خاوية. لا أستطيع أن أقبض على قبس ولو ضئيل منه. هذا لون لا يستقرّ، لون في حال من الفرار الأزلي. لون هو اللون وغيابه في آن، منتهى اللون عندما يفقد لونه. ليس الأبيض ما لا لون له، الأبيض لون بلا لون، لون لا يمكنك أن تبصر من خلاله كما لو من خلف زجاج. لم يكن الأبيض شفّافاً مرّة، قد يكون كثيفاً وربما كامداً أو معتماً، لكنه لا يكون على شفافية الكأس التي يصنع لونَها ما يرقد في داخلها. الأبيض قد يعتم إذا أعتمت العين أو الروح، لكنه يظل أبيض. قد يشحب الأبيض، قد يدكن ويمتقع، لكنه يظل أبيض. إنه الروح نفسها وما قبل الروح، ذروتها أو أسفلها، أبيض الخواء، أبيض الامتلاء الذي هو الخواء ممتلئاً، لون الكينونة عارية من ألوانها. الأبيض الذي يتجلّى كائناً بذاته، الذي نحسّه بنقائه أو تمامه، الأبيض الصارخ كاللاصوت، اللامع بضوئه الغائب، الكامد بظلاله الخفية، الأصفر بشمسه اللامرئية، المعتكر برماده السرّي. أبيض الليل، السحيق الليل، أبيض الموت، أبيض العبور. تُرى ألا يصبح الليل أبيض عندما يبلغ أوجه، عندما ينضج مثل ثمرة بلا شجرة؟ ليس الليل وحده هاوية مشرعة أمامنا، بل الأبيض أيضاً. يا لها من هاوية بيضاء.

أكتشف الآن كم كان للأبيض رهبته على رغم كرهي للثلج الذي كان يشعرني منذ اللحظة الأولى ببرد لا يمكنني وصفه، برد قارص كأنني حملته معي من عالم يشبه القطب الشمالي. وكنت كلما شعرت بهذا البرد في الداخل، أقصد في الروح، أسأل بالسرّ: لماذا جعلت الجحيم من نار ولم تجعل من ثلج؟

أليس الثلج أشدّ إيلاماً من النار؟ أشدّ إحراقاً منها؟

أتذكر الآن كم كان الأبيض يحتلّ طفولتنا، نحن، لا أدري مَن، الاخوة أم رفاق المدرسة. كان الأبيض حاضراً في حياتنا من غير أن ننتبه له، ولا أبالغ إن قلت إنّ حضوره كان قدسياً أو مقدّساً. فالملائكة الذي احتلّوا طفولتنا كانوا بيضاً، غاية في البياض. القربانة الأولى كانت بيضاء وكنّا تهيّأنا أشهراً لنتناولها كما يقال، بصفتها جسد المسيح. آنذاك، في تلك الطفولة النقية، لم أسأل نفسي كيف تكون القربانة جسد المسيح، لكنني ما لبثت أن أدركت أنها جسده مجازاً، مثلما تكون الخمر في الكأس دم المسيح، وكان الكاهن يشربها ولا يحتسيها كخمر وليس كدم. أجل، إنه المجاز الذي كان لاحقاً بمثابة الباب الذي ولجت منه باب الدين، المجاز الذي جعلني أفهم الدين على طريقتي، جاعلاً منه أمراً شخصياً. وكنت أشعر أنني مهرطق فعلاً وعلى طريقتي أيضاً. عندما اكتشفت هذا المجاز شعرت أنني تخطّيت كلّ الشكوك التي كانت تعترضني، وكلّ الأسئلة التي لم أجد لها أجوبة شافية.

أتحدث عن البياض وأتذكر أيضاً بياض الهالة التي كانت تحيط برؤوس القديسين، هؤلاء الأصدقاء اللامرئيين، الذين كنا نفتح عيوننا عليهم ونغمضها عليهم، على صورهم التي تملأ البيت، على وجوههم النقية التي لا تشيخ. كانت الهالات تلك تميل الى الصفرة من جرّاء الضوء الذي يترسّب فيها، لكنها كانت توصف بالبيضاء وكأنها من غيم أو ضباب، بينما هي من مزيج الضوء والغيم. وأذكر جيداً تلك الغمامة البيضاء تحت قدمي

السيدة مريم، أمّنا التي في السماء، تضمّها الأيقونة القديمة المعلّقة على الجدار. كان الغيم أبيض في طفولتنا، لم يكن يوماً رمادياً، أبيض مثل اليمامة التي ظهرت فوق رأس المسيح حين عمّده يوحنا في نهر الأردن. إنها الروح القدس حلّت عليه في صورة يمامة بيضاء، في منتهى البياض.

لا أنسى أيضاً بياض كفن المسيح عندما قام من القبر. الكفن الذي بقي وحده في القبر والذي كانت المجدلية أول من شاهده. كان شديد البياض لا يعروه غبار أو تراب، كان أبيض بياض الجنة، على خلاف كفن ألعازر الذي تخيّلته يميل الى الصفرة، صفرة الموت الذي عاشه، قبل أن يقيمه المسيح من القبر. كفن ألعازر ليس كفن المسيح، هذا كفن الإنسان الذي جاء الى هذا العالم ليموت، حاملاً معه كلّ أسراره.

إنني الآن أمام صفحة بيضاء، أغرق في جوفها الخفيّ، أحلّق في سمائها اللامتناهية. الورقة البيضاء التي طويلاً ما مكثت أمامها، صامتاً، على قلق أو برهبة. إنها الخواء الذي ينتظر رذاذ الحبر، الفراغ الذي يعكس فراغاً تلو فراغ. ماذا يعني أن أجلس الى ورقة بيضاء؟ أيّ يد تملأ الورقة؟ يدي أم يد شخص آخر قد يكون أنا أو لا أنا؟ عندما ينسلّ الحبر الى الورقة هل تفقد بياضها؟ ألا يخفي الحبر نفسه بياضاً آخر في صميمه يشبه السواد المتواري في قلب البياض؟ إنها الصفحة العذراء التي تظل مجهولة مهما أوغلت فيها أو مهما تلمست من أنوارها التي تشرق سرّاً. إنها المتاهة التي لا يضيع فيها أحد، متاهة الروح نفسها التي كأنما تفيض أمام هذا البياض اللامحدود. حتى الآن لم أفهم مغزى

أن أجلس الى هذه الورقة. إنني كمن يجلس الى احتضاره الذي ليس بالاحتضار. هل من عبث أشـدّ اسـتحالةً من هذا الجلوس أمام ورقة تصبح بداية لنهاية أو العكس؟ أليس هذا "قبض ريح" كما قال الكتاب؟

كـم يقلقنـي هـذا البيـاض الـذي أمامي، الذي بين يديّ، يقع عليه ناظراي فأضطرب. إنني أمام خواء ما قبل العالم، عندما لم يكـن مـن ضـوء ولا عتمـة، عندمـا كان بياض هـو الحلكة عينها. بياض رجراج كأنّ ريحاً تهبّ عليه، بياض موّار يترقرق مثل وجه المـاء. امتلـئ بـه، كمـن يمتلـئ بموته، بأبيـض الكفن الذي ليس سوى أبيض القماط.

أذكـر كـم خفـت عندمـا رأيت جارنـا في كفنه. كنّا ننظر إليه جميعاً بخشية ورهبة طفولية. كانت المرّة الأولى نبصر مثل هذا الكفن. جارنا الذي توفّي أصبح قامة بيضاء، لا وجه ولا يدين... كان رفيقنا يخبرنا عن غسل الموتى ولفّهم بالخرق البيضاء، وكنا نظنّه يخترع حكاية ليخيفنا نحن الذين كنا نصدّق الحكايات. لكننا عندما شاهدنا جثمان جارنا، من وراء النافذة، وقد استحال جثة بيضـاء، صدّقنـا حكايـة رفيقنا. وكنت أحار وأسـأل نفسـي: كيف تندب النسوة رجلاً مغرقاً في الأبيض؟ كيف يبكينه وهنّ لا يرين عينيـه أو وجهـه؟ عندمـا توفّـي أبـي لم يلفّـوه بمثل هذا الأبيض، أرقدوه على السرير بعدما ألبسوه إحدى بدلاته التي كان يرتديها في المناسبات الخاصة وأيام الأحد.

كان الكفن غريباً عن موتانا، مع أنّ المسـيح كُفّن قبل دفنه وعندما قام من القبر خلع كفنه. وألعازر كان مكفّناً أيضاً وسائر

الموتى حينذاك. جارنا أيضاً كفّنوه حفاظاً على طهارته بعد الغسل، كما كان يقول لنا رفيقنا، فعندما يلاقي وجه ربّه يكون طاهراً وخالياً من أي دنس. إنه يعود طفلاً، كما يقال، ولكن الى أين يعود؟ هذا السؤال لم نكن نطرحه أصلاً عندما كنا صغاراً لأننا كنا نخاف. كنا نفرح بالأطفال عندما يولدون ويلفّونهم بالأقمطة البيض. لكننا لم نكن نفهم أن الموتى يعودون أطفالاً ولو لفّوهم بأكفان بيض.

أذكر أنني عندما قرأت مرّة عن نسوة يرتدين الأبيض حداداً على موتاهنّ، عاد الى ذاكرتي مشهد جارنا الذي كُفّن بالأبيض. لا أعلم لماذا جمعت بين هذين الأبيضين، أبيض الميت وأبيض الحداد على الميت. لكنّ أبيض الحداد ليس أبيض الموت، والحداد لا يليق به سوى اللون الأسود الذي كانت تتلفع به النسوة أشهراً أو اعواماً. الأبيض بارد والحداد حال من الدفء ترتجيها النسوة في غياب أحبابهنّ.

لا أنسى تلك الفتاة التي كنا نسمّيها "البيضاء"، التي كانت بيضاء حقاً، أشدّ بياضاً من الثلج. كان بياض صدرها أو ما يبين أعلاه عند ملتقى الجيد، باهراً، شديد النقاء. وأعتقد أنني لم أبصر ما يماثله بياضاً. وكان يحلو لها أن تلبس قمصاناً بيضاً، لا أعلم إن كانت مصادفة، فيزداد البياض بياضاً وينتشر ملء وجهها الأبيض أصلاً. كنت أسترق النظر الى جيدها وما بان من صدرها الرقيق، ببراءة تامة، محفوفة بالكثير من الحبّ. فتاة بيضاء كانت بيننا، نحن رفاقها في الحيّ، مثل فراشة لا تجرؤ يد على لمسها ولو بحنان. كانت تميل الى الصمت غالباً، هادئة وعذبة. حتى يداها كانتا

بيضاوين وساقاها، وكان هذا الأبيض يتفجر عندما ترتدي تنورة كحلية. أنظر اليها في الصورة التي أحتفظ بها، من حولها رفاق نسيت أسماء بعضهم، أنظر اليها بنهم وحبور قديم وأحدّق في وجهها وكأنني أستعيد تلك اللحظات الماضيات. ولا أخفي أنني أبصرتها كثيراً في المنام وكأنها تزورني، تطرق باب النوم وتدخل. ولعلّ أحلامي تلك، هي التي حفظت صورتها في الذاكرة، فلم تغب أو تقع في النسيان ولم يتغضّن وجهها ولا شحب جيدها. وكنت أتمنى ألاّ أراها بالصدفة يوماً، كما صادفت بعض رفاق الطفولة، لتظلّ صورتها كما هي في الحلم، فتاة صغيرة لم تكبر. لكنني كثيراً ما سألت نفسي: هل أصبحت الآن امرأة بيضاء أم أن الأيام أطفأت بياضها الفردوسيّ؟ هل ما برحت كمثل ملاك يتنقل أمام أعيننا برقة فائقة أم أن الأمومة أتعبت جسمها؟ لطالما تمنيت ألاّ أراها يوماً لئلا أكتشف كم أنني كبرت. لا يدرك المرء أنه كبر إلا عندما يكتشف أن رفاقه كبروا، عندما يراهم بعد غيبة ويبصر أنهم كبروا. يصبحون مرآة له هو الذي تقدّم به العمر دون أن ينتبه.

كانت أشبه بملاك إن لم تكن ملاكاً، ببياضها وصمتها وروحها المجروحة من شدة شفافيتها. كانت ملاكاً بجسم فتاة، بعذوبة فتاة. كانت الملاك متجسداً، بل صورة الملاك عندما يتجسّد، الملاك الذي كان صديق ليلنا، رفيقنا السرّي وحارسنا الذي يحلّق فوقنا، عندما نخرج أو نؤوب، عندما ننام في أسرّتنا، عندما نستيقظ في العتمة فجأة، عندما نحلم ونبتعد في أحلامنا.

كنت أخاف على هذه الصورة أن تضيع مثلما ضاعت صورة فتاة "الغاردينيا". ماضٍ بلا صور هو ماضٍ بلا وجوه، ماضٍ خاوٍ لا عطر له ولا لون. كنت أحبّ وجهها في الصورة التي لا أذكر تماماً كيف التُقطت لنا ومَن التقطها. ما أرهب تلك اللحظات التي تبرق فيها الكاميرا ونحن أمامها وكأننا ننظر الى الزمن نفسه، الزمن الذي سيتوقف للحين في الصورة، بينما يمضي بنا زمننا الى الأمام. أنظر الى الصورة الآن وأخال نفسي أباً للفتى الذي كنته، أباً للفتاة التي أحببتُ وجهها وبياض صدرها، أباً للفتية الذين كانوا رفاقي. إنها فتنة الصورة التي تأسر الزمن في لحظة أضحت خارج الزمن.

إنها الصورة التي وحدها تشيخ فيما الذين داخلها يحافظون على أعمارهم مثلما كانت. إنها الصورة التي لا تكون بل التي نقول عنها منذ أن نبصرها إنها كانت. الصورة لا تكون إلا في صيغة الماضي، قريباً كان أم بعيداً، الماضي الذي كان البارحة أو قبل أعوام طوال. وليس مستغرباً أن يشعر المرء أمام الصورة بخوف غامض أو برهبة مبهمة، لعلها رهبة الزمن الذي لا ينظر الى الوراء.

كان للصورة زاوية في حياتنا، زاوية على هامش هذه الحياة وفي قلبها. كانت صورة الوالد تحتلّ جدار الصالون في البيت. عُلّقت هذه الصورة بعد رحيله، صورة بالأسود والأبيض، لا أدري متى التُقطت له ولا إن كانت آخر صورة. لا يستقيم رحيل الأب إلا عندما تعلّق صورته على الجدار. وأذكر كم كنت أنظر إلى هذه الصورة، أحدّق فيها وأتملاّها لأتذكر هذا الشخص الذي فيها

ولأتعـرف إليـه. هكـذا ظللـت لفترة غير قصيرة. يعتاد المرء على كلّ الصور حتى يكاد ينسـاها وإن أبصرها فهو لا ينتبه إليها، ما عدا صورة الميت، يظل ينظر إليها وكأنه يراها للمرة الأولى.

عندمـا رحلـت الأخـت فـي ريعان فتوتها ارتفعت لها صورة قرب صورة الوالد على الجدار. أصبح هناك وجهان ينظران نظرة واحدة وإن كانت نظرة الأب تختلف عن نظرة الأخت، وهذا ما يظهر واضحاً في صميم العيون نفسـها. كنت أتخيّلهما يتحدّثان في الليل أو ينظران بعضهما الى بعض. ولكن ما من مرة سمعنا همساً في العتمة ولا أبصرنا العيون تتحرّك يوماً مثلما يحصل في الايقونـات عندمـا تحـلّ المعجزات، كما كانوا يروون لنا. وكانوا يروون أيضاً أنّ بعض الصور كانت تدمع عيون أناسها، القديسين، لا سيّما مريم أمّ الناصريّ، أو ترشح زيتاً. كانت أخبار كهذه توقظ فينا رهبة مجهولة وحبوراً ممزوجاً بالقشعريرة.

لكنّ صورة لم تغب عن بالي، كانت تجعلني أضحك بالسرّ، مـع أنهـا كانـت لأبـي. هـذه الصورة التقطت لنـا، أبي وأنا، قرب حديقة بيت خالتي. كنت صغيراً جداً، أمسك يد أبي ومن ورائنا سياج وأشجار. كانت الصورة جميلة جداً بالأسود والأبيض، وبدا أنّ مـن التقطهـا كان فنانـاً وليـس مجـرّد مصوّر. ونظراً الى جمال هذه الصورة ارتأى قريب لنا أن يكبّرها لتعلّق على الجدار. لكنّ عقبة واحدة كانت تحول دون تكبير الصورة هذه وهي أنا، الواقف فـي الصـورة الـى جانـب والدي. رفضت أمي وأقارب آخرون أن تُكبّـر الصـورة وأنـا فيهـا، ظنـاً منهـم أنّ في الأمر فألاً أو شـؤماً. فالصـور التـي تعلّـق يجـب أن تكون للموتى وحدهم. وخطر في

بال جار لنا أن يأخذ الصورة الصغيرة الى مصوّر أرمني، سوريّ الأصل، كان يعدّ من أمهر المصوّرين، علّه يجد لها حلاً. وكان الحلّ سريعاً، ألغاني من الصورة وأحلّ مكاني عموداً نصفياً يذكّر بالأعمدة الرومانية وعليه ترتفع مزهرية ملأى بالورود. عندما جاء جارنا بالصورة ذات الحلّة الجديدة فرح الجميع بها وسرعان ما ارتفعت على الجدار. أما أنا فنظرت إليها وضحكت، وظللت فترة غير قصيرة أضحك كلما كنت أنظر إليها. وسألت أمي مرّة عن اختفائي من الصورة وأين ذهبت فقالت لي إنني مختبئ خلف العمود. لم تقنعني هذه الصورة كثيراً، هل يُصوَّر المرء ليختفي من الصورة؟

حصلت هذه الخدعة في أيام الطفولة عندما كانت الكاميرا صادقة، لا تجيد "الأكاذيب" البصرية. نادراً ما كنا نبصر صوراً "خادعة" تتحايل على نفسها وعلى الوجوه التي تحملها وعلى الناظرين إليها. كانت الصورة في حياتنا البسيطة والبريئة حينذاك صورة صادقة، وكانت بمثابة الحدث. وأذكر جيداً كيف كان المصوّرون الأرمن الجوّالون يحملون كاميراتهم الكبيرة المغطّاة بقماش أسود وذات الركائز الثلاث، وكيف كانوا ينادون مثل باعة العربات، بلكنتهم المكسّرة، داعين أهل الحيّ الى التقاط صور لهم. ولا أدري لماذا كانوا يلتقطون الصور خارج البيوت، في زاوية من الزقاق أو قرب شجرة... كان الأشخاص يقفون أمام الكاميرا، بملابسهم الأنيقة التي كنا نسمّيها ملابس يوم الأحد، وقبالتهم ينصب المصوّر كاميراه الطويلة ثم يُدخل رأسه في الكيس الأسود أعلى الكاميرا حتى يختفي، ثم يسحبه ويوجّه

الواقفين أمامه، ثم يدخل مرّة أخرى ويلتقط الصورة وفي يده طابة يضغطها فيبرق ضوء. كنا، عندما ينتهي نتحلّق حوله، نحن صبية الحـيّ، محدّقيـن بدهشـة فـي هذه الكاميـرا العجيبة. ومرّة طلبت منه أمي أن يسـمح لي بإدخال رأسـي في الكيس فأدخلته خائفاً وأبصرت عدسة مضيئة ومن خلالها أبصرت منظر الحيّ معوجّاً، وشممت رائحة غريبة، حادّة ولطيفة.

لـم تمضِ فترة قصيرة حتى اختفى هؤلاء المصوّرون الأرمن الجوّالون ومعهم اختفت تلك الكاميرا العجيبة التي شـبّهناها بـ "صنـدوق" العجائـب الـذي سـحر طفولتنا. كانـت تلك الكاميرا بغطائها الأسـود وركائزها الثلاث أجمل من الكاميرا التي كانت تلتقط لنا الصور في الاستوديوات الضيقة التي كنا نجلس أمامها دون أن نتحـرّك للحظـات. مـا كان أجمـل تلك الكاميرا السـوداء تلتقـط لنـا الصـور فـي الهواء الطلق، في الشـارع، قرب الحديقة، واقفين أو جالسين كما يحلو لنا.

أمـا حبّـي للصـور فلـم يغادرنـي يومـاً وكنت أحـبّ كثيراً ما يُسمّى الصور السلبية أو النيغاتيف، كانت هذه الشرائط تسحرني، فيها كنت أرى الوجوه بيضاء فيما العالم من حولها أسود. ولطالما شبّهت بها حياتنا التي كأنها بالأبيض في شريط ينتظر من "يُظهّره" في يوم ما.

كانــت تشــبه المــلاك، كانت مــلاكاً ولكن بوجه فتاة. ولعلّها هي التي جعلتني أتيقن من أن الملاك أنثى، أو لأقل فتاة وليس فتى. هذا انطباع لم يفارقني يوماً مع أن كلّ ما قرأته عن الملائكة لم يوحِ بجنسهم. فالملاك ليس أنثى ولا ذكراً، بل بين بين، أنثى وذكـر وقـد امتزجـا مثلمـا يمتزج الماء والنبيذ، حتى إذا شـربتهما ممتزجين تهيّأ لك أنك تشرب نبيذاً بطعم الماء وماء بطعم النبيذ. لم يكن يشغلني جنس الملائكة كما شغل العالم القديم، وكنت أصبحت على يقين من أنّ الفتاة، لن أقول الأنثى، تقدر أن تكون ملاكاً مثلما يقدر الفتى، لن أقول الذكر، لأنني أكره هذه الكلمة، أن يكـون مـلاكاً أيضـاً. لكـنّ المـلاك لا يقـدر أن يكـون فتاة ولا فتى، لأنّه كلاهما معاً، أو لأنه لا فتى ولا فتاة. لم يكن لي يوماً أن أتخيّل ملاكاً تخطّى أعوام الفتوة، ملاكاً طاعناً في الســنّ، أو عجـوزاً أو مـلاكاً رجـلاً أو مـلاكاً امـرأة. المـلاك فتى أزلي، فتاة أزليـة، بوجـه مشـرق أبـداً وعينيـن بارقتين. وجه الملاك لا تغزوه الغضون مهما مرّ عليه من أيام أو دهور بالأحرى، فهو كما كنت أظن، خارج الزمن يحيا، في قلب الزمن الذي لا يدركه إلا من كان مـلاكاً أو مـن أصبـح مـلاكاً، وهنـاك لا يكـون أمس ولا غد، ولا ليـل أو نهـار، ولا مـاضٍ ولا آتٍ، هنـاك يفقـد الزمـن معالـم الزمن ليصبح زمناً بلا زمن، زمناً يتخطى الزمن.

هل نسيت الملائكة لأتذكرهم الآن؟ ألم يصنعوا هم العالم الذي كثيراً ما عشت فيه؟ ألا أشعر بهم يطوفون من حولنا أو يحطّون على حافات النوافذ دون أن أبصرهم؟ أذكر كم كان الملائكة يحتلّون عالمنا، مع أننا لم نكن نبصرهم مثلما نبصر الآخرين عادة. نبصرهم كأنما بأعين أخرى، خفية، مثلما نبصر ظلالاً هائمة، لا وجوه لها ولا قامات ولا... كأننا نبصرهم دون أن نبصرهم، يلتمعون كمثل بروق في النهار ويختفون بسرعة فائقة. كانوا في اختفائهم أسرع من برق الكاميرا عندما تلتقط صورة. وقد خطر لي مرّة أن أحمل الكاميرا وألتقط صوراً في الهواء بحرية، عسى الملائكة اللامرئية تظهر فيها. ظلّت هذه الفكرة مجرّد نزوة لم أحقّقها. ربّما لأنني كنت أشعر دوماً أنّ الملائكة كائنات من هواء أو ضوء أو أثير، وهذه الكلمة - الأثير - وقعت عليها لاحقاً بعد أن خرجت من طور الطفولة، من عالمها الرحب الذي لا تحدّه مخيلة.

كانت الملائكة ترين على حياتنا، البسيطة حياتنا. كانوا أصدقاءنا الذين يرافقوننا خفية، يحلّقون فوق رؤوسنا، يجلسون معنا الى المائدة، يحطّون على حافة السرير عندما ننام، يحرسوننا ويركضون معنا في الحقول ويصعدون الأشجار قبلنا... كان صديقي يسأل: إذا جرحت شوكة ملاكنا هل ينزل منه دم أبيض؟ ولم يكن أحد يجيب. فالملاك لا يُجرح حتى وإن وقع في العلّيقة. والملاك لا يحترق حتى وإن اجتاز النار التي كنا نضرمها في الحقل ليلاً. كان الملاك نجم حياتنا، في الليل عندما تخطفنا أحلامنا، كما في النهار، نهارنا الصاخب في الصيف. لم يكن

ملاكنا يغيب في الصباح، في أول شروق الشمس ولا في الليل عندما تشتدّ الحلكة. وكنا نسأل: ألا ينام الملائكة؟ ألا يتعبون من التطواف في السماء؟ ألا تأخذهم الرغبة في المبيت؟

لا أعلم لماذا أؤنّث الملائكة حيناً وأذكّرهم حيناً. لم أحسم حتى الآن هذه المسألة التي شغلتني طويلاً، وما زلت أقول هؤلاء الملائكة ثم هذه الملائكة. هذا أمر تعجز اللغة عن أسره، أقصد اللغة التي أكتب بها. فالملائكة التي قرأنا عنها في الكتب كانت في معظمها ذكوراً. حتى الأسماء التي أطلقت عليها أسماء ذكور: الملاك جبريل، الملاك ميخائيل، الملاك إسرافيل النافخ في الصوْر، وهذا كان يسمّيه بعضهم "ملاك الموسيقى"... وما أجملها تكنية. هل يمكن تصوّر ملاك ينفخ في ما يشبه القرن في اليوم الآخر؟ أتذكر ما كتب إدغار آلن بو عن إسرافيل في نص عنوانه "إسرافيل" وفيه يقول إن لا أحد يغنّي بمثل الغرابة التي يغنّي بها الملاك إسرافيل، فالنجوم الحائرة، بحسب الأساطير، تؤخذ بسحر صوته بعد أن توقف أناشيدها وتصمت تماماً.

حتى الصفات التي أُطلقت على الملائكة كانت ذكورية، فغالباً ما يدور الكلام على الملاك بصفته طفل الله وخادم الله والحارس والرسول. حتى الملاك الذي رفض السجود لآدم، سمّي إبليس أو الشيطان وحجته كما تقول النصوص أنه خلق من نار فيما آدم من طين فكيف يسجد له، وما كان على الخالق إلاّ أن ينفيه خارج المملكة.

لم يُحسم جنس الملائكة مع أنّ الملاك - الفتى أو الملاك - الرجل يكادان يطغيان على صورة الملائكة. فملاك الرب الذي

نزل من السماء ودحرج الحجر عن قبر المسيح وجلس فوقه، كما جاء في إنجيل متى، كان على ما بدا، ملاكاً - رجلاً. أما ملاك القبر في إنجيل مرقس فكان شاباً وقد جلس إلى اليمين وعليه لباس أبيض. أما اللغة فتنتصر أيضاً للملاك - الذكر فلا تأنيث للملاك الذي اشتقّ أصلاً من الملأك وفعله لأك، والملأك هو الرسالة وروح يرسله الله ليبلّغ الناس مشيئته. وفي التعريفات أنّ الملأك جسم لطيف نوراني يتجلّى في أشكال مختلفة، وقد تحذف همزته لكثرة الاستعمال فيقال مَلَك. وقيل إن اشتقاق المَلَك من الألوكة في معنى الرسالة وأصله مألك وحذفت الهمزة للخفة فصار "مَلَك" وهو سرياني الأصل. ولعل كلمة "ملاك" الحديثة زمناً لم تكن إلا تخفيفاً لملأك تبعاً لخفة الملاك نفسه، خفة حركته التي تجعله مثيل البرق. وقيل إن الملاك بالاغريقية "انجلوس" تعني الرسول وكذا في سائر اللغات كما يُشاع. ففي الفرنسية مثلاً كلمة "آنج" مشتقّة من كلمة "أنجليس" الذي هو رسول الله، والروح السماويّ والمخلوق الروحاني الصرف ولا مؤنّث له كذلك.

الملاك رسول إذاً، رسول الله كما تقول الكتب، صامت في معظم الأحيان، لكنّه يتكلّم حيناً تلو حين كما قالت الكتب أيضاً. ألم يحلّ الملاك جبرائيل على النبيّ محمد قائلاً له: إقرأ. ما أجمل أن تبدأ بشارة ملاك بهذا الأمر: إقرأ، كيفما فُسّر هذا الأمر أو فُهِم، وأيّاً كانت بُغية الملاك الذي خاطب رجلاً أمّياً كما يقال. لكنّ الملائكة لا تحتاج الى الكلام كي تتكلم، إنها تتكلم بصمتها، بهذا البياض الذي يشعّ منها، برهبتها النقية. أتذكر

مـا قالـه ريلكـه: "كل مـلاك رهيـب". لـم أدرك مغـزى هذا البيت للوهلة الأولى. وأذكر كم شغلني وكيف رحت أقرأ "مراثي دوينو" انطلاقـاً مـن هـذا البيـت الذي يسـتهلّ به ريلكـه "المرثية الثانية"، وكان هـو أصـلاً افتتـح أولـى المرثيـات قائلاً في ما يشـبه الوحي الدينـي: "مَـن يسـمعني مـن الملائكة بمراتبهـم إن أنا صرخت؟" كان هذا الشاعر يردّد أن هذا البيت أملاه عليه صوتٌ هبّ وسط الريـح عندمـا كان يتنـزه مـرّة في كانون الثاني 1912 بين صخور مدينـة دوينـو. ثـم لا يلبـث أن يتحدث في المرثية الأولى نفسـها عن فنائه في حضن ملاك ضمّه إليه فجأة وعانق وجوده الجبّار. وهذا ما حمله على اسـتهلال المرثية الثانية بهذا البيت الرهيب. لكنّ رهبة الملاك لا تنجم إلا عن شفافيته التامة التي تلوح عبرها عتبة اللامرئي ومن خلالها أيضاً تتداخل الأرض والسـماء حتى الامحاء المطلق. الملاك هو خيط النور الذي يجمع بين المرئي واللامرئـي، بيـن الهنـا والمـاوراء، بيـن الآن والأبـد. إنهـا الرهبة فعـلاً، رهبـة هـذا الكائـن الألطف من النسـيم، الأرقّ من الضوء، إنها رهبة العبور التي يعرفها ريلكه وأشباهه من متصوفة أو أولياء وقدّيسين.

الملاك الذي طالما حدست به أو رأيته بحدسي كان صامتاً، صامتاً دوماً. ملاك واحد أتخيّله منذ أعوام طوال، لم يتبدّل، لم يكبر مثلما كبرت، لم يسأم ولم ينل منه تعب أو أسى أو يأس. ملاك لا أعرف كيف أبصره، كيف أنظر إليه. كأنه بلا عينين ولا وجه، كأنّ عينيه خفيّتان ووجهه متوارٍ خلف بياضه. كنت أبصره ينظر بلا نظرات، يحدّثني بلا صوت، يجلس الى المائدة، أعطيه

يدي... كان كأنه توأم ذلك الطفل الذي كنته، التوأم الأزلي الذي يحيا خارج الزمن. وكنت كلما تقدم بي العمر تتقدّم به الطفولة التي ليست بطفولة. إنه الرسول الذي لا يحمل رسالة، الرسول الذي هو الرسالة نفسها، أحدس به، أتخيّله يطرق النافذة. لم يطرق الباب يوماً، النافذة وحدها، حتى وإن كانت تمطر، فهو لم يكن يبلّله الماء مثلما لم تكن الشمس تحرقه ولو في أوج الظهيرة.

لم أحاول يوماً أن أتخيّل صورة أخرى للملاك. كنت أقرأ عن الملائكة الذين في الكتب والذين كانوا يوصفون بأنهم أرواح في خدمة الله يرسلهم الى الذين سيرثون الخلاص. كان ملاك طفولتي الدائمة طفلاً وظلّ ولا أدري لماذا. إنه الروح الصافية، الروح الصرف كما رحت أعتقد لاحقاً. ربما هو الجسد الروحي، أو لأقل الجسد روحاً والروح نوراً أو جسداً من نور. إنه الشكل الصافي، الشكل الذي هو الروح نفسها، روحه نفسها التي هي جسده نفسه. كأن الملاك يخرج من امتزاج جسده وروحه، بل من امحاء هذين الجسد والروح. إنه الجسد السماوي الذي لا يحتاج الى حواسّنا، الجسد الذي يلمس بالنور ويبصر بالنور ويتنسم بالنور... إنه "المشيئة الصافية" كما قرأت مرّة لا أذكر أين. إنه "الروح المجنّحة"، العابر أبداً، العائد أبداً، الذي هنا وهناك، الساكن بحركته الفائقة، المحلّق بسكونه، الحاضر بغيابه، الغائب الذي يُسمع حفيف جناحيه في الهواء، الزائر السماوي الذي يحلّق في حلم ليس بحلم، الذي يلتمع مثل فكرة، الذي يظهر كما في رؤيا، الذي ينخطف كالبرق، الذي يتكثف كالسحاب، الذي يندلع

كالفجر، الـذي مثـل قـوس قزح ينحني فـوق الأرض... لا أعلـم لمـاذا كان قـوس القـزح بألوانـه الوهمية يذكّرنـا بالملائكة. كنت أتخيّل ملائكة يرسـمون هذا القوس ليكون جسـراً يجلسـون عليه عندمـا يتبعـون فـي تطوافهـم، أو يتنزّهون عليه بهدوء... كان هذا القوس سرّاً من أسرار طفولتنا واحدى خرافات هذه الطفولة التي لم تفارقنا عندما كبرنا. كأنّ الحياة لا تعاش بلا أسرار وخرافات، بل كأنّ الإنسان بلا هذه الحكايات الغريبة لا يقدر على العيش وعلى احتمال أن يعيش.

أتخيّـل حياتنـا بـلا ملائكـة! مـا أصعب حياة لا ملائكة فيها. هل من ليل بلا نجوم؟ هل من حقل بلا قصب؟ هل من غابة بلا شجر؟ لم أكن قادراً على تصوّر حياتنا بلا هذه الكائنات المشعّة بياضاً وصمتاً ونقاء... هذه الكائنات التي تحضر من حولك، التي تحسّ بها دون أن تراها، التي تحسّ بأجنحتها ترفّ وأيديها ترتفع وموسـيقاها تشـيع كالزرقة. إنها الظلال التي ليسـت إلا ظلالاً. ليسـت بأشـباح بل أرواح أو ظلال لأرواح لا ظلال لها. أجسـاد لامرئية، أطفال، فتيان، فتيات، رجال ونسـوة ولكن بلا أجسـاد، بأرواح فقط هي أجسـاد بلا جسـد. أجسـاد لا تفنى لأنها أرواح لا تفنـى. ملائكـة أبديـون لأنهـم يحيـون في الأبد الذي لا يُدرك، فـي الأزل الـذي كان فـي البـدء عندمـا لـم تكن سـماء ولا أرض ولا نور ولا ظلام ولا...

أتحدث عن الملائكة بهذه الحماسة أو بهذا النزق وأنا الآن في السرير، أمامي جدار أبيض ترتفع عليه أيقونة. هل أبصر ملاكاً يتخاطف في غمرة هذا البياض الذي يملأني؟

كان المـلاك سـرّاً مـن الأسـرار الشـخصية التـي أكتمها ولا أبـوح بهـا إلاّ نـادراً ونـادراً جـداً. كان بعـض الأصدقـاء يُفاجأون عندمـا أحدّثهـم عـن علاقتـي القديمة بالملائكة، كان يقولون إنها خرافـة مـن خرافـات الطفولـة الجميلة. لم أكن أردّ عليهم، وربّما كانـوا علـى حـقّ، لا سـيما أنني كنـت أعتقد أن الملائكة هجرت عالمنـا ولـم يبـق منهـا سـوى لمحات لا يراهـا أحد. عالمنا ليس عالم الملائكة، لقد أجبرها على الهرب الى عالمها الآخر الذي لا نعـرف عنـه سـوى تلـك الإشـراقات التـي تحـلّ علينـا خطفاً، تلـك البـروق اللامعـة التـي تندلـع في سـمائنا فـي أحايين نادرة. أذكـر أننـي عندمـا شـاهدت فيلـم "أجنحـة الرغبـة" شـعرت بمـا يشـبه الراحة أو الطمأنينة. ما زال هناك من يؤمن بالملائكة ولو خرافـة. الفـن الحديـث تخلّـى عنهـم وقلّما كنا نشـاهد ملاكاً في لوحـة جديـدة أو كتـاب، مـع أن فـنّ العصور القديمة كان يفيض بالملائكـة، وكذلـك الأدب القديـم. لا أزال أتخيـل برونـو غانـز في الفيلم واقفاً على جدار عالٍ برداء أسـود وجناحين أبيضين. كانت تلك اللقطات الملائكية بالأسود والأبيض، هذين اللونين اللذين يبدوان كأنهما لون واحد. أما العالم فكان بالألوان. الفيلم باهر مثل عنوانه الفرنسي. هل يمكن أن يكون للرغبة جناحان؟ بـل هـل يمكـن أن يكـون المـلاك مجرّد رغبـة يحملها جناحان؟ عنـوان الفيلـم بالألمانيـة كان "السـماء فـوق برليـن" لكنه ما كان ليعبّـر عـن قـدرة المـلاك علـى أن يحـبّ، علـى أن يقـع في حبّ امـرأة، مثلـه مثـل أيّ كائـن مـن لحـم ودم. كان هـذا الفيلم الذي شارك في كتابته بيتر هاندكه أشبه بالصدمة التي أصابتني، جمالياً

ووجودياً أو لأقل ميتافيزيقياً. هوذا الملاك يعود الى عالمنا من المنفى السماوي، بل هي ذي الصورة تستعيد الملاك، مستعيدة زمنها السعيد، زمنها الطفولي الذي شوّهه العصر، عصرنا. عندما شاهدت الفيلم تذكّرت الصور التي لا تحصى والتي كنت أدأب على جمعها وكلّها تعجّ بالملائكة. وكنت أعود اليها دوماً، أقلّبها، مفتوناً بالملائكة التي كان الفنانون عبر العصور، يرسمونها وكأنهم يرسمون معالم من جنّة يتخيّلونها. كانت تلك اللوحات تفيض بحالات من النور لم تعد مألوفة، ولا أعلم من أين كان يشرق هذا النور: من العين أم من المخيّلة أم من القلب أو الروح؟ كان الملاك حينذاك ملاكاً ولم تحلّ به لعنة العصر الحديث فيضحي مرآة للإنسان المكسور أو الممزّق أو المسحوق أو المقتلع. كان الملاك رهيباً حقاً كما قال ريلكه.

كنت أقرأ كلّ ما يتوافر لي عن الملائكة. أبحث عمّا كتب عنهم، وكنت بفرحٍ أقرأ ما يقع تحت يديّ، بفرح مشوب بالدهشة واللذّة معاً. أذكرُ ما كتب عنهم دانتي أو ميلتون أو شكسبير الذي وصف الملائكة بـ "خدّام النعمة الذين يذودون عنا"، وبلايك الذي كان يراهم بين الأشجار، وغوته الذي كان يحلم بهم، وبودلير وولت ويتمان ولاوتسو وتوما الأكويني والقديس أوغسطينوس والمعلم إيكارت وابن العربيّ ودوستويفسكي وفيكتور هيغو وسواهم وسواهم ممن لم أعد أذكرهم. كتب دانتي في "الفردوس" يصف الملائكة بالكائنات التي افتتنت منذ البدء بمحيّا الله، ولم تُغضِ البتّة عن هذا المحيّا، وهكذا عيونها لم يصرفها أبداً عنه أي مشهد آخر. أما ميلتون فتخيّل في

"الفردوس المفقود" ما دار من حوار بين آدم والملاك حتى إذا انتهى الملاك من حديثه ظلّ صوته يرنّ في اذن آدم، صوت بلغ سحره من القوة أنْ ظن آدم، لبرهة، أنه ما زال يتحدّث. حتى شارل بودلير "الشاعر الملعون" لم تفته صورة الملاك فخاطبه مسمّياً إياه الملاك المفعم بالحبور وسأله إن كان يعرف القلق والخزي والندامة والنحيب والسأم والذعر المبهم في تلك الليالي المريعة؟ وقد لا يصدّق قارئ فولتير المشكّك والعقلاني، أنه كتب مرّة نصاً عنوانه "ملاك" اختتمه قائلاً: "لا نعلم تماماً أين يقيم الملائكة، إن كانوا في الهواء يقيمون، في الفراغ، في الكواكب: لم يشأ الله أن نعلم أين".

أذكر كيف بهرت مرّة عندما حملت كتاب "الاروسية" لجورج باتاي، شاعر فلسفة الجنس، وأبصرت على غلافه صورة المنحوتة الشهيرة "النشوة". اقتنيت صوراً كثيرة لهذه المنحوتة البديعة التي أبدعها الفنان الإيطالي برنيني، وكنت أضع بعضها على رفوف مكتبتي، حتى زرت مرّة كنيسة سانتا ماريا دو ماجيوري في روما ومكثت أمامها طويلاً أتأمل الملاك يطعن القديسة تريزا الافيلية بسهم من نور، فتستسلم لحالٍ من "النشوة" السماوية تنقلها الى الماوراء، ويحلّ على وجهها صفاء فردوسيّ. لم تفارق هذه المنحوتة البهية عيني منذ أبصرتها. شعرت برهبة لم يزد من احتدامها سوى نصوص تريزا الفاتنة التي رحت أقرأها وما زلت. إنها النشوة كاختبار صوفي، يتلاشى فيها الزمن وتنفتح الرؤيا على المطلق الذي هو الله. ألم تقل تريزا: "الله وحده يكفي"؟

كان الملاك يشغلني بالسرّ إذاً، وما برح، على خلاف بضعة

أصدقاء من الماضي أضحوا اليوم يرون في الأمر حكاية خرافية جميلة. لم أكن أتحدّث عن الملائكة أمام أحد، كان يُقال لي إنني كائن من الماضي. وقد فات هؤلاء أنّ في التاريخ علماً هو "علم الملائكة" وروّاده هم من كبار المتصوّفة والقديسين والأولياء والشعراء والرسامين. كان الملاك وجهاً من وجوه عالمي السرّي والملغز، ولم أكن أسمح لأحد أن يلجه. كنت أعتقد دوماً أنّ الملاك هو ماضي الإنسان قبل أن يسقط في هذا العالم، وسيكون هو مستقبله عندما يتحرّر تماماً من الحيوان الكامن فيه. فالإنسان الذي هو أنا أو أنت أو هم أو هنّ ليس إلا خليطاً من ملاك وحيوان. حيناً ينتصر فيه الحيوان على الملاك وحيناً الملاك على الحيوان. كان يخيّل إليّ مرات عندما أنظر إلى أحدهم، أنني أبصر حيواناً يمشي على قدميه وينطق، ومرات أنني أبصر ملاكاً يمشي أيضاً على قدميه وينطق. كنت أشعر أنني عندما أحبّ ينهض فيّ الملاك ويخطفني، وأنني عندما أقع في حفرة الغريزة، يهبّ فيّ الحيوان ويجعلني أتخبّط في بهيميّتي. إنني الملاك والحيوان، إنني الحقيقتان، الملائكية والحيوانية، متّحدتين ولكن على انفصال. لكنني كنت أظن دوماً أن الإنسان يرنو الى مستقبل ملائكي، أن الملاك هو مستقبله الذي لا بد أن يحلّ لا أعلم متى. ولطالما سألت نفسي: هل وجد الملاك قبل آدم؟ متى اكتشف الإنسان الملاك؟ ولم أكن أسعى لأجيب لأنني كنت على يقين أن ما من جواب. أما أكثر ما كان يحيّرني فهو أن بضعة ملائكة كانت لها أسماء، أما الآخرون، الذين لا يُحصون، فلا. الملاك رافائيل، الملاك جبرائيل، الملاك إسرافيل... ظل

الملائكة ذوو الأسماء هم أنفسهم. لم يُطلق، طوال الأزمنة اللاحقة اسم آخر على ملاك آخر. مَن فازوا بأسمائهم، كانت أسماؤهم لهم، أما الذين لم يسمّوا فظلّوا بلا أسماء. لكنّ الملائكة كما أخبرتنا الكتب يتوزّعون في مراتب أو جوقات تسع، وبعضهم ينتمي الى الكاروبيم وبعضهم الى الساروفيم أو الشاروبيم... "علم الملائكة" يوضح هذه الأسرار بصفتها أسراراً، وهي هكذا. ويمكن أي شخص أن يأخذ بها أو لا. إنها مسألة داخلية صرف، مسألة حدس أو معرفة باطنية، بالقلب أو الروح أو الغريزة، الغريزة السماوية لا البهيمية. ولو سألت نفسي: ماذا أعرف عن الملاك بالفعل؟ لحرتُ في الجواب، مع أن الملاك حاضر فيّ بشدة. "هوذا الملاك. فكرة من الله، لا أكثر"، قال المعلم ايكهارت. أما القديس أوغوسطينوس فيقول: "الملائكة أرواح، ولكن ليس لأنهم أرواح هم ملائكة. يصبحون ملائكة عندما يُرسلون في مهمة".

وقعت مرّة على نصّ لا أذكر مَن كتبه، يتخيل فيه صاحبه أنّه حلم ذات ليلة أنّ جناحين نبتا على كتفيه وراح يحلّق فوق سطوح المنازل، ثم أخذ يصعد أكثر فأكثر حتى اخترق الغيوم، ومن وسطها شرع ينظر الى الأرض والسهول والتلال والأنهر... ثم اجتاز البحار والعواصف واقترب من الشمس وقد أخذه الخوف مشفوعاً بحال من الفرح. وعندما هبط الليل أبصر آلاف النجوم وبدت الارض بينها كأنها جوهرة فريدة بزرقتها المتوقدة. لقد وجد نفسه بعيداً من البشر، بعيداً من الحياة التي عرفها والتي ضحك فيها وبكى... "لقد أصبحت ملاكاً" قال حينذاك. أصبح

مـلاكاً فـي حلـم أبصـره ذات ليلـة. لكنّـه عندما اسـتيقظ وبعد أن تفقّد جناحيه ولم يجدهما، حلّ به أسـى شـفيف، أسـى الحالم عندمـا يفتـح عينيـه ويـدرك أن مـا أبصره هنـاك لم يكن إلا وهماً بوهم. لكنّ هذا الكائن عاش في تلك اللحظات حقيقة الملاك، كان ملاكاً بجناحين قبل أن يسقط على الأرض.

تُرى هل كنا ملائكة قبل أن نسقط على الأرض؟ هل يمكننا أن نتذكـر الملائكـة دون أن نعيـش بينهـم، بـل دون أن نعيشـهم؟ أليس الملاك كائناً حلمياً، كائناً لا يكون حقيقياً إلا لأنه من مادّة الحلم، المادّة اللامرئية والشفيفة كالأثير؟

الذكريـات تختلـط علـيّ، أنـا الجالـس الـى أوراق بيـض، الذكريات أو الصور التي لا أعلم كيف تهبّ ومن أين. أغمض عينيّ لأبصر هذا الشـخص الذي كنته، هذا الشـخص الذي كان إيايَ. كأنني والد ذاك الفتى الذي كان أنا ذات يوم، كأنني طفل الشخص الذي هو أنا الآن، الذي يتذكر، الذي لم يبق له إلا أن يتذكّر و "كأن عمره ألف عام".

الآن اكتشف الحياة مرّة أخرى، لا أقصد حياتي بل المعنى الـذي يرقـد فـي قلـب الحياة نفسـها. الآن أعود الـى تلك الحياة التـي أسـمع ضوضاءهـا خلـف النافذة، التـي أبصر ضوءها يلتمع علـى الورقـة أمامـي. إننـي عـدت الى الحياة التي لم أكن أتخيّلها فـي مثـل هـذه الرقّـة، لقـد طويت ورائي مـا طويت من صفحات بيض أو سود وها أنا أنظر إلى الأمام.

أكتـب الآن، أحلـم، أغمـض عينـيّ لأتوهّـم مـا يحلو لي أن أتوهّمه، يقظاً، أخترع عالماً لا يبصره أحد سـوايَ. إنها الكتابة، الوجه الآخر للحلم، أستعيدها مستعيداً خيط الأحلام التي تحلّق في سمائي مثل طيّارات من ورق. أكتب، ماذا أكتب؟ لا أدري، أعـرف فقـط أن القلـم يوشّـح الورقـة البيضاء بحبر ليس بأسـود، بحبر أبيض مثل الورقة نفسـها. لماذا أكتب؟ لا أدري أيضاً ولا يهمّني أن أعلم لماذا. الكتابة لا تحتاج الى مَن يسـأل عنها ولا

إلـى مَـن يبرّرهـا. إنهـا الكتابـة وحسـب. الكتابة التـي لا غاية لها سـوى نفسـها، هـذه النفـس التـي هـي أنا، التي هـي الآخر الذي هـو، هـو المجهـول الـذي يبحث عن صورتـه. الرغبة في الكتابة قد تكون أهمّ من الكتابة. إنها ما يسـبق الكتابة وما يليها عندما يكتشف مَن يكتب أنّه ضحيتها، أنّه لم يكتب ما يحلم أن يكتبه. هـذه المتاهـة قـد تكـون أجمل ما في الكتابة، المتاهة التي يبحث فيها الشخص عن نفسه، يجدها ثم يفقدها ثم يروح يبحث عنها فيجدها ثم يفقدها ثم...

أكتـب الآن، لقـد عـدت الـى الحيـاة. أنظـر فـي المـرآة الى النـدوب التـي فـي الصـدر فأظنّها حروفاً لـم يخطّها أحد، أخالها كلمات كُتبت بحبر خفي. إنني أبصرها الآن على الصفحة البيضاء وقـد أضحـت ذكـرى جـروح، أبصرها في قلب اللغة التي تمضي نحـو غدهـا شـبه المجهـول، فـي صميـم الصمـت الـذي تختزنه الكلمات عندما تعصى على الكلام.

لا أعلم لماذا كتبت ما كتبت ولا كيف. لا أعلم أيضاً ماذا كتبت. لا أعلم لماذا استعدت فقط هذه الصور من شريط متقطع هو الحياة نفسها؟ لماذا لم أتذكر صوراً أخرى عبرت أيضاً مثل أطيـاف فـي منـام؟ أعلـم فقـط أنني لو لـم أكتب لما خرجت من هاوية الجسد المعطوب، من حفرة الغياب الذي لا صفة له، من لجّة النسيان الذي يشبه الموت. الكتابة قادرة حقاً على وقف نهر الزمن، النهر الذي لا ضفتين له، المتجه نحو الموت أو ما شابهه. الكتابـة تحـوّل وجهـة الزمـن، فعوض أن يتجه الى الوراء، ها هو الى الأمام يمضي جارفاً ما يجبهه من سدود. إنني أعيش الكتابة

مثلما أعيش بها، أموت بها، أموتها أيضاً لأعيش بها وأعيشها، الحياة لا تكون دونها وكذلك الموت، الموت الذي تسبقه فيصبح وراءها. إنها الموت والولادة في لحظة واحدة، الولادة في لحظة الموت نفسها. إنني بها أسلّم نفسي لتبقى حيّة أو لأبقى حيّاً. بها أكون تمام الكينونة، بها أكتفي تمام الاكتفاء. بها أسعى الى أن أعرف نفسي، أنا الذي يكتب وأنا الذي يُكتب عنه أو يُكتب. أنا الكاتب وما يُكتب. أنا مَن يمحو وأنا من يمّحي في زرقة الحبر، البارد الحبر، الحارق الحبر، الذي يشيع مثل غمام لا سماء له. كأنني نرسيس أمام صفحة الماء، لا أرتمي في ماء صورتي بل أرسم صورة لنفسي، أتأملها، أتأمل الشخص الذي فيها، الذي قد يكون أنا وربّما سواي. كأنني إثنان عندما اكتب، إثنان في صيغة المفرد.

لم أدرِ لماذا لم أفكّر في الكتابة خلال الأيام التي أمضيتها راقداً في المستشفى. لم أقلق حتى على الأوراق الكثيرة التي تركتها في الأدراج ولم أخشَ أن تظلّ كما هي، أوراقاً مبعثرة تحتاج الى نظرة أخيرة ألقيها عليها. لم أفكّر فيها كثيراً ولم أتصوّر أنّ أحداً سيكملها ويجمعها، إن أنا لم أعد. لم يخطر في بالي لحظةً سؤال الكتابة. لم أكن قادراً حتى على القراءة، كأنّ مواجهة الموت تجعل العالم صفحة بيضاء لم يُكتب عليها حرف. لم أسأل نفسي إن كنت كتبت ما كان يجب عليّ أن أكتبه، إن كنت قد قلت كلّ ما أطمح الى قوله. هذا أمر لم يشغلني البتة، أنا الذي كان دوماً على سباق مع نفسه وربّما مع الكتابة. وكنت أشعر أنني لم أكتب إلا اليسير مما ينبغي لي أن أكتبه. هذا الشعور الذي

شغلني طويلاً فقدته طوال تلك الأيام. ولم أشجّع نفسي على الكتابة، لم أسعَ إليها كما كنت أفعل سابقاً، لم أضع ورقة بيضاء أمامي ولم أجلس إليها بصمت، دون أن أكتب ولو جملة واحدة. لا أدري لماذا هربتُ من الصفحة البيضاء. تذكّرت كيف كان بدر شاكر السياب، شاعري الأثير، يكتب القصائد بغزارة، على سرير المستشفى، وكأنّه يسابق الموت. كان يسابق الموت بالكتابة ولم يكن يواجهه بها. لكنّ السياب كتب ما لم يكتبه سواه من رفاقه الذين عاشوا طويلاً بعده على رغم عمره القصير. لم أحاسب نفسي على تقاعسي ولم أندم. بعض الكتّاب تشعر حيالهم أنهم كتبوا ليسبقوا موتهم. لقد كتبوا في أعوام قليلة ما يكتبه سواهم طوال عقود. هؤلاء يحدسون بالسرّ أن الموت يترصّدهم وليس عليهم إلاّ أن يتحايلوا عليه. وعندما يرحل هؤلاء يقال عنهم إنهم رحلوا في أوج عطائهم. لكنّ هؤلاء لم يرحلوا في خريف عمرهم ولو كانوا في عزّ شبابهم. لقد شعروا أن الحياة انتهت هنا. ولطالما سأل بعضهم: لو أن الموت لم يخطف فلاناً في ذروة عطائه ماذا تراه كان سيكتب؟ هذا سؤال لا جدوى له. الكتابة صنو القدر نفسه، بل هي وجه من وجوه هذا القدَر. هكذا مات أولئك الشبان غير متحسّرين على ما لم يكتبوا بعدما كتبوا ما كتبوه. رامبو سبق موته بالصمت، مات بالصمت. لكنّ هذا الشاعر الأعجوبة لم يصمت إلا بعد أن وجد لغته. وما أكثر أشباهه الذين ماتوا حقاً بعد أن وجدوا لغتهم. صمت رامبو كان بمثابة موت سرّي. الموت المجازي أقسى من الموت الذي يحصل في الواقع.

لا أعلم لماذا أفكّر في هذا السباق بين الكتابة والموت، الآن، فيما أنا جالس الى أوراقي، أتذكّر ما أتذكّر من أضغاث حياة، كانت حياتي بالأمس وما أبعدها، كنت على يقين أن الكاتب لا يكتب إلا ما قدّر له أن يكتب. وكم من كتّاب لم يُقدّر لهم أن يكتبوا كلمة ولو واحدة. أتذكّر صديقاً لي كان على أهبة لأن يصبح شاعراً وربما شاعراً كبيراً، لكنّه رفض أن يكون شاعراً. مزّق كلّ قصائده ورماها، وقرّر أن يصمت. لو كان لي أن أنقذ قصائده لفعلت. ولكن. أما هو فلم يندم. كانت الحياة في نظره هي الأهمّ، الحياة كما فهمها هو، الحياة التي تشبه القصيدة التي لا نهاية لها. هذا الصديق وحده علّمني ماذا تعني الكتابة، ماذا يعني هذا العبث الذي يجذبنا إليها، هذا الهاجس الذي ليس سوى قبض ريح.

لا أكتب لأواجه ولا لأتحرّر ولا لأنتفض ولا لأهرب ولا لأغيّر الحياة أو العالم ولا ولا... أكتب لأكون أنا نفسي، لألقي ضوءاً على نفسي، نفسي التي يظلّ يكتنفها الظلام مهما ألقيت عليها من أضواء، نفسي المعتمة، نفسي التي هي الناحية الأخرى منّي، من الأنا، من الروح، من النظرة... أكتب لأرى نفسي وقد استحالت أسطراً من حبر، أسطراً تبرق مثل نجوم بلا ليل. تصبح اللغة هي الروح وهي الجسد الذي ليس كالجسد.

إنني أكتب، ألتمّ على نفسي، أجمع بقاياَيَ التي لم يبق سواها، أعزل نفسي وراء صور من حبر، انقطع عمّا ليس نفسي، ومثلما فعل نرسيس أغرق في نفسي التي هي أنا والتي هي الآخر والتي هي العالم وقد استحال ذكرى. يبدأ العالم ذكرى عالم،

وينتهي هنا على الصفحة ذكرى عالم.

ماذا أكتب؟ لا أدري، أعرف أنني أكتب، أنني أعيش الكتابة، أنني بها أعيش وبها أميت الموت. لا يهمّني ما أكتب، المهم أنني أكتب وما أكتبه وحده يجيب على السؤال الذي لا جواب له.

أكتـب الآن، لقـد عـدت الـى الحيـاة حقـاً. مـا أجملكِ أيتها الحياة عندما تشرقين من وراء سور الليل.

قلبٌ مفتوح

عبده وازن

شاعر وكاتب لبناني، يدير الصفحة الثقافية في جريدة «الحياة». من مؤلفاته: «الغابة المقفلة»، «العين والهواء» (نص)، «سبب آخر للّيل»، «حديقة الحواس» (نص، منعته الرقابة اللبنانية عام 1993)، «أبواب النوم»، «سراج الفتنة»، «نار العودة»، «حياة معطلة».

صدرت له مختارات من شعره بالفرنسية، ومختارات بالبرتغالية. وترجمت قصائد له إلى الإنكليزية والإسبانية.

ترجَم قصائد ونصوصاً من الفرنسية إلى العربية.

فتحت عينيّ كما لو أنني أفيق من نوم طويل، كان الظلام من حولي خفيفاً. لم أدر إن كان ليلاً أو نهاراً. ردهة واسعة أدركت حين أدرت ناظريّ أن فيها أسرّة أخرى، وأنّ على سرير بالقرب مني ينام رجل يرفع صوته حيناً تلو حين، ولكن من غير أن ينبس بأي كلمة. ناديت بملء صوتي: إنني عطشان. لم يسمع أحد، وسرعان ما أدركت أنّ لا صوت لي. رحت أطرق بيدي على خزانة صغيرة الى جانبي. أتت ممرضة، أشرت إليها بيدي إنني عطشان. سمعتها تقول: بعد قليل. غفوت ثم صحوت. جاءت الممرضة بقليل من الماء.

عندما فتحت عينيّ جيداً وعاد صوتي إليّ تذكّرت، أول ما تذكّرت، كيف مدّدوني على سرير العربة البيضاء ثم كمثل رجل ثمل أو مخدّر استسلمت لنعاس لطيف تشوبه حال من النشوة.

تصميم الغلاف: سامح خلف



